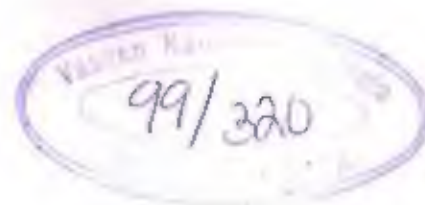


روجيه غارودي

نحو حرب دينية؟ جدل العصر

مقدمة ليوناردو بوف
ترجمة: صيَّاح الجهم



« نحو حرب دينية »

« روجيه غارودي »

« مقدمة ليوناردو بوف »

« ترجمة: صيَّاح الجهم »

« الطبعة الأولى ١٩٩٦ »

« الطبعة الثانية ١٩٩٧ »

« جميع الحقوق محفوظة للناشر »

« الناشر: دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع »

« بيروت - لبنان ص.ب. ٥٧٥٢ ١١٢ »

« هاتف ٦٥٩١٢٨ - ١ »

ليس المقصود بالحرب الدينية حرباً بين
الإسلام والمسيحية، ولا بين الإيمان وعدم
الإيمان؛ وإنما هي تلك المواجهة الأساسية
بين «وحدانية السوق» - أي المال - وجميع
الذين يريدون أن تكون لحياتهم معنى.

ولاجتدال فيما طرحه المؤلف حول هذه
«الوحدانية» الجديدة. أما مقالته المؤلف عن
المسيحية والإسلام والماركسية والدول
الاشتراكية والغايات سوف يكون مثار
جدل كبير. وعسى أن يكون ذلك الجدل
مثيراً يقرب بين الشعوب ويساعد على
تخفيفها من ذلك الجبروت الجديد. ومن
أجل هذا الجدل تُرجم الكتاب.

المترجم

مقدمة

حقيقة النبوة

مثلاً هو «دوم هلدركامارا» رئيس الأساقفة البرازيلي، بالنسبة إلى الكنائس، كذلك هي حال «روجيه غارودي» بالنسبة إلى المجتمعات القرية. وهما صديقان منذ سنين. ولقد عقدا اتفاقاً ظلاً وفين له منذ عقده: كان علي أحدهما أن يؤطد البعد الديني في الاشتراكية، وكان علي الآخر، أن يعيد اكتشاف منظور التحرر الذي افتتحته المسيحية.

حقّق غارودي وهلدركامارا في حياتهما هذا الاتفاق المبرم في ٢٩ أيار ١٩٦٧: علّق غارودي أهمية متزايدة على البعد الروحي الصوفي للحياة، وعلّق هلدركامارا أهمية على البعد التحرري للمسيحية: لقد جمعت بينهما روح النبوة.

النبي، دائماً، رجل لحظة من التاريخ. وهو يلتقط الصرخات الآتية من عالم المعبودون على الأرض، ويستكر المظالم بسخط مقدس. لكنه يُشر بالأحلام المبدعة للمعنى، ويفتح التاريخ على مستقبل حاملي للأمل.

كتاب «روجيه غارودي» هذا امتداداً لكتابه السابق: «هل نحن بحاجة إلى الله»، مع اهتمامه نفسه بمصير الإنسانية في لحظة تُسيطر فيها على العالم السوق ودكتاتورية النموذج الغربي للنمو.

إن نموذج «العقولة» هذا قتال على نحو عميق. فهو يكلف العالم هيروشيميا جديدة كل يومين. ذلك أن عشرين بالمئة من البشرية تحتفظ بثلاثة وثلاثين بالمئة من الثروة العالمية. والجوع موجود في العالم الأول، وموجود بكثافة في العالم الذي ثلثاه من الفقراء. في الولايات المتحدة يشكو من الجوع طفل من ثمانية. وفي البرازيل يموت كل سبعين ثانية طفل ضحية للجوع. وفي العالم يموت كل عام خمسة عشر مليوناً ونصف من الأطفال بالجوع أو بالأمراض التي تولدها الجوع. فما هذه البشرية العاشمة، الخالية من الرحمة - كما يسأل غارودي - والمؤلفة من برايرة مزودين بمحركات يعيشون في أدغال ما قبل التاريخ، حيث لا وجدان يفكر في الله، في وحدة الكون ومعناه.

في العالم اليوم انقسام كبير بين الذين يأكلون والذين لا يأكلون، بين الذين يستأثرون لأنفسهم بوسائل الحياة حتى التخمرة استشاراً أنانياً، وبين الذين تركوا لمصيرهم كي يموتوا قبل أوانهم.

لا يمكن لأحد أن يقبل بمثل هذا الوضع. فجميع التقاليد الروحية وجميع الديانات ترفضه: فلم هي صامته وغير فعالة أمام هذه المصيبة العالمية؟ لأنها تواطأت، عبر التاريخ، مع السلطات المسيطرة وأصبحت ديانات السيطرة. إنها تحمل في ذاتها مبدأ التحرر من تلك الانقسامات اللاإنسانية، ومبدأ تجاوزها. وهي شاهدة على أننا جميعاً على صورة الله الذي نفخ الروح فينا، وجعل من واجبنا أن نكون واحداً مع الكل. وهي تستطيع أن تساعد، أكثر من أية قوة تاريخية، في خلق وحدة للعالم، ووحدة ديناميكية، مركبة، أخوية وسمفونية. لكنها ينبغي، من أجل ذلك، أن تتحرر من العجرفة ومن الأصولية، ومن الايديولوجية القبلية والقاتلة، ايديولوجية «الشعب المختاره» التي تميز المسيطرين.

من الضروري أن نفتح أنفسنا لتجربة الله الأصلية التي هي أمل بالمعنى، والتي تتجلى في الفعل المبدع للإنسان، في الفنون، وفي جميع أشكال التعبير التي بها يهب حياته وحياة المجتمع معنى، والتي فيها يدرك معنى المعاني جميعاً مخبئاً في قلب كل لقاء حقيقي. وما هنا ينبعث المقدس الذي ليس مرتبطاً ارتباطاً ضرورياً بما هو «ديني» أو بما هو «شعائري»، بل بكل ما يكثر أبعاد الحياة ويفتح القلب على آفاق أخدية أبداً في الاتساع.

إن غارودي يعد في القديس بولس بدور مسيحية السيطرة. ولذلك فإن «البولسية» السياسية تتمفصل بسرعة شديدة مع سلطات هذا العالم وتشكل في بنية كدين للسيطرة الامبراطورية على هذا العالم. ومع البحث المستقصي ومع معنى ما هو رامن يعثر غارودي على تجربة يسوع الأصلية وعلى دلالتها التحررية للإنسانية كافة. هذه المسيحية هي وحدها الجديرة بأن تمتد إلى العالم بأسره. أما المسيحية الأخرى، مسيحية الغرب فهي بما هي عليه عرض.

نحن نعثر على المسيحية التحررية لدى حكماء جميع الثقافات؛ ولها قرى مع جميع التقاليد الروحية التي فتحت دائماً منظوراً لحضور متضامن مع المضطهدين، ولوحدة الخلق في كليته.

إن تجربة يسوع الأصلية محقة اليوم من قبل مسيحية التحرر في أمريكا اللاتينية وفي أفريقيا وآسيا، ونجد أقوى تعبير لها في جماعات القاعدة المسيحية وفي لاهوت التحرر. وعلى هذه المسيحية يتوقف، برأي المؤلف، استمرار حياة الإنسان.

بين أيدينا هنا كتاب عظيم الكثافة يرتعش بالحبة وبالروح النبوية.

إنه يحتوي على صفحات رائعة تدعو كلاً منا إلى أن يكتشف في

ذاته الله الذي يسكنه، والقدرة على التقاط الطاقات الكونية التي نحيا
فيه، والطاقة الغنية لكل شيء. إنه كتابٌ ضروريٌ يساعد العقول
الكريمة على التوجه في «جمل العصر».

ليوناردو بوف

رومي جاليليو ١٥ آب ١٩٩٤

مدخل

«صلاة لراحة، الانحطاط»

هل للعالم روح، أي هل له وحدة ومعنى؟

نحن نعيش في عالم منشطر، بين الشمال والجنوب، وفي الشمال كما
في الجنوب، بين الذين يملكون والذين لا يملكون. إن ثمانين بالمئة من
الموارد الطبيعية في كوكبنا يشرف عليها ويستهلكها ٢٠٪ من سكانه. أي
إن الـ ٢٠٪ الذين هم الأكثرون غنى يملكون ٨٣٪ من الدخل العالمي،
والـ ٢٠٪ الذين هم الأكثرون فقراً يملكون ١,٤٪.

نتيجة هذا الانشطار، يموت كل يوم ٤٠.٠٠٠ كائن بشري من سوء
التغذية أو من الجوع.

والهجرة تسرع: فائز السنين الثلاثين الأخيرة انتقل الفارق بين البلدان
الفيرة والبلدان الغنية من (١ إلى ٣٠) إلى (١ إلى ١٥٠).

إن هذا الانشطار في أصل مشكلتنا الحيوية. وتلازم العالم اليوم، العالم
بأسره، الشمال والجنوب، ثلاث مائتي كبرى هي: مأساة الفقر، ومأساة
البطالة، ومأساة الهجرة.

وترتد جميعها إلى المشكلة الوحيدة نفسها المتولدة من استغلال أربعة
أخماس العالم، وهو استغلال يجعلها ثقلية. وفي الوقت نفسه، وفضلاً عن
مئات ملايين العاطلين عن العمل في العالم الثالث، من المستعدين الذين لا يذكرون
أبدًا، أحصى نحو خمسة وعشرين مليوناً من العاطلين في البلدان المتقدمة.

يقال إنها «زيادة الإنتاج». لكنها زيادة إنتاج بالنسبة إلى ماذا؟ - بالنسبة إلى السوق الوحيدة المليئة. حين تحمل ثلاثة مليارات رجل وامرأة، من خمسة مليارات مفلسين بالاستعمار أولاً، ثم بالسياسة الاستعمارية الجديدة لقادة البلدان الأكثر تصحُّلاً: الـ (G7)^(١)، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، المضاربة على الدين. وهذا الذي وُلد لأن اقتصاد البلدان التابعة قد هُدم الاستعمار بجه، فعرّض، عليها، على حساب الزراعات الغذائية، زراعات أحادية وإنتاجات أحادية جعلت من هذه البلدان مُلحقات باقتصاد الدولة المستعمرة، ثم جامعة للعملاء الصعبة كي تستد ديونها لصندوق النقد الدولي.

والهجرة هي تلك الحركة التي لا سبيل إلى كبحها والتي تفقد الذين لا يستطيعون العيش على أرض أجدادهم من منطقة الجوع إلى منطقة البطالة.

إن الدول والأحزاب السياسية في البلدان الغربية لاتصدي أبداً للمشكلة على هذا النحو، لأنها محاصرة منذ خمسة قرون بالتخيلات الخداعة، تخيلات النمو القائم على الإنتاج المتزايد أكثر فأكثر وأسرع فأُسرع، إنتاج أي شيء مفيد وغير مفيد، ضار بل ومميت (كالخدّرات والأسلحة).

في هذا المنظور لا يمكن للإنسان أن يعرف سوى نجاح المتجر الكبير، أي أن لا يكون سوى منتج (عندما لا يكون عاطلاً عن العمل) ليكون مستهلكاً أكثر استهلاكاً.

هذا النمو يقدّمه السياسيون ووسائل الإعلام على أنه الترياق للخروج من الأزمة ومن البطالة، في حين أن النمو الحاصل منذ ١٩٧٥، والناجم

(١) الـ (G7) هي الدول السبع الكبرى.

عن زيادة الإنتاجية بفضل تطوّر العلوم والتقنيات لم يعد يخلق وظائف جديدة، لكنه، على العكس، يحذف منها، إذ يُحل شيئاً قشياً بعمل الآلات محلّ عمل الإنسان. لقد أنتجت بلجيكا في ١٩٨٠ (١٠ ملايين طن) من الفولاذ بـ ٤٠٠٠٠ / عامل، وفي ١٩٩٠ أنتجت ١٢ مليوناً ونصف بـ ٢٠٠٠٠ / عامل.

إن النمو تخوِّضه أرباح الإنتاجية الحاصلة بفضل العلم والتقنيات التي تُتيح إحلال الآلات محل جزء كبير من العمل البشري، وأكثر من الآلات اليوم إحلال تطوّر تقنية الإعلامية والإنسان الآلي والناظمات.

من غير المعقول تجريم العلوم والتقنيات.

إن المصيبة تأتي من الاستخدام الذي نستخدمها فيه.

مثلاً: تزايد الإنتاج منذ ١٩٧٠ بفضل هذه المكتشفات نحو ٨٩٪ وتلك فرصة مؤاتية للإنسانية كي توفر على نفسها عناء المهام التي تتطلب التكرار أكثر من غيرها. لكنها مصيبة على الإنسانية عندما لاتتناقص مدة العمل في الفترة نفسها، وعندما تتضاعف البطالة أكثر من عشر مرات. وذلك يعني أن زيادة الإنتاجية التي مرّدها إلى العلوم والتقنيات لم تخدم مجموع الإنسانية، وإنما خلّعت مالكي وسائل الإنتاج فقط.

ولو أن مدة أسبوع العمل رُبّطت بتبدلات الإنتاجية لكان ذلك خيراً للجميع.

ولو أن زيادة أوقات الفراغ لم يستردها سوق أوقات الفراغ الذي يُحوّل الوقت «الحُر» إلى وقت فارغ، مُفرغ من الإنسانية بنوع «التسليات» التي تُقترح له والتي لا تُبشّر التفتح الجسدي والثقافي، لكان ذلك خيراً. إن فسحة الحياة هذه، بدلاً من أن تساعد الإنسان على أن يكون إنساناً، أي

مُبدعاً، بموجب نظام السوق، تميل إلى أن تجعل منه عاطلاً عن العمل، وفي أحسن الحالات مُستهلكاً.

إن مشكلة البطالة لا يمكن أن تُحلَّ في إطار الغرب. وهي لن تُحلَّ إلا إذا وُضعت في المقام الأول مشكلة الحاجات الإنسانية للعالم الثالث، أي ثلثي العالم، وهي حاجات يمكن أن يخلق إرواؤها وحده أسواقاً يوسعها أن تقضي على بطالة البعض وجوع الآخرين. وحتى في الحدود الأيديولوجية للسوق، الحل الوحيد الممكن هو أن يُجفل غير المُلهي ملياً وذلك بالكف عن إتهامه بالذين وبالمبادلات غير الشكافة.

لا يمكن أن تُطرح المشكلة هذا الطرح عندما نحس أنفسنا في منظور اقتصاد السوق. إن نقد اقتصاد السوق لا يعني شيئاً أنه ينبغي إلغاء السوق بتخطيطٍ قادرٍ على كل شيء من جانب الدولة.

إن ما يستحق اليوم «اقتصاد السوق» ليس سوقاً تبرر فيه الحاجات على السوق، وتهدف فيه المبادرة الفردية إلى إشباع هذه الحاجات، ومن شأن ذلك أن يردَّ السوق إلى وظائفه الضرورية والسليمة.

اقتصاد السوق، بشكله الراهن، اقتصادٌ تكون فيه السوق هي الناظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية، وفيه يُشترى كل شيء ويُباع بما فيه الإنسان وعمله. ويحدث حينئذٍ ما سماه «غالبريت» «انعكاس السلسلة»، إذ لا ينتج المنتج استجابةً لحاجة، لكنه يخلق حاجات (ولو كانت مصطنعة أو حتى منحرفة) ليتمكن الإنتاج من التوسع الدائم.

مثل هذا الاقتصاد يستند إلى تصوّر للإنسان مقصوراً على بُعدين وحيدتين: الإنسان منتجاً ومستهلكاً. وفي مرحلة الرأسمالية الصاعدة أعطاه «هوبز» هذا التعريف المقتضب: «الإنسان ذئبٌ للإنسان».

والمسألة التي ستكون وحدها هي الحاسمة: مسألة وحدة العالم

وغايات الإنسان الأخيرة، لا يمكن أن يطرحها رجال الاقتصاد والسياسة الذين يقبلون جميعاً بمسألة هوبز، مصدر جميع أنواع العنف على مستوى الأفراد وكذلك على مستوى الأمم.

هذه المشكلات الاقتصادية والسياسة تستند في نهاية الأمر إلى مشكلة الغائية أي إلى مشكلة دينية.

فلن لم تستجب إلى ذلك الديانات المؤسسية؟

لا الكنيسة المسيطرة لدى المُبشرين: الكنيسة الكاثوليكية، ولا الدين المسيطر لدى المُبشرين عليهم: الإسلام.

لأن كلاهما قد تحالف مع السلطة والثروة. ولم يضع مسألتيهما موضع الاهتمام.

ولأن كلاهما أفرز منذ قرون «لاهوت السيطر»، مقدماً الله كقوة خارجية وغلباً تخلق الإنسان والعالم والملوك الذين يُديرُونَ شؤون الناس، دفعةً واحدة وإلى الأبد. كل سلطة قد ربّتها الله. «ومن يقاوم السلطان فإنما يُعاند ترتيب الله» هذا ما كتبه القديس بولس بعد بضعة سنواتٍ من موت يسوع المسيح الذي كانت حياته كلها اتهاماً للنظام القائم.

كذلك الأمر بعد وفاة النبي محمد ﷺ بسنواتٍ قليلة، عندما استخدم الأمويون السلطة والثروة وأسأروا استخدامهما؛ وعندما احتج المسلمون الأتقياء الذين عاشوا حياة الجماعة مع النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، على هذا العبث بالرسالة، أجابهم السلطة: إن كان هذا أميركم فلأن الله قد أَراده وعليكم طاعته.

وبالرغم من هذه الهيمنة التي مرَّ عليها أكثر من ألف سنة، هيمنة «لاهوت السيطر» عاش ملايين المسيحيين على طريقة «سان فرانسوا داسيز»، أو على طريقة «لاهوت التحرر»، رسالة يسوع التحررية التي بشر

بها الفقراء قبل غيرهم. وفي عهد البابا العظيم جان الثالث والعشرين ومجمع الفاتيكاني الثاني طلع الفجر الذهبي لأمل كبير: أمل بكنيسة مفتوحة على العالم وقلقه، وبحوار مع إيمان جميع الناس. لكن ثقل التقليد الامبراطوري الروماني قد أغلق هذه الفرجة، وأعاد الأصولية التقليدية للاهوت السيطرة ضد لاهوت التحرر، لتدين بالكلام وثبات القوة والمال، ولتحالف بالعمل مع السلطات حتى لو كانت مجرمة مثل سلطة «بيتوشيه» أو سلطات «كاثوليكية» هابتي العسكرية الدموية (التي لم يعترف بها سوى الفاتيكاني) ضد الأب «ارستيد» المذنب بتعاطفه مع لاهوت التحرر.

والتواطؤ نفسه مع السلطات تجلّى طوال قرون وحتى يومنا هذا، في الإسلام، منذ دكتاتورية بعض الحكام الأمويين الفاسدين، إلى بعض أنظمة راهنة أكثر فساداً تحالف مع الاستعمار الذي تقوده الولايات المتحدة. ونودع مليارات دولاراتها في البنوك الأمريكية، ممارسة بذلك ما حرّمه القرآن: الرباء، أي الربح بلا عمل.

والتوازي أنحاداً بين لاهوتي السيطرة: الحياة الأساسية تحاول أن تموّه نفسها في تشدد طقسي شعائري. إن أسوأ المتجرّين الفاسدين، وأعنى اللصوص يتنصّعون بالقرآن ليقطعوا يد السارق الصغير. أليست وحدة العالم ورفض تراكم الثروة في أحد قطبي المجتمع، والشقاء في القطب الآخر، أليست ذلك في مركز الوحي الذي تسلموه، من أجل أن يكون العالم واحداً مثل الله الذي خلقه؟

كل ذلك يحجب الواقع المركزي ومأساة زمننا: نحن نعيش أشرس حروب الدين.

لايين الكاثوليك والبروتستانتين، ولا بين المسلمين والمسيحيين، وإنما بين هذا الدين الذي لا يجرو أن يعلن عن اسمه والذي يحكم بالفعل،

اليوم، جميع العلاقات الاجتماعية وجميع العلاقات الدولية على حد سواء: وحدانية السوق التي تغطي جميع الوثنيات.

ليس عصرنا ملحدًا: بل هو متعدّد الآلهة. إن وحدانية السوق تولّد عبادة أوثان شتى: المال والسلطة والقوميات والأصوليات.

وفي مواجهة هذه الوحدانية، القادرة على كل شيء اليوم، فإن المهمة الأكثر استعجالاً هي تجميع كل من للحياة عندهم معنى، والذين يعون أنهم مسؤولون شخصياً عن اكتشاف ذلك المعنى وإقامته.

معنى غير الإنتاج والاستهلاك المترايين في لامعنى حياة يندو رمزها مدار ذاتي الحركة تمضي فيه بسرعة متزايدة، ولا تمضي إلى أي مكان، والموت ينتظرنا فيه عند كل منعطف.

لا يمكن أن يكون للحياة معنى إلا إذا كان العالم واحداً، لا أن يكون عالمًا لا يستطيع أن يزداد فيه البعض غنى إلا بشرط أن يزداد فيه الآخرون فقراً كما هي الحال في النظام الرأسمالي. لأنه إذا كان الانقسام اليوم بين الشمال والجنوب أكثر ما يكون إيلاماً، ولا يتي بتفاقم، فهو لا يمكن أن يؤدي إلا إلى انفجارات ستكون نهايتها انتحار الكوكب، وليس هو الانقسام الوحيد: لقد اعترف «كلتون»، منذ مجيئه أن ١٪ من المواطنين الأمريكيين يملكون ٧٠٪ من الثروة القومية. وإلى هذا الـ ١٪ ينتمي بطل «الاس» أو «سانتا برابره» الذي تُنشر كل يوم، عبر العالم، مغامراته القادرة والوهاجة وكأنها تمثل أمريكا بأسرها، في حين يعيش فيها ٣٣ مليون أمريكي تحت عتبة الفقر.

إن منظمة الأمم المتحدة للطفل (اليونسيف) تُعلمنا أنه في سنة ١٩٩٤ وفي الولايات المتحدة كان طفل من ثمانية أطفال لا يشبع من الطعام، وفي السنة نفسها مات في العالم خمسة عشر مليوناً ونصف من الأطفال بسبب سوء التغذية أو الجوع.

أهنه هي «نهاية التاريخ»؟ وعاجه المهيمنة؟ أفلا يكشف لنا هذا الانقسام المتزايد للعالم أننا ما نزال برابرة مزودين بمحركات، نعيش في أدغال ما قبل التاريخ حيث لا وجدان يفكر في الله، في وحدة الكون ومعناه؟

ما من حكمة ولا دين يمكنهما أن يهلا بهذا الانقسام للعالم وبذلك الاستبعاد لثلاثة أحماس سكانه من حقوق العيش إنسانياً.

أهذا هو الإنسان الذي ضُبع على صورة الله كما تقول التوراة؟ الإنسان الذي نفخ فيه الله من روحه كما يقول القرآن الكريم؟ أهذا هو الإنسان في كل حكمة لا تستعمل اسم «الله» وإنما تستعمل «الواحد» و«الكل»، لتشير إلى مقتضيات نفسها؟ أن يكون المرء واحداً مع الكل؟ هذا ما تعلمه التأويّة الصينية مع «لاوتسو».

وأنت هو ذلك^(١). هذا ما نقوله نصوص الأوبانيشاد الهندية التي علمت الإنسان، منذ ثلاثة آلاف سنة، أن أشد الأشياء حميمية وشخصية فيه هو حركة الحياة الوحيدة، تلك القوة التي تبث الحياة في جميع الكائنات؛ تلك القوة الموجودة مع وجود الحياة ستنتها دبانات الأمريكيين الهنود «الله»، هذا الإله الذي اكتشفه القديس أوغسطين وكأنه «داخلي فيه أكثر من نفسه».

وعند ملتقى الشرق والغرب، قبل ستة قرون من عصرنا، صاغ هيراقليت ذلك القانون الشامل والأبدي: «الكل واحد». إن قانون الحياة تحقيق انسجام الواحد - الغرب - على مستوى آلاف السنين - غرض، كما قلت منذ عشرين عاماً بصدد الادعاءات الغربية «للشعب المختار» المكلف بتمدين العالم.

(١) ذلك: أي الحياة الكلية. المترجم.

إن هذا التفكك في النسيج الاجتماعي، وتلك التمزقات مبررة ولا سيما أن العلوم والتقنيات حققت في العالم وحدة فعلية. لقد أصبح ممكناً، من الناحية العسكرية، مع الصواريخ والسلاح النووي، بلوغ أي هدف انطلاقاً من أية قاعدة. ومن الناحية الاقتصادية، إن أي انهيار مالي في أية بورصة يخلق أزمة وبطالة في كل مكان. ومن وجهة النظر الثقافية، جعل التلفزيون وتقنيات الصورة كل نقطة من الأرض حاضرة في جميع النقاط الأخرى، وفيها تيسط الأقوى والأغنى الهمجية العظمى.

كيف يتم الانتقال من وحدة القوضى والبربرية تلك التي تخضع لها إلى وحدة مقصودة، صالحة لتفتح الإنسان وجميع الناس؟ وإذا شئنا أن نعتز عن ذلك بكلمات أخرى: كيف يتم الانتقال من اللامعنى إلى المعنى؟ من الانحطاط إلى النهضة؟ ذلك هو جدل العصر.

نحن نعيش ما يدعوه علماء اللاهوت «الفرصة المناسبة»، أي: لحظة تاريخية من الأزمنة، ومن طرح الأمثلة، ومن اتخاذ القرار الذي لامفوز منه. إن الشرط الأولي لكل حل لهذه المشكلة الوحيدة والحديثة هو أن يعاش هذا العالم في وحدته.

ليس المقصود الوحدة المهيمنة، الامبراطورية، وحدة السيطرة، بل الوحدة السمفونية التي يرفدها كل شعب بإسهامه الخاص من العمل والثقافة والإيمان، من أجل أن يمتلك كل طفل وأي طفل في العالم جميع الإمكانيات الاقتصادية والسياسية والروحية، لكي تيسط كلياً جميع الإمكانيات التي يحملها في ذاته.

تلك هي الغايات قبل الأخيرة التي في وسع جميع المؤمنين (مهما يكن إيمانهم) ومن واجبهم أن يهدفوا إليها وأن يبلغوها معاً، المؤمنين الذين ليست الحياة حياة عندهم إلا إذا كان لها معنى.

العائق الرئيسي اليوم لهذا المقصد هو تضليل الليبرالية الاقتصادية التي

نزع منها متطابقة مع الحرية الإنسانية والديموقراطية، في حين أنها تقيضهما: إنها حزية الأغنى والأقوى في افتراس الأفقر والأضعف. باسم هذه الليبرالية التي تُمخِط بالحرية تُرتكب كل يوم أسوأ الانتراعات.

في عصر انطلاقة الرأسمالية الصناعية، لاحظ الأب «لاكوردير»: بين القوي والضعيف الحرية هي التي تُضطهد.

هذا النوع من الحرية هو ماثيريد قادة الولايات المتحدة أن يمدوه على الكوكب كله. لقد قال بوش: يجب تأسيس سوق من آلاسكا إلى أرض النار، فأضاف مكارتير دولته: يجب خلق سوق وحيدة من «فالكوفير» إلى فلاديفوستوك.

إن المشكلة المطروحة هكذا هي مشكلة اقتصادية وسياسية ودينية على نحو لا يتجزأ: أترك الإنسانية تُصلب على هذا الصليب الذهبي؟

حرب بين الإسلام والغرب؟

تعليم القرآن:

يسوع المسيح نبي من أنبياء الإسلام:

أثناء اللقاء الذي نظّمته اليونيسكو في ٢٦ شباط ١٩٩٤ للاحتفال بالعيد الأربعين لأول نداء وجهه الراهب «بيير» من أجل المتشردين، قال لي الراهب «بيير»: أنت تعرض عنقك للقطع من قبل المسلمين، إختوتك في الدين، لأنك تترجم شهادة الإيمان لديهم بقولك «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وذلك ما أقبل به، محمد رسول. لكنني سمعت دائماً «محمد رسول»، وكأنه الرسول الوحيد. وذلك غير مقبول، لا عند المسلمين فحسب.

فأجبت إن الترجمة التي قلمتها في «هل نحن بحاجة إلى الله؟» كما هي في سائر كتبي، هي الوحيدة المتسجمة مع القرآن الكريم. أولاً إن النص العربي لا يتضمن تحويلاً سوى ثلاث كلمات محمد - رسول - الله - وليس فيه أية أداة تسمح بترجمة: رسوله^(١). ومثل هذه الترجمة تأويل، في الواقع، مُعرض، وفي تناقض جلي مع القرآن الكريم.

على العكس: إن الله يأمر محمداً أن يقول: «قل ما كنتم يدعون من

(١) هذا الحوار على لسان الكاتب حول مفهوم إضافة كلمة رسول إلى الضمير الهاء لا يتعلق بمفهوم إسلامي. فالقرآن قد أثبت إضافة كلمة الرسول. يقول تعالى: «ومن يطع الله ورسوله» النساء ٤، وفي آل عمران ٣. ولكن يظهر أن مقال المؤلف متناول في الحوارات بين المثقفين واللاهوتيين الكبار وهو من سوانحاتهم «الناشرة».

إلى أهل كورنثة ١٥ - ١٤٥ الرسالة الثانية إلى أهل كورنثة ١١ - ٣).
واللفظة العربية التي تقابل «قال»^(٥) الفرنسية تشير إلى «كلمة الله».

وهذا النص الذي يعود تاريخه إلى الستة العاشرة للهجرة جزء من
الجدل بين محمد ﷺ وبشارى جرد حول ألوهية المسيح الذي كانوا
يعتدونه ابن الله. والقرآن الكريم، كما رأينا، لا يقول شيئاً آخر حين يجعل
يسوع كلمة الله وروحه.

لكن هل نقول الأناجيل شيئاً آخر؟ لا يقول يسوع في أي مكان أنا الله
إنه الابن الخالص لكل المخلوق لله. والرحمة المسكة الوحيدة للعاصي لله
هي «المسلم» أمره لله. «إياه قد قال. أنا ابن الله» (متى ٢٧ - ٤٣)، وهو
رسول الله، مثل (في مرقس ١٢ - ٤٦؛ وفي لوقا ١٣). ولا يمتدح يسوع مع
به في أية لحظة. فاليهود كما يقول لنا يوحنا في إنجيله، هم الذين خلعوا
هذا الالتباس لحكموا عليه كمتحدي. لقد قال يسوع بعد أن يقص بسبب
وإن أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل» (يوحنا ٥ - ١٧) وهم الذين
تظاهروا بالاعتقاد أنه يتماهى مع الله وفي حين أن المسيح «بأنسبة إليهم ليس
الله بل رسول الله»، «ورد اليهود لأجل هذا صلباً بقتله ليس لأنه كان
يقص السبت، بل أيضاً لأنه كان يقول إن له أبوه مساوياً بحسه بالله»
(يوحنا ٥ - ١٨) لكن يسوع سرعان ما يصحح فمظهر أنه لا يساوي الله لكنه
بطوعه «فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم إن الابن لا يقدر أن
يعمل من نفسه شيئاً إلا ما يظفر الآب يعمل، لأنه مهما عمل ذلك فقد يعمل به
الابن كذلك ما هو يعمل لأن الآب يحب الابن ويغريه جميع ما يفضله هو،
وسيريه أعظم من هذه الأعمال لتصححوا أنتم» (يوحنا ٥ - ٩٤ - ٢٠). وعندما
يقول يسوع في إنجيل يوحنا «أنا والآب واحد» (يوحنا ١٠ - ٣٠) يوضح،
في الجدل، أنه، بكلماته وأفعاله، يجعل أنه غير المظور مظهر. ورؤيته هو

(٥) لفظة قال... المقصود به قال عند ترد في الإنجيل «الناشر»

هي رؤية الله الذي أرسله «ومن رأي فقد رأى سيدي أرسيني» (يوحنا ١٢ - ٤٥).
ويضيف «لأنني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو
أعطاني الوصية بما أقول وأنطق» (يوحنا ١٢ - ٤٩). إن يسوع يتمم مشيئة
الآب «إذ يميزها دائماً عن مشيئته حتى الموت إيلي أبي لا شقسي» أي إلهي
إلهي لماذا تركتني؟ (متى ٢٧ - ٤٦ مرقس ١٥ - ٣٤) «أب أبي، إن شئت
فأخزعي هذه الكأس لكن لا تكن مشيئتي بل مشيئتك» (لوقا ٢٢ - ٤٢).
«لا أستطيع أن أنعمل من نفسي شيئاً، كما أسمع أحكم وأحكمي عادل
لأنني لست أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يوحنا ٥ - ٣٠).

أين يقول يسوع إذن إنه الله، وأنه مساو له؟ فحتى بولس الذي غالباً
ما ينسب إلى يسوع صفات ألوهية القوة القديمة، كالخلق أو الأمر، يعلن بما
فيه من روح «التراتب»، و«الطاعة»، و«الرأس»: «رأس كل رجل هو
المسيح، ورأس المرأة هو الرجل، ورأس المسيح هو الله» (رسالة القديس
بولس إلى الكورنثيين ١١ - ٣).

وهنا أيضاً بأي تمحك ميتقاتل المجتهدون لتأويل كلمة بولس في
رسالته إلى أهل كولشي: «إذ في المسيح يحمل كل ملء اللاهوت جسدياً»
(٢ - ٩)، فهو يحيي كما يقول القديس إيريناوس في «مقاله ضد
الهرطقة» أن الابن يحمل ما لا يستطيع أن يراه من آت مظهر، أو أنما
ننسى ما هو منظور أي كلمات يسوع وأقواله (وهي التي لا يذكرها بولس)
وبعد تأويله بطلاقة منه. (أعمال الرسل ٢٨ - ٣٣).

ولكني حصلت على عون من الله فبقيت إلى هذا اليوم شاهداً لمصير
والكبر لأقول شيئاً غير مقال الأنبياء وموسى إنه سيكون» (أعمال الرسل
٢٦ - ٢٢).

ولكني أقول لك أنني بحسب الطريقة التي يسمونها شيعة أعبد إله آباي،
مؤمناً بكل ما كتب في التاموس والأنبياء.

الرسول (٤٦ - ٩)، وهو يذكره غير مرة: ﴿وقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ (١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠). وقد كثر هنا ثلاث مرات (١٠ - ٩٤ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠) بالصيغة نفسها: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً﴾

إن الله يأمر في القرآن بحكم أنبياء اليهود ويسوع المسيحيين. ﴿وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم﴾ (٢ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠).

بل أكثر من ذلك: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يعزفوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض وكفر ببعض.. أولئك هم الكافرون﴾ (٤ - ١٤٩ - ١٥٠).

وهكذا إذن، اطمئن يا يبرءة غالأصوليون الذين يريدون أن يقطعوا عنقي من أجل تلك الترجمة عليهم أولاً أن يبتروا أجزاء من القرآن الكريم وسألي آخرون: كيف يجوز لمسلم أن يتكلم عن يسوع المسيح بهذه الطريقة؟ وهنا أيضاً أتذكر الكلام للقرآن الكريم حيث يجري الكلام عن يسوع أفصل مما هو عن محمد ذاته. أولاً لأنه يعترف له بالولادة المخارفة للطبيعة: ﴿والتي أحصت فرجها فتفحها فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (٢١ - ٩١).

وكذلك: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته أنفاها إلى مريم وروح منه﴾ (٤ - ١٧٠).

وعندما دنا موته قال الله له: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾ (٣ - ٥٥).

وقد كثر ذلك مرتين (٤ - ١٥٨ - ٥٩ - ١١).

ثمة ألقاب خاصة أطلقت في القرآن الكريم على يسوع المسيح ولم تُطلق على غيره حتى ولا على محمد ﷺ: لقد سُمي المسيح، وكلمة الله، وروح الله.

ومنذئذ تعدو باطلة خصومات اللاهوتيين التي قادت خلال قرون إلى المجادلات بين مسلمي الأنطلس المغاربة والمسيحيين، كما يقول «كاردياك». ويس من جد في شيء أن يثبتهم لإيمان مسيحي بثلاث، بأنه إله - بثلاثة آلهة، حتى لو كانت الصيغ الهيولية عن الثالوث في مجمع «يقية» نسيج الجبال، بموصفها لجميع اللاتسيات، وقد ولدت أكثر من هرطقة.

يعلن القرآن التوحيد بقوة: ﴿لله أحد.. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

ولانقول المسيحية شيئاً آخر: إن مجمع لاتران ١٢١٥، وهو نفسه الذي كان مفهوم «جواشيم دي فلور» عن الثالوث، يقول بالحق: «إن الحقيقة العليا هي في أن واحد آب وبن وروح قدس، وهذه الحقيقة لا تلد ولا تولد ولا تنشق من غير ذاتها»

"Non est generans neque genita neque procedens"

ليس هاهنا إذن تشكيك بالوحدة الإلهية، وإنما هاهنا مجرد تعقيدها الذي لا يمكن أن يرتد إلى مفاهيم على الطريقة اليونانية

والجدل الخاطي الآخر يدور حول ألوهية المسيح، وهو ناشئ عن اللاهوتيين، لا عن الانجيل ولا عن القرآن.

يقول القرآن: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قان له كن فيكون﴾ (٣ - ٥٩). يسوع إذن مخلوق الله، مثل آدم. (بولس نفسه يدعو: «آدم الجديد» رسالة إلى الرومانيين ٥ - ١٥ الرسالة الأولى

إلى أهل كورنثة ١٥ - ١٤: الرسالة الثانية إلى أهل كورنثة ١١ - ٣) واللفظة العربية التي تقابل ^(٥) فقال: الفرنسية تشير إلى «كلمة الله».

وهذا النص الذي يعود تاريخه إلى الستة العاشرة لهجرة جزء من الجدل بين محمد ^(ص) ونصارى بجران حول أبوهية المسيح الذي كانوا يعدونه ابن الله. والقرآن الكريم، كما رأينا، لا يقول شيئاً آخر حين يجعل يسوع كلمة الله وروحه.

بكر هل تقول الأنجيل شيئاً آخر؟ لا يقول يسوع في أي مكان أنا الله. إنه الابن الخالص كل الخسوع لله. والترجمة المسكنة الوحيدة للخاصة به هي «المسلم» أمره لله. «فإنه قد قال: أنا ابن الله» (متى ٢٧ - ٤٣)، وهو رسول لله، مثل (في مرقس ١٢ - ١٦، وفي لوقا ١٣) ولا يتماهى يسوع مع الله في أية لحظة فاليهود كما يقول ب. يوحنا مي. بحيلة، هم الذين حلفوا هذا الانسان ليحكموه عنه كمجذوف لقد قال يسوع بعد أن رفض السبت «إن أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل» (يوحنا ٥ - ١٧). وهم الذين تصاهروا بالاعتقاد أنه يتماهى مع الله «في حين أن المسيح» بالنسبة إليهم ليس الله بل رسول الله، «فازداد اليهود لأجل هذا طلباً لقتله ليس لأنه كان يرفض السبت، بل أيضاً لأنه قد يقول إن الله أبوه مساوياً نفسه بالله» (يوحنا ٥ - ١٨) لكن يسوع مرعب ميصيح مظهره أنه لا يساوي الله لكنه يصيحه: «فاجاب يسوع وقال لهم الحق الحق أقول لكم: إن الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما يصر الآب يعمل، لأنه مهما عمل ذلك بهذا عمله الابن كذلك ما هو عمله لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما يعمله هو، وسريه أعظم من هذه الأعمال لتتعجبوا أنتم» (يوحنا ٥ - ٩، ٢٠). وعندما يقول يسوع في الإنجيل يوحنا «أنا والآب واحد» يوحنا (١٠ - ٣٠) يوضح، في الحال، أنه، بكلماته وأفعاله، يجعل الله غير المنظور مصوراً ورؤيته هو

(٥) لفظة قال... المقصود به قال عندما ترد في الإنجيل «الناشرة».

هي رؤية الله الذي أرسله «ومن رأيي فقد رأى الذي أرسلني» (يوحنا ١٢ - ٤٥) ويضيف «لأنني لم أتكلم من نفسي بكر الآب الذي أرسلني هو أعطاني الوصية بما أقول وأتق» (يوحنا ١٢ - ٤٩) إن يسوع يتقم مشيئة الآب إذ يميزها دائماً عن مشيئته حتى الموت «إيلي إيلي لما شفتي؟ أي إلهي إلهي لماذا تركني؟» (متى ٢٧ - ٤٦، مرقس ١٥ - ٣٤) «أنتي، إن شئت فأجزعني هذه الكأس لكن لا تكن مشيئتي بل مشيئتكم» (لوقا ٢٢ - ٤٢) «لا أستطيع أنا أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمع أحكم وتحكمي عادل لأنني لست أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يوحنا ٥ - ٣٠).

أين يقول يسوع إذن إنه الله، وأنه مساوٍ له؟ حتى بولس الذي غالباً ما ينسب إلى يسوع صفات آلهة القوة القديمة، كما خلق أو الأمر، يُعلن بما فيه من روح «التراتب»، و«الطاعة»، و«الرأس»: «رأس كل رجل هو المسيح، ورأس المرأة هو الرجل، ورأس المسيح هو الله» (رسالة القديس بولس إلى الكورنثيين ١١ - ٣).

وهنا أيضاً بأي تمثيل سينتقل المجتهدون تأويل كلمة بولس في رسالته إلى أهل كورنثي: (إذ في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسدياً) (٢ - ٩)، فهو يعني كما يقول القديس إيريناوس في «مقالة ضد الهرطقة»: أن الابن يجعل ما لا يستطيع أن يراه من الآب مصوراً، أو أنما تنسى ما هو مصور أي كلمات يسوع وأقواله (وهي التي لا يذكرها بولس) وعند تأليفه انطلاقاً منه (أعمال الرسل ٢٨ - ٣٣).

ولكني حصلت على عون من الله فكتب إلى هذا اليوم شاهداً لصغير والكبير لأقول شيئاً غير ما قال الأنبياء وموسى إنه سيكون» (أعمال الرسل ٢٦ - ٢٢).

ولكني أقول لك أنني بحسب الطريقة التي يسمونها شيعة أعبد إله آلهي، مؤمناً بكل ما كتب في التاموس والأنبياء.

«وفدوهم من الكتب ثلاث مئوت شارحاً ومبيناً أن المسيح كان ينبغي أن يتألم ويقوم من بين الأموات وأن يسوع هذا الذي أبشركم به هو المسيح» (١٧: ٢ - ٣) إن مثل هذه عبارات تمحو ما هو متفقٌ وحديثٌ حذر في هذه الرسالة. يسوع يكشف لنا عن إله مخفي كلياً عن آلهة اليهود واليونان والرومان.

ولنصف أن عبارة «ابن الله» ليست وفقاً في الأنجيل على يسوع وحده. إن آباء الكنيسة قبل اللاهوت المدرسي الذي شوش أبط الأتشاء، فقد خصوا التعيين لإحبي «ماهر الإنسان» أن يكون يسوع لكي يتمكن الإنسان من أن يكون ماهر يسوع، (الأونان ست كلة ١١ - ٥) ما من مسيريك.

هذا مانقوله الأنجيل التي لم يكتبها لحسن الخط، لافلاسفة اليونان، ولأعلماء اللاهوت، ولأفقاء النعم، وإنما كتبها ناس سطاء كمد كان أساء الله من أرعي موسى، إلى لعمل يسوع، إلى قائد القمامة الأمي محمد ﷺ وكان واضحاً لديهم أن كل من الإنسان هو من الله ولاندع الأنجيل محالاً لحث في هذه بقصة لكي يكونوا أساء أسك اندي في السماوات متى (٥ - ١٩ و ٥ - ٤٥ و ٦ - ٣٣). ويقول الإنجيل عن صامعي السلام المسكونين بدعوتهم:

«طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون» (متى ٥ - ٩).

وكتب بولس إلى أهل غلاطية «لأنكم جميعاً أبناء الله». إن ذكر القرآن الكريم ليسوع هو في أصل اللقاء الروحي العميق بين الإسلام والمسيحية، ولا سيما عند كبار الصوفيين المسلمين الذين يعبرون عاباً في قصائد كبيرة عن أبعاد الصعوبة الداحية، والمحبة في الإسلام.

نذكر السيلة «سيرة» في كتابها: «حب الله عند العربي، فلسفه الحب، في بغداد في مطلع القرن الثاني عشر»، بالبدأ لأساسي لتصوّر

أحب عند العزالي: «عبر كل ماهر محبوب، إنما يحب الله»

إن تصوّر أحب هذا تابع بما هو الفكرة الرئيسية في الرؤية الإسلامية: التوحيد، وعنى الإنسان أنه لم يوجد إلا بأمر الله، ولا يعمل شيئاً إلا بأمره، وذلك يستتبع كما هي الحال في المسيحية، الانسلاخ من «الأنا الصغيرة» كي تدع المكان كله فينا لله، للواحد ولكل.

ذلك هو أساس هذه الوحدة العميقة بين التصوّف المسيحي والصوفية الإسلامية التي متبلع أوجها في الأخوة الروحية بين ابن عربي و«سان جان دي لاكروا» مع فرق ثلاثة قرون.

يروى حديثٌ للرسول أثبتته البخاري ومسلم وابن داود هذه الكلمات عن محمد ﷺ

«الأسياء إخوة من أصل واحد. مهنهم شتى لكن دينهم واحد، وأقربهم جميعاً إلى يسوع ابن مريم، لأن بيتنا نحن الاثنين لم يكن نبياً» ويسوع عند الصوفيين رمزٌ وحدة الإنسان والله، كاشف الواحد والكل، والمحبة التي هي التعبير الثنائي عن وحدتهما «الثانية الجوهرية» التي تحتويها الوحدة «كما يقول ابن عربي... وينسب العطار إلى الخلاج المصلوب هذه الأبيات:

قلْتُ، مثل يسوع، لأكشف روح الكل: أنا الحق، جوهر الكل.. ومثل يسوع، حامل الجبل المحبة، حققتُ على الصليب، أسى المحبة (١).

إن رسالة يسوع المركزية، بالنسبة إلى الصوفيين، وهي رسالة تبتوها، هي الحب في أسى شكل له، الحب الذي يأتي من الله ويعود إليه ككل وقع.

(١) به رد هذه الأبيات في «أخبار إخراج» مسيحيين. وقد ورد هذا البيت على من الصليب يكون مرنى ولا البطما أريد ولا المكنية (الترجم)

كتب السيمتري في Roscrat de mysteres، ربطاً في صورة المسيح بين الفناء (انقضاء الأنا) والإشراق: إن هدف المسيحية هو أن نحلّصنا من «أنا» وأن نحرزنا من تطبيق آلي للشرية.

لقد جعل يسوع هذه الحقيقة جلية في حياته.

إذا تطهرت من أنك السفلى استطعت أن تكتشف حضور الرب، حضوره الإلهي الصافي.

كل من انسلخ عن أناه غدا كالملاك وارتفع مثل يسوع روح الله إلى السماء الرابعة.

وعندما يذكر العراني شعب يسوع لأبرص يشير إلى ما يحبه يسوع أكثر من غيره. الإيمان الذي يجد حتى في أسوأ الخن العرع معرفة الله. (الإحياء ٤ - ٢٦ - ١٦)

وكتب الرومي^(١) حتى بعد تجربة الصليبيين التي كان شاهداً فيها على التشويه العميق للمسيحية الرسمية ١٢٠٧ - ١٢٧٣: كان الناس يتجمعون من كل صوب، العمى والعمى والشمس ولايسو الأسماك، على باب يسوع لكي يشفيهم بمحباته من أوجاعهم وأنت أيضاً أنت بلت اعاقبة بفصل ملوك الدين هؤلاء

نفحات يسوع تُعطيك أن تجتهد حياتك، تُعطيك الجمال والبركة يسوع بطرد الموت.

يسوع صعد إلى السماء لأنه كان من طبيعة الملائكة نفسها. يسوع ابن مريم بلغ أعلى السماء الرابعة.

الروح الكلية اتحدت بالروح الجزئية، الروح العردية حبيب مثل مريم بمسيح يرفع القلوب إلى الله.

(١) هو جلال الدين الرومي

ويسمى ابن عربي يسوع: خاتم القداسة:

أجل، خاتم القداسة رسول

لامثيل له في العالم

إنه الروح وابن الروح ومريم

وتلك منزلة لا يبالها أحد

وحيث تكلم عن صوفي آخر «أبي يزيد» قال لنا عنه: إن تأملته «يسوعي» لأنه تلقى النعمة التي تخلق الحياة

ورجعة المسيح مألوفة لدى الصوفيين

اعلمنا يترن يسوع في آخر الأزمنة سيؤكد شريعة محمد ويعيدها لأنها حر الشرائع، وبسببها خاتم الأنبياء سيكون يسوع حكماً عادلاً، لأنه س يكون في ذلك لزمان سلطان مسنم وإمامة ولافاص ولاصفت سيجمع المؤمنون حوله ويعلنونه قاضياً لهم، لأنه لن يكون هناك من هو أجدر منه لقد رفعه الله إليه لينزله في آخر الأزمنة خاتماً تماماً لتقديسين، مطبقاً العدالة بحسب شريعة محمد ﷺ.

إن المحادلات التقليدية بين مسمي الأندلس المعاربة وبين المسيحيين، منذ عدة قرون، كانت تتناول جوهرياً التجسد والثالث

لقد عاجلنا من قبل مشكلات تجسد يسوع وألوهيته. أما الثالث فما يسميه الصوفيون هو الصياغة اليونانية التي صيغ بها في مجمع «نيسية»، وهي تساوي في الجوهر، لدى ليس في الأناجيل وليس له معنى إلا سعاداً للمحولات اليونانية عن الجواهر (Ousia)

إن تجربة المحبة اليسوعية لا يمكن أن يُعبّر عنها، كما قلنا، في اللغة والثقافة اليونانيتين العربيتين كلياً عن هذه التجربة. إن صوفياً فارسياً هو روبريهان الشهراري (١١٢١ - ١٢٠٩) يشرح عن الثاوث شكله الشمسي «من من أن

توجد العوالم وصيروتها، الكائن الإلهي هو نفسه المشق والعاشق والمعشوق.
إن المعرفة هي معرفة المكاشفة. فإذا ما بلغنا هذه المعرفة فالحبه سعة عنها
بالضرورة.

يذكر المسيحي حواراً بين صيحين الرجل مسلم والمرأة مسيحية:
- كيف يمكن أن يدعى الإله الوحيد الأب والابن والروح القدس؟
- إن الجمال الأزلي قد عكس وجهه الباهر في ثلاث مرايا
كل شيء يمكن أن يكشف عن ذلك الجمال بالرغم من جميع
مقاومات تعبد الأيقونات والصور والتماثيل
ورد على مواعيد العتيس يوحنا لدمشقي الرثعة عن قيمة لايقونة
الكاشفة يستصر المسيحي. بأي نور نضاء أيقونات مسيحيين ليست
مثل هذا الإشعاع من وجوه الأيقونات.

ومعنى ابن عربي بالشعور باتصال الرسالة الإبراهيمية إلى بهيته.
المسيحي وكل من يؤمن بدين منزل لا يعترفون دينهم إن هم أسلموا.
ويقول في إحدى القصائد

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	مرعني لعلالي ودياً لرهبان
ويست لأوناي وكعبة طائف	والواح توراوة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائلي فالحب ديني وإيماني

التطرف الإسلامي، مرض الإسلام:

التطرف الإسلامي مرض الإسلام. كما أن لأصوله مرض جميع
الأديان. الأصولية هي ادعاء الأصولي أنه يمتلك الحقيقة النصفية، وأنه
يمتلك، من ثم، لا الحق محسوب بل والواجب أيضاً في مرض تلك الحقيقة
على الجميع ولو بالحديد والسار.

الأصولية الأولى هي النزعة الاستعمارية العربية. لقد تدرجت، أول
الأمر، لكي تبرز غزواتها وفنوحاتها عما قدّرت أنه امتداد وكشف
محتاور: التوسع الشامل لدينها الذي كانت تعدّه فوق جميع الأديان ثم،
بعد رجع كائناتها، طُتت تعدّ نفسها مركزاً للعالم وحقيقة بوحيدة
للقيم، وشاءت مدّ يدها العن التاسع عشر، أن تعرض على العالم ثقافتها
المتقنة والتجارية التي مستها «الحداثة».

جميع الأصوليات الأخرى، من الثورة الثقافية الصينية، إلى التطرف
الإسلامي، هي ردود أفعال على هذه الأصولية لاستعمارية لحماية النفس
من التبعيّة، ولإنقاذ الهوية، ولو كانت هوية قديمة غاية في القدم
وأسطورية، الهوية المعارضة للثقافة المستوردة، «والعودة إلى الأصول»، إلى
عصر ذهبي بعيد، واقع في الماضي.

والادعاء الغربي أنه «الثقافة» وليس ثقافة بين ثقافات أخرى، تعارضه
حيث أسطورة «الأسلمة» التي تنسى الطابع الشامل للإسلام (التسليم لله)
وتطرح نفسها ملكة دون غيرها للحقيقة المطلقة. وذلك بدلاً من تعميم
شامل حقيقي للثقافة التي تحقق وحدتها، لا وحدة الهيمنة الاستعمارية
الامبراطورية، وإنما الوحدة السمفونية بإسهام كل ثقافة في الثقافة الشاملة.
من الخطأ ألا نرى في التطرف الإسلامي سوى شكل حديث ومشووم
في جميع لصروف والأحوال، وأنه تولد من فشل مشاريع القومية
والاشتراكية في العالم المسلم.

وكسبت من الخطأ أن رده إلى مؤثرات خارجية (وهي مؤثرات لها
أهميتها في تعديل اتجاه الحركة لكنها ليست مصلوها) من مثل الثورة
الإيرانية كمسوة، أو التمويل السعودي (الذي علّق أثناء حرب الخليج)،
وكذلك من الخطأ ألا نرى فيها بعد التفجير الاجتماعي في تشرين الأول
١٩٨٨ سوى ردة فعل على الانتزاعات الاقتصادية والسياسية لصدوق

النقد الدولي كما هي الحال في قرارات أخرى من الفيين إلى كراكاس.

إن المصادر العميقة لما يجري اليوم تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما وجدت حركة النهضة (بعثة الإسلام) على أيدي مفكرين مثل أفغاني (توفي ١٨٩٧) لدى كانت به ماهرة جديدة في سنة ١٨٨٣ (وعلى نحو له دلالة) مع أرست رينان من السوربون إلى «جريدة المباحثات» الفرنسية. أو محمد عبده (توفي سنة ١٩١٣)، ثم رشيد رضا (توفي سنة ١٩٣٥)، أو حسن البنا (توفي سنة ١٩٤٩) أو محمد إقبال في الهند (توفي سنة ١٩٣٨)؛ أو ملك بن سي (توفي سنة ١٩٧٣)، أو الشيخ ابن باديس (توفي سنة ١٩٤٠).

إن القضايا الرئيسية لدى هذا الرعيل من المفكرين واضحة، والمشكلة الأساسية مطروحة منذ بدأ الرائد الأفغاني عمله، طرحها، وفي أي معاد، الانحلال السياسي للامبراطورية العثمانية وتصلبها الروحي الذي تمخض عن تأويل مبني مسرف التقدم للتشريع الإسلامي. كما طرحه بوشع الاستعمار الغربي الذي سرّع ذلك التعكك السياسي وهذا الانحطاط الفكري.

شق الأفغاني الطريق للحث الذي سينمو قرناً كاملاً والذي سيتطور على محورين أساسيين:

١ إن كل نهضة سياسية وروحية للإسلام ستوجب قراءة جديدة للقرآن الكريم، متحررة من تفسيرات العلماء الرسميين الجافة والمجففة.

٢ إن مشكلة الحداثة لا ينبغي التصدي لها انغلاقاً من أيديولوجية غربية يُزعم أنها حديثة، أيديولوجية تنفي مشكلة العايات الأخيرة للإنسان، وتقتصر العقل على البحث عن الوسائل التقنية للقوة والعنى، مبدأ نزعتها الاستعمارية العسكرية والاقتصادية والثقافية.

هذا هو باعث الإلهام الأساسي الذي سيرف في مدى قرن الكثير من التفجبات والانحرافات.

كل شيء يطلق من المبدأ الأساسي في الإسلام: التوحيد، أي الاعتراف لا بوحداية الله قاصب، بل بوحداية كل واقع، بما فيه وحدانية الجماعة البشرية الشاملة. يقول الأفغاني: إن ميرة الإسلام هي أنه يُضفي هدفاً على كل عمل في عالم تُلجته عقلانية أقرب إلى اللامعنى بعبادته للوسائل.

إن التوحيد (مذهب الوحدة) هو مبدأ كل فكر تقدي في الإسلام الحلي بما في ذلك اتهام التقاليد ذاتها عندما تتحجر وقد أظهر الأفغاني، في رده على أرست رينان (١٨ آذار ١٨٨٣) كيف خسر الإسلام العلوم حقراً قوياً من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن الثالث عشر حتى إنه غدا معلّم العالم من جبال الپيرنيه إلى جبال الهملايا، ثم ال إلى الانحطاط عندما حمد فيه الفكر الهندوسي (الاجتهاد) وسادته عقائده المفسرين الرسميين للشرعة، العقائدية الدوعمانية العزيرة على المستبدتين.

وبالروح نفسها كتب محمد إقبال في كتابه: إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام: أن الاجتهاد هو مبدأ الحركة في الإسلام. يقول ليس القرآن الكريم مجموعة من الأحكام الشرعية. إن هدفه أن يوقظ في الإنسان وعياً أسعي لعلاقاته بالله والكون، وأرى أن القول بإعادة تفسير الأحكام الشرعية الأساسية في ضوء الشروط المختلفة للحياة الحديثة قول مبرر تماماً. إن القرآن الكريم يعنينا أن الحدة حق دائماً وذلك يقضي بأن لكل حيّل الحق في حلّ مشكلاته الخاصة، مسترشداً بعمل السلف لأموراً بذلك العمل.

إن الخطأ الأساسي والقاتل لمستقبل الإسلام هو بالعبث أن يُرفض مبدأ

حركته هذه وتدينك عنه بعدد عاجزاً عن إعداد مشروع مستندي لحل مشكلات ربه

إن ما اتفق الباحثون على سميته لنظير الإسلام في الإسلام لأنه يخلط بين 'سريته' وهي الطريق لأخلاقه لأبدية الشريعة التي فتحتها جميع الأنبياء على سم الله، وبين التشريع (نفعه) الذي تمكن أن يهيمه الشريعة في كل عصر لحل مشكلاته

هذا الموضع يهيم مثلاً على إرادة تطبيق القانون الجرائي للقرن السابع (مثل قطع الأيدي بسرقة، أو حديد لمسي، وأصناف العقاب، إلى ذلك الرجم حتى الموت، خلافاً للقرآن الكريم، وباسم التعليق)، على إرادة تطبيق القانون المدني وقانون الأحوال الشخصية الذي يتوافق مع الشروط التاريخية للقرن السابع، على شؤون الزواج والطلاق والإرث اليوم.

إن القول بتطبيق الشريعة مع الخلط بين الشريعة الإلهية، كما هي معرفة في القرآن، وبين الفقه أي التطبيقات البشرية التي تجرأت عبر التاريخ، من شأنه يشوه التطور الإسلامي اليوم أيضاً إن هذه الحركة التي كان لها من الحق في رفضها لاحتفاظ العرب، ومما فيه ما يدعو من 'حق'، وفي رفضها لجميع عقابيل الرعة الاستعمارية والتعاون مع 'وحداية' سوف. سي. بريد الولايات المتحدة وما يعوها العربيون فرصها بأوامر صيدوق نقد الدوسي، إن هذه الحركة نجد نفسها مشلولة عندما يتعلق الأمر بساء استنفس ومع ذلك، فالسريته القرائة تعطي مدداً لمواجهة بحث ضروري عن وسائل حديثة لحل غير حتماته العرب

يكن هذا البحث الذي قدم له من قِبله انصافي مثلاً يقتدى حين قاموا بالجهد الضروري (الاجتهاد) لحل مشكلاتهم، كل منا مسؤول شخصياً عن القيام به للإسهام في حل مشكلات ربه.

إن القرآن نفسه يعلمنا أن نغير الطريقه الإلهية الأبدية (الشريعة) التي

تضم ٥٨٠٠ آية من ٦٠٠٠، من الـ ٢٠٠ آية المكرمة للأحكام التشريعية التاريخية التي كانت تعبيراً عن شروط العصر

ولا يمكننا أن نصنعها على صعيد واحد بحجة أنها وارد في القرآن الكريم. إن تاريخية هذا الحكم أو ذلك لا يعني بأننا تعالي 'أبد' وهو قد يقع، استجابة لأوضاع حديده، أن نسمح آية ونمن محلها به حديده: «ما نسخ من آية أو ناسها نأيت بحبر منها أو منها» (٢ - ١٠٦) (١٦ - ١٠١)

على صعيد الصلاة يمكن أن يحدث مثل هذا التعبير، والمثل النموذجي قبل غيره هو تعبير الفسط، الوجه الذي يتجه إليها الأصلي للصلاة، في أول مسجد بناء النبي محمد ﷺ في المدينة في سنة ٦٢٢، كانت القبلة متجهة إلى القدس، ثم إن مقطع من القرآن الكريم يأمر بالتعبير ويشرحه (٢، ١٤٢ - ٥٠)

وهنا أيضاً، ومن وراء التعديل التاريخي الذي مرره إلى سوء العلاقات مع الطائفة اليهودية، يصل معنى الصلاة وتوجهها ذاتهما. والمقصود هو الإشارة بانجاء الصلاة إلى وحدة الإيمان الإبراهيمي، ووحدة الأمة، الجماعة الإسلامية، في آن واحد. وفي كلتا الحالتين الوجهة هي مكان عال لبادرة إبراهيم: القدس أو مكة بكنعتهما.

القرآن نفسه يشدد على نسبية الواقعة بالقاس إلى المعنى. «ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله» (٢ - ١١٦) وأيضاً: «فإن خفتم فرجالاً وركباناً» (٢ - ١٣٩)

إن الله يقول لنا، خلافاً لكل تزمت، ولكل تمسك بالشكليات: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب» (٢ - ١٧٧) إنه يدعونا فقط إلى داخلية لإيمان صد الطغسية الشعائرية، وإيمان إلى الإيمان الذي يعترعه العمل نداء الآخرين.

﴿إِنْ تَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تَنْفَقُوا مِمَّا غَنَتْكُمْ﴾ (٣ - ٩٢)

إن هذه التاريخية للقرآن أظهر ما تكون في النصوص المتعلقة بالنساء. القرآن يكلم الشعوب بلغتها، بمستوى إدراكها لكي تكون الرسالة مفهومة، إنه يخاطب عرب القرون السابع، أي يخاطب جماعة تنتمي إلى التقليد لأبوي شرق الأوسط، تفيد البديهة العرابة، التي نقرأها في الأساسية للمرأة، وتقليد مسيحية القديس بولس عدو المرأة، وتقليد شبه الجزيرة العربية القبلي لسيطرة الرجل.

ولكني تدحل الرسالة لهذا الشعب، وذلك التقليد الأبوي الذي يرجع إلى أوجعة آلاف سنة، من الضروري القول بالمسلمة التي مز عليها ألف سنة ﴿رجل قوامون على نساء ما فضل الله بعضهم على بعض﴾ (٤ - ٣٣). ويمكن أن تضرب المرأة لمجرد الشك في أمانتها الزوجية (٤ - ٣٤). ونحن نتكلم الرسالة بلغة هذا الشعب، في ذلك العصر، بحسب مستوى إدراكه الممكن، فمن المسلم به أن تكون شهادة امرأتين معادة لشهادة رجل واحد (٢ - ٢٨٢)، وأن الغالب في حربه يكون للرجل حق على النساء الأسيرات، وأن الرجل يستطيع أن يتصرف بامراته كما يتصرف بحقله.

انطلاقاً من هذا اللسان ومن ذلك العرف الخاصين بشعوب عصر ومجتمع محددين، يحث القرآن باديء ذي بدء من أضرار التقليد، فيمنع كل أولاد، أو اتعاض السعد العربي الجاهلي في وأد ابيات (١٦ - ٥٩) (٨١ - ٨ - ٩)

إن تعدد الزوجات مسموح به لكنه منظم (٤ - ٣) على تحوي يقدو معه معاً قليل الاستعمال.

ولكني نحدد تحديداً أفضل القيد القرآني لتعدد الزوجات في سياقه

التاريخي واللاهوتي، من امجد أن يذكر أن تعدد الزوجات، دون أي قيد، مسلم به، في العهد القديم الذي يذكر حريم دود، و٧٠٠ روحه سليمان باستثناء محظياته الـ ٣٠٠ (الملوك الأول ٢ - ١ - ٣) وفي عصر شارلمان، بعد قرنين من زوال العراة الكرم، كان بعض الكهنة متعددي الزوجات، ولم يفرض نذر العقبة على الكهنوت إلا في عهد غريغوار السابع (١٠٢٠ - ١٠٨٥).

هل يعني التذكير بحق الطلاق الممنوح للمرأة مد عهد الرسول ﷺ لقد طلبت إحدى زوجات الرسول (أميمة بنت الجون) الطلاق فسمح لها إياه الرسول وأهلها هدايا (البخاري ٦٨ - ٣) يسما لم تمنح المرأة في العرب حق الطلاق إلا في القرون العشرين، وكذلك لتصرف عائش

وعلى اعتبار أن جميع الالتزامات في المجتمع العربي المتعلقة بإعالة الأسرة والأهل، وبكل ما يدعوه اليوم «الصمان الاجتماعي»، تقع على عاتق الروح فإن حصه الذكر من الميراث ضعف حصه السب

كل ذلك مرتبط بشروط تاريخية محددة، ومن أجلها كانت: «تلك حدود الله» (٤ - ١٢) وتلك الحدود سخط تقدماً كبيراً ناسه إلى مجتمع ما قبل الإسلام والمجتمع اليهودي والمسيحي واليوناني والروماني، حيث لم يكن للمرأة في تلك المجتمعات، زوجة كد أم بنت، الحق في الميراث.

وليس في هذه الحدود شيء يمكن أن يبرز التمييز، التمييز العنصري إزاء امرأة، لسائد اليوم في أكثر من بلد مسلم إن هذا التمييز نابع عن تقليد من تقاليد الشرق الأوسط، لا عن الإسلام. ففي الإسلام، في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، لم تكن النساء محرومات من أي نشاط اجتماعي، مع أن تقسيم العمل والواجبات كان يُراعى، وحتى في القتال لم يكن النساء محرومات محسب، بل كن مدنلات (البخاري ٥٦ - ٦٢).

٦٣، ٦٥)، وكس يُدرن الأعمال (البحاري ١١ - ٤٠)، وقد عيّن الخليفة عمر امرأة مرفعة في سوق المدينة وكاتب عائشة (وجه لرسول معلّم علوم الدين). ولم يستأ عمر حين فاطمته امرأة وهو يلقي موعظته وشكرها على صحة بقدها.

إن جميع التسميات تنتمي إلى تاريخ بلد أو عصر. وقد حكم القرآن الكريم بإبطالها. فالقرآن الكريم يذكر سبع مرات (٤ - ٤٠ - ١٣ - ٢٣ - ١٧ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٨ - ٥٧ - ١٨)، أن الله لا يفرق إلا بين الذين يعملون الصالحات والذين يعملون السيئات سواء أكانوا رجالاً أم نساء.

وفيما وراء جميع تقلبات التاريخ يتأكد هكذا لمبدأ الأري الذي يعني كل نراتب بين الرجل والمرأة، والذي لا يؤسس مساواتهم، وبكاملهم فحسب بل وحدتهما الوجودية (الانطولوجية). جاء في أول آية من سورة النساء ﴿... اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ (٤ - ١) كائن واحد منقسم إلى اثنين متساويين في الكرامة، ومختلفين في وظائفهما فقط.

السعي لأمين حقاً لروح الإسلام يكون في العمل على طريقة (اجتهاد) فقهاء الإسلام عندما عد امراطورية، وعندما بدلوا جهدهم في تأويل الكلمات الإلهية لمواجهة الأوضاع الجديدة. ولكن في القول: إن من المهم أن يستخلص من إبحارهم التاريخي المباشر المبادئ الأريه لي نسمح بالتصديدي أشكال اليوم.

إن تاريخ القرآن الكريم بحاجة أيضاً عن أن يرول الرسالة الأريه موحدة إلى شعب خاص في لحظة محددة من تاريخه، بل ساي يسمح له بفهم تلك الرسالة: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ (١٤ - ٤) و(١٣ - ٣٨).

عني الموقر أول لمجموعات الأحاديث عادية عطسه دائماً بأن يدكروا، لئلا كل آية تزل، بالسياق التاريخي المحدد المرتبط أحياناً بحوادث طعنة من حياة النبي ﷺ. المقصود دائماً جواث محسوس من الله عن سؤ ب كان يصرحه لرسول ﷺ على نفسه من أجل جماعته. إن هذه لتاريخه لا تلعب شيئاً من القصة انشامه الأريه لرسالته. وكل تدخّل رتافي في الجماعة اندسية والسياسية في مكة، وفي الجماعة الدينية السياسية في المدينة يحتوي على مبدأ لعمل صالح لجميع الشعوب، لجميع الأرمته، لكن له شكلاً نوعياً مرتبطاً بظروف المجموعة لهذا العصر وهذا البلد.

وعندما يتحدث القرآن عن معاملة رفق، عندما يقول مثلاً ﴿ولم يرد مؤمن حيز من مشرك﴾ (٢ - ٢٢١) هل بعد هذه الآية التي رتب في مجتمع كان لرقق مبادئه، هل بعد قسمتها في مجتمع رن من الرق؟ لا. بل بعد شكلها التاريخي، وتحتفظ بكل قوتها كتناسلي أربي: إن قيمة الإنسان لا تتوقف على مقامه أو ثروته، بل على تقاه وفصائله. وذلك يعني أن قراءة القرآن لا يمكن أن تكون حرفية دائماً. هي كل مرة يُعبر فيها عن مبدأ للعمل بلسان نوعي، وفي الشروط الخاصة لزمان بروله، يكون للطبقة استخلاص المبدأ الحي من الحرف الميت، وبإشارات أخرى: من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية لا يمكن الاكتفاء بالمحاكاة عن طريق الاستنباط وإنما عن طريق القياس.

ففي مجتمع مختلف أساساً عن المجتمع الذي قاده النبي تكون السئلة أي التطبيق الأمثل لهذه المبادئ من محمّد ﷺ تودحاً، وهذا للمودح، وإن كان حميرة في مجتمع مختلف بقية لا تتعد لأعشى شامخ لشروط خدمته طبق المبدأ الأربي، بل انشاكه بتريق القياس لتطبيق المبدأ على حالات جديدة.

لا يمكن أن يُعفى أحدٌ من المسؤولية، ومن الجهد لنتذكر، في عصرنا،
وحيال اشكالات المستجدة، حلاً مطابقاً للشرعة القرآنية

إن الشريعة الإسلامية على تقيص القانون الروماني تماماً: فالقانون
الروماني (وإن كان له مصلره في علاقات المجتمع الروماني، العلاقات
عائمة بالموة والعلاقات القائمة بالفعل)، يُعطي انصباعاً بأنه يُشرع في
المجرد، مُتنبهاً بأطُر أولية لأعمال متأتي. أما النصوص القرآنية التي
تُخرج منها مبادئ الشريعة الإسلامية فهي معالج، على العكس،
أحياناً واقعية، تاريخية إنها جواب عن وضع تاريخي، حوالت من إلهام
رباني. لكن من الضروري أن نستخلص منها، في كل لحظة، الهدف
مها، علة وجودها، لتطبيقها على حالة جديدة.

كان النبي وهو يتكلم باسم الله يأخذ بالحسبان التام الوضع الجغرافي
والتاريخي للشعب الذي يطق من أحله المبادئ الأربعة تطبيقاً نوعياً
عندما يأمر بالصوم من الفجر إلى الغسق (حتى يبين لكم الحيط
لأبيض من الحيط الأسود)، من الوصح أنه يحاطب شعباً للبين ولهار
عده مدة قليلة الاختلاف أما بالنسبة إلى «الاسكمو» فالفرق بينهما سنة
أشهر، يجب التفكير إذن - كما سبق بالنسبة إلى الرقيق - لكي لا تُطبق
الآية حرفاً، وإذ لكي نتساءل عن الهدف المقصود ولكي نطبقها في
شروط جديدة

وكذلك الأمر بالنسبة إلى طائفة من الآيات القرآنية. إن الله يأخذ
بالحسبان الظروف ومستوى الوعي لدى الشعوب لكي يحاطبها تلك
الآيات لكي تتعلم الرسالة فيها دور أن يُعنى دفعه واحدة النظام القائم
فيها، مع قول بعض الأعراف وإن لم تُتَّسب كونه المتطلبات المطلقة
للشريعة.

فمن واجبتنا إذن إزاء كل حكم شرعي أن نتساءل: ماذا كان الهدف

المقصود عندما صيغ ذلك الأمر، وما الظروف التاريخية التي جعلته ضرورياً
في عالم «كل يوم هو في شأن» (٥٥ - ٢٨).

إن نغطة «شريعة» لم تُستخدم سوى مرة واحدة في القرآن (٤٥ -
١٧)، وفي ثلاث آيات أخرى تظهر كلمات أخرى من الأصل نفسه: فعل
«شرع» (٤٢ - ١٣) والاسم «شرعة» (٥ - ٤٨).

وذلك يبيح لنا تعريفاً دقيقاً: «ثم جعلناك على شريعة من الأمر أي
على طريقة».

علامت تقوم هذه الطريقة (الشريعة)؟ هذا ما توضّحه لنا الآية (٤٢ -
١٣) «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك
وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»
وإذن فمن الواضح:

١ - أن هذه الطريقة هي طريقة الله.

٢ - أنها مشتركة بين جميع الشعوب الذين أرسل الله لهم أنبياءه
(مشاركة بين الشعوب وبلغة كل شعب منها).

يبد أن الأحكام الشرعية الخاصة مثلاً بالسرقة وحفاياها، والخاصة
بأحوال المرأة والرواج والإرث مختلفة بين النوراة اليهودية والأنجيل
المسيحية والقرآن.

إن الشريعة (القانون الإلهي المؤدي إلى الله) لا يمكن أن تستعمل على
كل هذه التشريعات (الفقه). إن الشريعة تختلف اختلافاً جديراً عن الفقه
باعتبارها مشتركة بين جميع الديانات، في حين أن الفقه يختلف بين ديانة
وأخرى، حسب العصر والمجتمع الذي أرسل الله إليه نبياً من أنبيائه.

يقول الله في القرآن: «لكل أمر كتاب»، «ولقد بعث في كل أمة
رسولاً» (١٦ - ٢٦)، «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» (٢٥ - ٢٤)

وإذا لم يُفَرَّق بين:

المادى الأزلية حول العلاقات مع الله

والموادى الخاصة التي يُعْطَم فيها الناس، في كل عصره، وإطلاقاً من هذه المادى، علاقاتهم الاجتماعية، فإن الصورة التي تُعْطَى من القرآن تعدو حيثلةً كاريكاتورية.

هذا التفريق بين الشريعة، التوجه الديني والأخلاقي إلى الله، وبين المادى والبرمج التي نزل الله للإنسان مسؤولية تطبيقها في لشروط محسوسة محتمة ورمز، يُشَدُّ عنه معنى كلمة «شريعة» أي «الطريق إلى البيع»، وهو أسلوب رائع للتعبير عن: الطريق إلى الله

بعد أن ذكر القرآن في الآيتين (٥ - ٤٤ و ٥ - ٤٦) أن رسالتي موسى وهي التوراة، والمسيح وهي الإنجيل «فيها هدى وبور» أضاف «لكنك جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً».

على ضوء الآيتين السابقتين، من الواضح أن للطريقة، للشريعة، قيمة شاملة لأنها مشتركة بخاصة بين جميع أهل الكتاب. إنها تدلنا على الأهداف المتعالية، في حين أن البرامج أو المهاج وسائل تتيح، في كل حقبة من التاريخ إدخال القيم المتعالية.

إن الشريعة، في الواقع، حاضرة وواحدة في الكتب الثلاثة المنزلة. يُعَلَى القرآن عدة مرات أن الملك لله وحده: ولله المشرق والمغرب (٢ - ١١٦). كما جاء في سفر لئىة: هو ذا للرب إلهك السموات والأرض وكل ما فيها. كما جاء في العهد الجديد، في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثة (١٠ - ٢٦): «لأن للرب الأرض وملأها».

وكذلك الأمر في الكتب الثلاثة فيما يتعلق بـ «الأمر لله وحده» و«لعلم لله وحده».

فمن مسؤوليتنا أن نعتز في كل لحظة على الوسائل التاريخية الكفيلة بتحقيق تلك العدايات المتعالية كما يعطينا القرآن مثالا عنها بالنسبة إلى جماعة المدينة

هذا التفريق القرآني الواضح يستبعد كل حرفة ويدعونا إلى التفكير في الأمثلة، لا أن نعطي الأحكام التاريخية الواردة في القرآن تطبيقاً أعمى على كل الأزمنة.

أما دعوى التطبيق الحرفي لحكم تشريعي بحجة أنه وارد في القرآن، فذلك خلط بين الشريعة قانون الله الأولي (وهي ثابتة، مطلقة، مشتركة بين جميع الديانات وصوف الحكمه) وبين التشريع المخصص للشرق الأوسط في القرن السابع (الذي كان طبعا تاريخياً للقبول الأولي، خاصاً بهذه البلاد وتلك الحقبة). وكلاهما وارد، بالطبع، في القرآن، لكن الخلط بين الاثنين، وتطبيقهما الأعمى - مع رفض ذلك التفكير الذي لا يبي القرآن يدعونا إليه - يجعلنا عاجزين عن أن نشهد للرسالة الحية، للقرآن الحي والراهن أبدياً، للإله الحي.

إن القانون الإلهي، الشريعة، يجمع بين جميع المؤمنين، في حين أن دعوى فرض تشريع من القرن السابع في الجزيرة العربية، على ناس القرن العشرين عمل انقسامى يُعْطَى صورة حاطكة ومقرة بقرآن إن ذلك حرية بحق الإسلام.

إن تلك الصورة الكاريكاتورية المشوهة للشريعة لني تمثيلها ونشرها في العالم الآن بعض الأنظمة هي المستنقع الأسود للإسلام. إن قلب الشريعة وتشويبهها، بالنسبة إلى أمرائها، ضرورة للإبقاء على حكماء تلك الأنظمة: الشريعة، في الواقع، كما يعرفها القرآن، تدب جميع مفاسد السلطة والملك والمعرفة.

وإذا كان الملك لله وحده، كما تقول الشريعة القرآنية فإن غداهم كله

ليس لهم دون غيرهم وما هم سوى المدبرين المسؤولين، ولا يجوز لهم أن يوظفوه في الولايات المتحدة وسويسرا، أو في الفريديس المائية، ولا أن يبدروا في جميع كاريوهات بنام، ولا أن يسو لاستعمالهم الشخصي قصور الفصححة والتهتك، في ماريتا في آسيا أو في الشاطئ اللاروردي الفرنسي عني انعكس إن جميع أحكام الفرائد الاقتصادية سواء تعلقت بالربا، أي المال الذي يُحصل عليه بلا عمل، أم بالركاة (الحصة التي تقتطع من الثروة)، ترمي إلى الحيلولة دون تراكم الثنى في قطب من المجتمع، وتراكم الثنى في القطب الآخر.

وإذا كان الأمر لله وحده، كما تقول الشريعة القرآنية، فإن الملكية المظنفة وقطاعاتها التابعة لها مدانة لأنها تخلط بين العائدات الشخصية واعتمادات الدولة في توزيع الدخل، لأنها تحقق لنفسها عملاء إذ تمول في جميع القارات الأصوليات الأكثر تخلفاً لتجعل من الإسلام أقنوا للشعوب التي تقبل بحجج سيطرتها.

وإذا كان العلم له وحده كما تقول الشريعة لقراية فقد قرعت أجراس الموت لجميع العقائد الباطنية الوثوقية (الدوغماتيات) للجميع دعاوى امتلاك الحقيقة المطلقة، التي تُقفل باب الاجتهاد. إن الإفعال الخيالي لهذا التفكير الديني هو على نفس ما ينطبقه القرآن الذي يجعل كل مسلم مسؤولاً ويدعوه أبداً إلى «التفكير» في «أمثلة» العمل الإلهي التي أعلن عنها الرسول. إن أي إثماعة، للاهوت السيطرة والطلامية الأشد سلفية لضمان غنوع الجماهير، سيتطاي شظايا في ضوء الشريعة القرآنية.

وبالمقابل، إن مآذبه في العالم بأسره دعاية بعض الأنظمة، بجوامعها وأئمتها المرجلين، تحت ذلك الاسم المعتص، اسم الشريعة، بما هي المتنوعات وصنوف القمع. وقطع يد السارق لحماية البنى، حتى العى

المكسب بأسوأ الطرق، رمزاً لهذا الشكل من تطبيق الشرع، وهو الشكل الذي يلائم الأعياء والأقوياء.

إن فصل الآية (٥ - ٤١) «والسارق والسارقة فاقطعو أيديهما» عن السياق القرآني بأسره حيث العقاب، مثل عقاب قطع اليد الذي لا سبيل إلى استدراكه، لا يتفق مع التصور القرآني لله «الرحيم الرحيم». إن ذلك ساد الآية التي تلي «فمن تاب من بعد ظنمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم»، وهو معارضة لسنة الرسول نفسه.

روى النسائي وأبو داود الحديث التالي (نقته بمضمونه لا ينصه): قال عتياد بن مريحيل:

«جئت مع أبي إلى المدينة، ودخلت حقلاً (من الحنطة) فقطعت بعض لسابل وأحدث بها حثها فوصل صاحب حقن وأحد ثياني وصريني. فذهبت إلى أبي أشكوه. وأمر أبي بإحضاره وسأله: ماذا حدث؟ حملك على فعلك؟ أحب يا رسول الله، هذا الرجل دخل حثي وقطع سابلني وأحد حثها؟ قد سئى كان جاهلاً ولم تعلمه، وحائلاً ولم تقطعه، أعد إليه ثيابه. وأوصى رسول الله بإعطائي حطة»

وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب:

سرق عبيد حاطب ناقة لرجل من قبيلة مازنة وذبحوها (ليأكلوها). واعتزفوا. فأمر عمر بن الخطاب بإحضار مالك العبيد وروى له ماجرى وأمر بقطع أيدي العبيد ثم راح نفسه وأمر بإحضار مالك العبيد وقال له: كُت ساقطع أيديهم، لكني أحس أنك جوعت عبيدك حتى أقدموا على ارتكاب هذا العمل الذي حرمه الله. لكني أقسم بالله، أنت الذي سأعاقبه عقاباً شديداً لأنك جوعتهم؛ وستدفع الثمن غالياً. وسأل عمر رجل صاحب اسقة عن ثمن ناقته، فأجاب لو دفع لي بها ٤٠٠ درهم

بعثها؛ فقال عمر لملك العبيد أعطه ٨٠٠ درهم.

رُويت هذه الواقعة في موطأ الإمام مالك.

هذان المثالان يعني لهما أن يساعدنا على وعي أن دعوى تطبيق الشريعة يقطع يد السارق إنما هو الابتلاء من النهاية: إن أول مهمة المجتمع الذي يدور وسعه لطاعة الشريعة الإلهية هي إلغاء الشروط الاجتماعية التي تدفع إلى السرقة، أي إلغاء جميع أشكال العلم الاجتماعي واليؤس.

وإذا ما بُدئ بالقمع فإن أفقر الناس هم الدين سيصابون. وإذا ما قُطعت أيديهم تَعْمَر إعادة دمجهم الطبيعي في المجتمع بالعمل إن هذا لإدلال وهذا الاستعداد الذي لا رَدَّ له يُصَبِّح المعورين (ويُدْعَى لكثيرين) - (السورة ١١١) يواصلون عملهم المؤذي إلى الانقسام الاجتماعي بالتماوت).

لأشياء إذن أشدَّ محاولة بروح القرآن من تطبيق العقوبة قبل إشاعة العدالة الاجتماعية

والقرآن صريح جداً حول هذه النقطة. إنه يدين بقوة الذي «جمع مالا وعدده» (١٠٤ - ٢) و(٩ - ٤٣)، وهو يدعو عليه بعداب المجرم.

وفي البلد الذي تُطَبَّق فيه هذه الأحكام بصرامة، ستعود حيث تدعى شرعة الله، الشريعة الحقيقية على تصحيح الاقتصادي والاجتماعي، وسترول «الحاجة» التي يمكن أن تؤدي إلى السرقة.

لقد أصبحت بعض الأنظمة الإسلامية، بمليارات دولاراتها المودعة في الولايات المتحدة، وميزانيتها المتعلمين في جميع الجماعات الإسلامية في العالم، الحليف الأشدَّ نفاقاً لما هو تقيض الإسلام وعلوه اللدود: وحدانية السوق

إن فرع طابع مثل تلك الأنظمة عن الإسلام هو اليوم إحدى المهمات

الجمهورية لمسلمي جميع البلدان، من أجل إعادة البوحه جمعيني بسرعة إن تطبيق الشريعة يعني العيش رُبْعاً وعشرين ساعة في سود سنسلف فيه الله الذي بيده وحده الملك والأمر والعلم.

وهكذا فقط يستطيع المسلمون أن يُسهموا ضدَّ وحدانية السوق، في أن يُقَبِّحُوا الحياة من جديد معني، وأن يتوا القرن الواحد والعشرين بوجه إنساني وإلهي.

وفي جميع ديانات العالم وحكمه يرتفع هذا الأمل نفسه. لقد رأى مسيحيون في مجمع الفسيفساء الثاني ثم في مؤتمر أميدلار في أمريكا اللاتينية سنة ١٩٧٠، أنقذاً جديداً لإيمانهم، مع «جماعات القاعدة» التي تسبهم مثل يسوع في حياها للمضطهدين قس أي شيء آخر، وولاده «لاهورت التحرر» إذ كُفَّ اللاهوت عن أن يكون حرفة ليرالية، كلاماً على الله، لا يضيره ذلك الائتلاف الشامل بين القوى وصروب السيطرة. الإسلام بحاجة هو أيضاً إلى لاهوت التحرر ليقطع صلته بقرون «التقليد»، محاكاة الماضي، كما يحتاج إليه المسيحيون ليريلوا الطابع الروماني عن كبستهم، ويمحو، أعدده الملكية والامر صوريه إليها، ويحتاج أولئك وهؤلاء إلى التخلص من أسطورة «الشعوب المختارة»، الأسطورة القبلية التي هي ذريعة لكل سيطرة.

هناك بالنسبة إلى القادة الأمريكيين وتابعيهم العرب، المسلمون الصالحون والمسلمون السيئون: أما الصالحون فهم الذين يخدمون سياستهم، والذين يعملون بأوامر صديق القوي الدولي، والمسلمون السيئون هم الذين يرفضون هذه الأوامر.

لا يمكن أن تُعَدَّى الحركات الأصولية بأفضل من ذلك. فإذا كان العهد السياسي هو معيار السلوك الحسن فإن الشرف ومجرد الحرص على صون الكرامة الإنسانية بوجاهة بقاء جهة رفض لأسوأ شيء للإنسان، الشيء الذي

تخصته وحدانية السوق. وقد تسوق جهة الرضى هذه، في بعض الأحيان، إلى الانطواء على أشكال الإيمان الأكثر قدماً.

إن النضال ضد الأصولية ليس تضالاً من أجل «دمج» يتطلب من الآخر الكف عن أن يكون هو نفسه، بل على العكس، من أجل أن يكون هو نفسه بمعنى، وأن يُسهم بما يقدمه، وبتجربته الخاصة، في إغناء مفهوم المدينة ومفهوم الحياة للذين يحثانها معنى إنسانياً - أو إلهياً بحسب لغة كل واحد. وهذا المعنى هو الذي ستأه يسوع، مستعظماً بقوة أكبر رسالة الأنبياء السابقين، وبمكة، وهو الذي عناه القرآن في دعاء الشريعة، أي الطريقة، موضحاً أنها شريعة إبراهيم كما أنها شريعة يسوع أو محمد ﷺ.

من الشخف أن يقال، مثلاً، أن الإسلام، من حيث المبدأ، عدو للعلم أو للتسامح الديني.

محترفو السياسة الذين يجهلون كل شيء عن ماضي ثقافتهم الخاصة هم وحدهم الذين يمكن أن يُعسو أن فرنسا لن تكون متعددة الثقافات، وكأن الثقافة العربية الإسلامية ليست حراً من ثقافة العربية. وسمع عاباً من يقول: إن لهذه الثقافة مصدرين: المصلو اليوناني الروماني والمصلو اليهودي المسيحي. وفي ذلك نسياناً للتراث العربي الإسلامي.

إن الذي يُعتبر بحق مُدخِل العلم التجريبي إلى أوروبا، الراهب الانكليزي «روحيه ماكور»، يعرف بتواضع في كتابه «المجموعة الكبرى» أنه تعلم كل شيء فيه من مدرسة قرطبة لإسلاميه، وهو يستشهد دائماً بكتاب «الناظر» لابن الهيثم لمصري الذي أعطى أول مثال لهذه المنهج: اقتراض فرضية رياضية، ثم إعداد عدة تجريبية للتحقق منها أو الطعن فيها. وفي ميادين أخرى، يكفي أن تقرأ كتاب «في الحب» لستندال الذي يذكر أن الحب الحقيقي إنما يُعبر عنه تحت حجة البدوي السوداء. وفي

عمل ابن حزم «طوق الحمامة» في الحب الرقيق، وعند ابن عربي، إنما نجد التعبير عن الاتصال بين الحب الإنساني والحب الإلهي الذي مثلهم، حسب عبارة الأب أسين بالاسيوس الجميلة «الأخرويات الإسلامية» في الكوميديا الإلهية لدانتلي.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى التسامح: إن عدم التسامح لا يبع من الإسلام بل من انحرافاته.

ففي أسبانيا أصبح اليهود ورواء. وفي ١٤٩٢ فقط، ومع سقوط غرناطة، وتصار لموك «الحسني العبادة» إنما بدأ «التطهير العرقي» (الذي دُعي آنذاك قانون «نقاء الدم») مع طرد اليهود والعرب من أسبانيا.

إن الجهل بذلك كله هو الذي يقود مثلاً إلى هذه السياسة القمعية الخالصة التي نعمل الجؤ في فرنسا غير قابل للتفكير أكثر فأكثر حين يُسوى بين مجرّد أناسي تقليديين ويتابعون أعراف بلادهم، وبين إرهابيين بالقوة. في مجموع العلاقات الدولية كما في العلاقات السياسية الداخلية ليس هناك من خيار إلا الخيار بين الحوار والحرب. ملعون من يختار الحرب.

حرب بين الإلحاد والإيمان

هل الإيمان أليون أم خميرة؟

إن اللقاء بين «دوم هلدنر» و«بسي تودن» بمرحلة عظيمة من حياتي. ويهود تاريخ هذا اللقاء بالصبط إلى ٢٩ أيار ١٩٦٧. كنت حينئذ عضو المكتب السياسي في الحرب الشيوعي الفرنسي، وكان هو رئيساً لأساقفة «ريسيغ» في البرازيل. وكنا نشترك في جهيف، في إحياء ذكرى الرسالة اليابوية «السلام على الأرض». ومنذ هذا اللقاء الأول قامت بيتنا وحدة أخوية ولم تزل.

نروي «دوم هلدنر» في كتابه «des Conversions d'un eveque» كيف بدأت علاقاتنا بـ «اتفاق» بروجيه، ليتنا نعتقد اتفاقاً؟ أمّا أنت، فأنا كنتك نشير (....) ثقة ماركسيون يحسبون أن كون المرء ماركسياً يعني دائماً، وحرقياً، تكرار مقاله ماركس (....) وهم لا يدركون أن ماركس الذي ظل أميناً للواقع، كان سيبحث بالأمشياء اليوم على نحو محتف، ليس صحيحاً، على سبيل المثال، أن يكرر دائماً أن هناك علاقة ضرورية بين الدين والإستلاب. أنا أول من يعترف بأنه قد كانت في الماضي، وما تزال اليوم، مع الأسف، جماعات يقفون الذين بطريقة مسرفة في سلبتها، ويجعلون من «أليوناً حقيقاً للشعب». نكي أؤكد لك أن في جميع الديانات، لأفي المسيحية وحدها، أشخاصاً وجماعات

يعملون لكي يكون الدين قوة لتحرير، بدلاً من أن يكون مُستعبدًا أو مُستغلًا (....) فاعمل بحيث يكف الماركسيون عن الربط بالضرورة بين الدين والاستلاب. هذه هي النقطة الأولى.

ومن ناحية أخرى، أنظر أن هناك علاقة ضرورية بين الاشتراكية والمادية، أم أن من الممكن، كما أعتقد أنا، أن يكون المرء اشتراكياً حقاً دون الانتماء إلى المادية الجدلية؟

أنا أعتقد، من جانبي، أن أبذل وسعي، وبأن أوشط أشخاصاً آخرين أعظم نفوذاً سي، ليحصلوا من الكنيسة على قبول الاشتراكية.. حيثذ سأله الذي أجرى معه الحديث

«وهل وبينما بالعهد؟»

فأجاب دوم هلدن: «نعم، كلُّ منا يفعل ما بوسعنا لكننا لم ننجح تماماً بعد»

لقد قبلت، بالفعل، دون تحفظ، مصطلحي «دوم هلدن» وحدثت به فقط ألا تُستأنف عبارة البابا «بي» الثاني عشر «الشيوعية فاسدة جوهرية».

إن الرأسمالية بما فيها من مزاحمة الجميع ضد الجميع هي الفاسدة جوهرياً. والشيوعية والاشتراكية ليستا فاسدتين إلا عندما يخونهما أنصارهما ذاتهم.

وهكذا أبرم الاتفاق وماليت أن وُضِع موضع التطبيق: هي عام ١٩٧٠. وبعد المؤتمر الأسقفي في «ميدلان» ١٩٦٨، كتب دوم هلدن كمارك أول كتاب حاسم للولب العنيفة الذي كرسه لذكرى «عائسي» و«مارتن لوتر كينغ» والذي قدمه بي في ٢٦ أيار ١٩٧٠. بهذه العبارة «رهيفة» إلى روجيه غارودي الذي أحس بأسى أنخ له في الجوع والعطش إلى العدالة.

لقد دشّن هذا الكتاب، مع كتاب بياقة أسقف كراتوس (البرازيل)

قراغورو: «الجيل الثورة الاجتماعية» ١٩٦٩، أول تجربة أساسية لـ «جماعات القاعدة»، وانطلاقاً لاهوت التحرير. تلا ذلك: «لاهوت التحرير» للأب «غوتيريز» في البيرو ١٩٧١، و«لاهوت الثورة» للأب كوبلان ١٩٧٠ و«السيحية» أفيون أم تحرره لـ هرون الميزه (١٩٧٢)؛ و«يسوع المحرّر» لـ «ليوناردو بوف» في البرازيل ١٩٧٤ وتاريخ التحرير و«لاهوت» لهنري دوسيل في الأرجنتين ١٩٧٢ وتحرر اللاهوت، للأب «سيفوندو» في الأوروغواي ١٩٧٥

في «لولب العنف» يميز «دوم هلدن» بين ثلاثة أشكال من العنف: أولاً، عنف المؤسسة أو العنف المؤسسي، وهو عنف الظلم والنظام القائم. وهو يولد الصعيق الآخرين: العنف الثوري الموجه ضده، والعنف القمعي الذي يُمارس على المضطهدين المسترددين. ويُعدّ دوم هلدن بالتضليل الذي لا يُطلق اسم العنف إلا على العنف الثوري. وبالفعل فإن كلمة لإرهاب لا تُطلق إلا على عنف المقاومين، أما عنف الدولة، وهو أشد فتكاً بما لا يُقاس فيُدعى «الدفاع عن النظام والقانون».

أنا أعلم كم من دموع ومن دم كُلفت هذه الأعمال أولئك الرّواد: قمع الجبرالات ومن عندهم من «سرايا الموت»^(١)، كراهية المخابرات المركزية الأمريكية التي كانت تصرّح إن الساسة الخارجية لولايات المتحدة ينبغي أن تُجابه لاهوت التحرير (وثيقة «سانتافي»، ليماء ٧ شباط ١٩٨٤). وهنا الموقف الذي اتخذته الإدارة الأمريكية أعقب بزمن قليل الهجوم الآتي من الفاتيكان (٢٣ تشرين الثاني ١٩٨٤) مع «تعليمات» الكاردينال «راتزنجر» ضد «لاهوت التحرير»^(٢).

(١) من ذلك مقتل صديقنا الكير الأب «اللاكوربا» وستة يسوعيين آخرين في الجامعة الكاثوليكية في سان سلفادور

(٢) انظر كتابي «هل نحن بحاجة إلى الله؟» ص ٩٦ وما بعدها

في السيرة نفسها التي ظهر فيها «لؤلؤ العبد» لدوم هنري كامار (١٩٧٠) أبعثت من لحرب الشيوعي الفرنسي الذي كنت أحد قادته ومظريه، لأنني قلت إن الاتحاد السوفياتي ليس بلداً اشتراكياً. كان ذلك منذ أربعة وعشرين عاماً.

لقد كنا نفي بالعهد الذي قطعناه على تقنيات، رغم العصابات. ولم

نزل

من ناحيتي، أظهرت، أثناء الحوارات المسيحية الماركسية التي كنت أنضم لها منذ ١٩٦٠، وفي كل كتي ومفالاتي حول ماركسية، أن الاتحاد لم يكن مكوناً ضرورياً من مكونات الاشتراكية. ولم يقم ماركس قط بتقيد فلسفي للدين، بل قام بتقيد سياسي. فهي نصالة من أجل تحرير الصقات المستعلة والمضطهدة، اصطدم، في أوروبا التي سيطرت عليها روح «الحلف المقدس» (بين كبار رجال الدين والأمراء ضد كل حركة ديموقراطية أو اشتراكية)، بدين ملعب، فعلاً، دور «أفيون الشعب». لكنه يشدد على أن الإيمان ليس دائماً وفي كل مكان «أفيون شعب»، فنعس، في الصلحة نفسها التي استخدم فيها هذه عبارة، أن المسيحية هي في ان واحد انعكاس ليؤس الإنسان، واحتجاج على ذلك يؤس. وبهذا الجانب «الاحتجاجي» يمكنها أن تكون إذن، في شروط تاريخية أخرى، خميرة لتحزير الإنسان، لا أفيوناً.

ومن الخطأ أن تستبعد الإيمان عند الكلام على الاشتراكية «العلمية». فاعلم وأن الدين ليس حصصاً تنافس، إلا في المفهوم القديم لتعلم، مفهوم الوضعية، أي «العلمية» الشمولية التي ترغم أن جميع مشكلات الحياة يمكن أن نحلها العلوم «الوضعية» وحسب مشكلات عدايات الحياة الأخيرة ومعنى تلك الحياة، والحب والجمال.

إن العلم والتقنية مهما تكن نجاحاتها عجيبة (لجراح الحاسوب مثلاً)

يمكنهما أن يوفرا لنا «الوسائل» بلوغ أي هدف كان، ماعدا الغايات الأخيرة التي يستطيع الإنسان وحده أن يعتبها لنفسه بطريقة حرة ومسؤولة.

ليس هذا إذن مراحمة ولا حصومة. وليس هالة من باب أولى استبعاد متبادل بين العلم الذي يقدم لنا مثل تلك الوسائل القادرة وبين الحكمة والإيمان اللذين بهما تقوّر الغايات التي عينا أن نأبهما.

إن ماركس لم يزعم قط، خلافاً للصورة الكاركتيرية التي أعطيت عنه، أن الاشتراكية نتيجة نظرية يُرهن عليها. لقد عرض ماركس جميع موضوعات الاشتراكية الكبرى قبل أن يتصدى لتحليل الاقتصاد. وهو، منذ سنة ١٨٤٣، قبل «رأس المال» بعشرين سنة، اشتراكياً باختيار أخلاقي. بفعل الإيمان الذي يسميه بلعة عصره «فلسفة»، «الواجب الخاتم» لقب جميع العلاقات التي يكون فيها الإنسان محطاً عن مكانه، مستمداً، نهجاً، محققاً.

وهو يتحدث في التاريخ نفسه، رسالة البروليتاريا التاريخية: «الاستعادة الكلية للإنسان». وهكذا فإن الموضوعين الأكبرين للحركة الاشتراكية، وماركس هو تعبيرها النقدي، وهما النضال لتحرير العامل، ومعهم جميع البشر من استلابات اقتصاد السوق، ورسالة البروليتاريا التاريخية لقيام بتلك المهمة ذات القيمة الشاملة، سابقان على براهين «رأس المال» الاقتصادية.

لا يعارض ماركس الاشتراكية «العلمية» بالطوباوية. إنه يُبَيّن كيف أن طوباوية «الإنسان الكلي» تجده في منتصف القرن التاسع عشر، القوة الدريجه (منطقه العمل) القادرة على الانتقال من الطوباوية إلى الحركة الواقعية التي تُتيح، في مواجهة اقتصاد السوق فيه هي اساطم الوحيد للعلاقات الاجتماعية، والمزاحمة فيه تعزل البشر بعضهم عن بعض، تتيح

بحسب «خطة واعية» خلق مجتمع يكون فيه «التفتح الحر لكل واحد شرط التفتح الحر للجميع». (بيان الشيوعي).

لا شيء أسخف من تعريف الماركسية بأنها حتمية اقتصادية أو حتمية تاريخية. أمام مثل هذه التأويلات كان ماركس يقول: «إن كانت هذه هي الماركسية فأنا، ماركس، لست ماركسياً».

الغايات الأخيرة والغايات قبل الأخيرة: بروميتيوس أم يسوع؟

إذا كانت الحتمية، بالفعل، هي السيد الحاكم، وإذا كان الحاضر والمستقبل يُحددهما الماضي، وإذا كان البشر، كما يقول (التوسر) دُمن تحركها الشيء، فما فائدة الدعوة إلى الثورة؟ ليس من ثورة ممكنة إلا بمقدار ما يستطيع الإنسان تحطيم الحتميات.

وليس المقصود بالحتميات الحتميات الجزئية، على مستوى العموم، بل المقصود تلك الحتمية الكلية التي تصنع على الإنسان وعلى تاريخه بأسره، والتي ليست سوى تعميم ميتافيزيكي انطلاقاً من الحتميات العلمية.

هذه الحتمية، تعريفاً، لا يمكن أن تؤسس سوى سياسة محافظة. ولقد أدرك ذلك جيداً «شارل مور»، آخر منظر كبير بين منظري اليمين، حين استند إلى «أوغست كونت».

أما من يحب المستقبل لما فيه من عناصر مبدعة وغير متوقعة، أي تابعة للناس الذي يصنعون تاريخهم، كما يقول ماركس، حتى إن لم يصنعوه كيمي وغباطاً بل في شروط موروثية عن الماضي، فمن الواضح أن العالي - لا الحتمية - هي المسألة الضرورية لكل فكر وعمل ثوريين.

وعني هذه الحقيقة الأساسية، أنا مدين بها للحوار مع المسيحيين، وهو حوار نظمته على المستوى العالمي من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٤، وللاهوتيي التحرر، ولألب «كارل راشر» ولد «دوم هلدن كامارا».

كتب كارل راشر، في مقدمته لكتابي «من الحرم إلى الحوار». ماركسي يخاطب المجتمع الديني» حتى لو توصلت إلى إقامة العدالة، فلن تكون هي مملكة الله. المسيحية دين المستقبل المصنعي الذي يحل انصباب الإنسان الموقفة نسبية

وحتى لو أن اشتراكية غير مُفسدة بلغت الهدف الذي حدده لها ماركس حتى الشروط الاقتصادية والسياسية والثقافية ليستطيع كل عمل تحمل في ذاته عبقرية مورار أو رافائيل أن يصبح رافائيل أو مورار، فلن يكون قد بلغا سوى الغايات قبل الأخيرة (ويبني أن سمعها مهما يكن إراؤن السياسية أو الدينية) ومن حق الإيمان أن يقول لنا: يحب المصني إلى ما وراء هذه الغايات قبل الأخيرة.

إن هذا الحوار ولاهوتيي التحرر علموني ما الذي يمكن أن يكونه انفتاح للماركسية على جميع أبعاد الإنسان.

الماركسية قبل كل شيء فلسفة عمل، وكفاح ضد استلابات الإنسان. لكن العمل، ولو نُظم تنظيمياً عادلاً على أكمل وجه، ليس غاية في ذاته. يمكنه أن يخلق شروط تحرر الإنسان حيال المطالب المادية. وهذا كثير. لكنه لا يقول لنا ماذا سيصنع الإنسان المتحرر بأوقات فراغه. شيئاً آخر غير العمل، وأكثر منها بلا شك. لأن العمل ذاته سيكون مبتورة من بعدها الأساسي لو انحصرت في اللعب دون أن تساعدنا على ابتكار المستقبل والبحث عن معناه الاشتراكية ليست بهاية التاريخ بل بديهية تريح من يكون بعد ذلك عادة حيوية لمراحمات والسيطرة والحروب

الماركسية فلسفة الثورة. لكن الثورة ليست الخلاص الذي يتطلبه الإيمان يمكنها بعد كثير من المحاولات والأحصد تحقيق مملكة الإنسان. الإنسان بوجهه الإنساني، لكنها لا تحقق ملكوت الله، ملكوت الخلق، بل لما يتجاوز الإنسان. أن يُجعل من كل إنسان من أي إنسان،

إنسان، تلك هي لعبة فن الأخير، نكن مد سيضع الإنسان فما وراءها؟

الإنجيل هو «الشارة» بتلك الإمكانيات اللاهائية في الإنسان، ويسوع هو رمز تلك الإنسانية المحررة والمبدعة فيه. إنسان «عنى صورة الله» لقد حمل النار إلى الأرض.

العلاقة بين إنسان والله مختلفة جذرياً في الإنجيل وفي المسألة ليويس. إن دروسه يريد أن يسمي سبر مكبهم في تراتفة الكتاب، ولو صطفر إلى تكليفهم بالأعلال من أجل ذلك، أن يسوع فهو يحمل إلى هذه الشارة كل شيء يمكن لدى الإنسان، وهو مسكون بالله، وليس حصصاً له. بروميشوس تفك أعلاله، وانتهون يطلق سراحها. وجميع الآلهة الطفلة تموت، آلهة الصاعقة أو آلهة الجاش إن سطشة بالسه إلى تلميذ يسوع ليست الـ UBRIS اليونانية: أي الكبرياء لتجاوز حدود الإنسان والتطويع على قدرة آلهة مع يسوع صار الإله إنساناً وصار الإنسان إنساناً في برعمه والخطيئة الكبرى هي كس وخسر. ما الذي يمكن أن يحشاه إنسان يعلم، بطريق يسوع، أنه مسكون بالله؟

كان دون كيشوت يقول من أعماق يؤسه: «أد أعلم من أنا؟ إنسان مسكون بالله. بروميشوس نفسه ليس سوى رائد. وسس هو الرجاء الأخير ولا هو خلاصه الإنسانية»

لا ريب أن له مكانه في تقويم المسيحي، لكن يسوع، المبشر بالعمة وما وراء، جمع الحاجات الموقفة، مكانة في التقويم لثوري.

ب. عدداً آخر في التزايد من المسيحيين لا يمكنهم أن يتصاهوا مع الـ «أبوته» للكيسة «الترانزية» (بالمعنى الاشتعافي للكلمة: تلك التي تُصغي لقدسه على السلطة).

وإن عدداً آخر في التزايد من الثوريين يقول أنه ما من حزب هو طليعة مستقبل مطلق.

كل الفريقين يرى في بروميشوس رائداً للمحرر الديني، وآخرون يرون في يسوع المبشر «بنعمية» ليست سوى الحق، فيما وراء حرية لن تكون سوى إلغاء للعبوديات.

لكلا الفريقين عدو واحد: الإله الرائف، و بروميشوس الرائف، والمسيح الرائف، في الدين السائد: وحدانية السوق، أي عبادة وثي هو الماس الذي يفقد الحياة معناها حين لا يقدم لها سوى منظور واحد هو النمو الكمي للإنتاج والاستهلاك.

ذلك هو العدو الوحيد للإنسان ولله الذي فيه. ومن حق جميع الناس من ذوي الإيمان أن يجمعوا قواهم ليحطموا هذه العقبة التي تعترض مستقبلنا.

نعم، أيها العزيز دوم هلدر إن العهد الذي قطعناه ينبغي به آخرون غيرنا، ومن بعدنا: إن التلاصق المحض بين ادركسية الحق، أي دون دوعمانية، وبين الإيمان الخبي، أي دون سدحة، سبيل، بفصل لاهوت التحرر، أمل الإنسانية العظيم.

هل مات ماركس؟

إن سادة القوصى الحاليين يريدون، بتلك التعبئة الإعلامية الهائلة، أن يمرضوا على الجماهير فكرة، وكأنها بديهة من البديهيات، وهي أن تفتر الاتحاد السوفيياتي هباز للماركسية، لكي يوهبوا أن المخرج الوحيد، هو العودة إلى العباب.

أما ما هو واضح للعيان فهو أن إعادة الرأسمالية إلى روسيا جعل من الاتحاد السوفيياتي، في مدى ثلاث سنوات، بلداً من العالم الثالث، أي بلداً خاضعاً لأوامر صندوق النقد الدولي.

إن التدخل الأجنبي في جميع الميادين، من الاقتصاد إلى الثقافة، أدى، في بدايته، إلى ولادة «مايف» من المفكرين الذين تموز ثروتهم بين ليلة وصباح، وكانها قصور سامه. أما الجمهر فمعد فوفه بؤس يصل حتى التشول والجوع، يؤش تجلى في الاتحاد السوفياتي إبان مجاعات ١٩٢٠ الناشئة عن التدخلات العسكرية لسياسة العرية، سياسة الأسلاك الشائكة. وعلى صعيد الثقافة، أو على الأصح اللاتقافة، عدا هذا البلد، اقتداء بالولايات المتحدة، موللاً للمخلوقات والفساد^(١).

وفي الخارج، أدت المراقبة «البلتسية» التي امتدت إلى الأسلحة محصور، بكل الوسائل، على العملات لصعبة، أدت إلى تكاثر النقبات العسكرية الأكثر تقدماً بما فيها التفنات النووية.

وليست هذه سوى بعض الأعراض، بين أشدها بروزاً للناظرين، أعراض التفكك المادي والأخلاقي لمجتمع يبلغ أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة.

إن هذه المراقبة الهائلة لما كان القوة الثانية في العالم، والعهر السياسي للأجهزة التي عدت «معد مشيئة لولايات المتحدة وأصندوق بعد لدوي، إن ذلك تحقيق «عادة الرأسمالية» «بعداد رأسمالية» كما يقال عن حركة ١٨١٥: «إنها إعادة لملكية».

لقد اوتكتبت الثورة الفرنسية جرائم: الإرهاب العفوي، قساد «ترموديرين، دكتاتورية «بيون، لكن الملمكة المعداده لانتكفي بتعطيل ثنائين «سود وروسبير، وإنما تحطم أيضاً ثنائين روسو وفوشير وديد.

(١) أعلنت الشرطة في أوربكتة أن المخابرات المزروعة بالخشاش خصعت ست حرات في ستم ١٥٠ هكتار في ١٩٩١ إلى ١٠٠٠ هكتار في ١٩٩٣

كتب ملهم مقاومة أصل المحررات - المحررات تفجر الآل في مجموع بلاد الإ- ١٨ من السكان أصابهم المحررات، أي مائة و٢٠ مليون نفس، كما هي الحال في ولايات المتحدة

وهي تريد أن تمحو من ذاكرة الفرنسيين قرن الأنوار وجميع الجوانب الابدئية في الثورة، كما بحري اليوم عدد لانتكفي بالإصاحة بتماثل العهد السالبي، وإنما يطاح أيضاً ثنائين ماركس ومؤنسي الاشتراكية إن «نفس بمعبون دم يتصاهرون بسيان بهتت لرأسمايه القديم، وطعين مبصرة روسيا التي كانت تُسمى آنذاك «سجن الشعوب» بسب صوف لاضطهاد التي كانت تمارسها على الأقليات العرقية وعلى كل حركة من حركات الحرية.

إن التراجع ذاكرة الشعب هو الشرط الضروري لكل تراجع تاريخي. كان لابد من أن تُمحي من الذاكرة روسيا القديس مبرج وروبيف، روسيا دستوفسكي وتولستوي، لصالح روسيا رأسمالية ورأسوتين، ذلك بتعديل الكتب المدرسة ودوائر المعارف، من أجل حلل حيل من لشباب يتفك بحاره، «معدرات أصول تجار عصابات لمايف، أو يتدرب صر ضروب التعصب الديني والقومي على المعامرات الصوفية القومية لمعصنة

كان لابد من اقتلاع لشل الأعلى للشبيوعين الشباب الذين حلموا بقاء «سركيه، وفتلاع الشيد الذي يتحصن أمالهم، من «ديسير وسروي، إن مثاليين «والدي سمعته بُغتي في ١٩٦٨، في مشاغل بايكال.

ستتصر على كل شيء: الصحراء، وتقصف الجبل.

على القطب القاسي والآفات العظيمة

وعندما يدعو الوطن إلى عمل معجزة

صوف يعملها دون برزد ولا معاصرة

كان لابد من أن تُمحي من الذاكرة أصول الاشتراكية ذاتها ليس «س هو أول من ندد برأس المال بل إن «بابوف» في حزيران ١٧٩١ هو

لدي فصيح قانون «شابسه» الذي مع إنشاء ثلاثة أرباع القرن من تشكل النقابات العمالية، باعتباره «قانوناً يبرهن أملاً رأس المال».

وليس ماركس هو الذي بنكر «صرع الطبقات» فهي سنة ١٨٣٣ (كان عمر ماركس خمسة عشر عاماً) كتب «بيير ليرود» الذي كان من أبناء «سان سيمون» أن اتصال الحائلي بسروترين ضد انورجوارية، هو اتصال ليس لا يملك أدوات الإنتاج ضد الذين يمكنهم.

وليس ماركس هو أول من فصيح أكديب الحرية. فقد كتب الأب لأكوردير في سنة ١٨٣٨ «بين القوي والصيف، الحرية هي التي تصطهد والقانون هو الذي يحجز».

لقد ولدت الاشتراكية، تريحاً، في القرن التاسع عشر، في مجتمع حيث فيها براتية ادن محل تراتب الدم لإفصاعة ومن ها نشأت فكرة ناظم اقتصادي واجتماعي آخر، الخطة التي ترمي بحسب ماركس «إعطاء كل واحد جميع الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية لتساع جميع الإمكانيات الإنسانية التي فيه تنمية تامة. ذلك كان تعريف الاشتراكية بمبادئها، وانحويين لاشتراكي لأدوات لإنتاج ليس سوى وسيلة من وسائلها».

إن تفكير ماركس يشبه قليلاً جداً ما يُسمى على العموم، لماركسية

إن ماركس لا يسعى باناً إلى بناء نظم على طريقة الطوباويين يعون «إسي لأصع وصفات لمطاعم المستقبل الخفيفة» وإنما هو يحلل بنية قوايت النمو في المجتمع الرأسمالي الأكثر تطوراً في زمانه: انكلترا.

وهو يستخرج من تحليله طابعين أساسيين ففي اقتصاد السوق، أي في مجتمع كل ما فيه سلعة، لا في العمل الشري. يقوم ألعاب، دون أية عناية إنسانية خالصة. كتب ماركس وانجلز بعد أن قرأ داروين: «لم يخرج

اقتصاد سوق الرأسمالية عن أشكال الاقتصاد الحيوانية»

وهو يُلخص لوحة ذلك الاقتصاد في رسالته إلى موش «سمة قوى لا حصر لها فيه تتعارض تعارضاً متبادلاً، مجموعة لانهاية لها من القوى الدورية التي تنتج، عنها محضلة - الحدث التاريخي - يمكن أن يُنظر إليها، دورها، على أنها ناتج قوة تعمل ككل، على نحو غير واضح وأعمى لأن ما يريد كل فرد حول دونه ما يريد كل فرد آخر، وما يحصل من ذلك شيء لم نرده أي واحد».

من هذه المراحات الداروينية يشج استقطاب متزايد للثروة والسلطة من جهة، وللبؤس والتعبئة من جهة أخرى.

ومن ذلك الشكل الآخر لتنظيم العلاقات الاجتماعي، وهو تنظيم واج إنساني خالص، يحدد ماركس الغايات فقط.

كتب ماركس في مخطوطات ١٨٤٤ «العمل المستلب»:

«إن الشيوعية، (إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التي هي استلات الإنسان)، هي، بذلك نفسه، امتلاك حقيقي لمحوه إنساني على يد الإنسان ومن أجل الإنسان. إنها استعادة للإنسان، استعادة كاملة، واعية، لا تحل عن شيء من الثروة المكتسبة بالتطور السابق للإنسان الاجتماعي، في الإنسان الإنساني. إن الإنسان يمتلك كيانه الشامل، بطريقة شاملة، أي من حيث هو إنسان كلي».

وإطلاقاً من دراسة قورين تطور الاقتصاد الانكليزي في القرن التاسع عشر، كان ماركس يتصور الاشتراكية على أنها تجاوز لتناقضات الرأسمالية التي بلغت تمام نصعها. ويرأيه أن الثورة الفرنسية مذمت هذا سبوح: طبقة اجتماعية، هي البرجوازية، أصبحت مسيطرة اقتصادياً، في من أن للعلاقات الاجتماعية والسياسية لم تكن تتطابق مع هذا التصور

الذي عوّفته بحق مآثران إقطاعية وتقوم الثورة لتدمير هذه البنية التي انقضت عهدها ولتوفيق بين النظام السياسي والاجتماعي وبين الواقع الاقتصادي. ويرى ماركس أن الطبقة العاملة - وكانت في عموم أوروبا تعمل تصبغ أوروبا الغربية. ولا سيما في بكتريا وفرنسا - كانت هي الطبقة الحديدة الصناعية التي رسالتها التوفيق بين البنية السياسية والاجتماعية وبين الواقع الاقتصادي لهيمنة البروليتاريا على سحرورية لم يعد بمقدورها السيطرة على الأنظمة التي أنشأتها.

بعد أن أول ثورة من الناحية التاريخية، اتسبت إلى الماركسية، ثم تمجر رسم تتطور في شروط متطابقة مع فرصة ماركس كانت روسيا. خلافاً لاكترا، قليلة التصنيع جداً في ١٩١٧ حتى إن الطبقة العاملة لم تكن تشكل فيها سوى ٤ / من السكان العاملين فم تكن تستطيع إذن أن تكون البديل للبرجوازية التي كانت هي أيضاً ضعيفة ولم تستطع أن تقوم بثورتها البرجوازية على الخلفات الإقطاعية في النظام القيصري.

لاستطيع ثورة، في مثل هذه الشروط أن تولد من مجرد نضج تناقضات الرأسمالية. وهي بالضرورة «ظرفية»، تقوم على مؤاتاة الظروف، واتفاقها، الظروف الناشئة مثلاً عن التعارض في روسيا ١٩١٧، بين الفلاحين وعدد من الخلفات الإقطاعية. وعن التناقضات بين هذه الطبقة والأشكال الجديدة للاستثمار الرأسمالي للأرباح لذي حلّه ليس في كتابه: «تطور الرأسمالية في أوروبا»، وأخيراً عن الحرب، عن الهرعة، وعجز النظام عن حل مجموع هذه المشكلات.

ثورة الظروف المؤاتية والمتوافقة، لكنها في الوقت نفسه، وللأسباب نفسها، ثورة اللحظة الحاسمة، أي إنها تحققت، لا كما أوحى بالثورة ماركس والمجلد - لا بحيرة طويلة من النضج، وإنما بعمل صاعق، إذ كان المقصود انتهاء اللحظة التي يألف فيها عدد من التناقضات المتنافرة

وهكذا فإن المخطط الثوري الذي تصوّره ماركس - انطلاقاً من مثال الثورة الفرنسية - قد قلبه لينين: فبدلاً من أن توفّق طبقة مهيمنة اقتصادياً بين المؤسسات السياسية والاجتماعية وبين هيمنتها الاقتصادية الواقعة، كان المقصود، على العكس من ذلك، الاستيلاء على السلطة السياسية لخلق الشروط الاقتصادية للاشتراكية بعد ذلك، بعض تلك السلطة.

والمفارقة التاريخية هي أن ثراد القيام بثورة «بروليتارية» دون بروليتاريا، أو على الأقل، بروليتاريا جنيئة.

سيكون الاحراف مروّعاً. فكما أشار تروتسكي، سيتكلم الحزب باسم الحق، ثم الجهاز باسم الحزب، والقادة باسم الجهاز، وأخيراً سيتكلم ويعمر واحد باسم الجميع.

أدرك لينين في وقت مبكر جداً أن عمله محكوم عليه بالفشل. كتب سنة ١٩٢٠: «إن سوفياتنا، في الشروط التي تعمل فيها الآن، أي عبر مشاركة الواقعية للجماهير الكبيرة من أجل اتخاذ القرار، وإنما بقيادة بعض مناضلي الأكثر ثقافة، إن هذه السوفيات يمكنها عد الاقتصاء أن نسي الاشتراكية للشعب، لكنها لاثنين على أيدي الشعب».

لقد رأى لينين، في ١٩٢٠، قنوم اللحظة المروّعة. وبعد أن قال: «إن طونا الرئيسي هو البيروقراطي، المناضل الشيوعي الذي يشغل وظيفة إدارية في الدولة أو الحزب، أصاف في حوار لتروتسكي الذي كان يتحدث عن «الدولة البروليتارية» - «عم تتكلم؟ إنها لأستطورة! إن دولتنا، من حيث المبدأ، دولة بروليتارية، لكنها دولة بروليتارية بهيمة ملاحية أولاً، ثانياً إنها دولة بروليتارية بتشوق بيروقراطي».

ومن بعده، أدت ضرورة مقاومة الضغط الخارجي وضرورة خلق قوة مادية لقوة الخصوم إلى إعطاء الأدوية المطلقة للتصنيع في حد البد الذي لم يعرف التصنيع بعد. بيد أن التحويل الاشتراكي لوسائل الإنتاج لم

يتصور على شكل شبكة من التعاضيات المستمرة ذاتياً، لكنه تحول إلى
ضدّه: ملكية الدولة. في هذا التصور للدولة، أصبحت السوفييتات التي
كانت، في البداية، مجالس العمال والملاحين، مجرد «سير» وهي حركة
لجنة بيروقراطية

وأصبح التعارض الماركسي بين فلسفة «المعل» وفلسفة «الكائن»
المصادق المادي العميق والمصادق التاريخي، بين مادية نيتي اعتبرت تورية وير
المثالية التي اعتبرت أساساً للمحافظة والرجعية.

لقد كُفّت الجدلية «الديالكتيك» عن أن تكون مهجراً نقدياً وحيثاً
لسؤال الواقع سؤالاً تجريبيّاً، وغدت مطبوعة، ولائحة بالقوانين الثابتة. أم
ماديه لتاريخيه ماركس، العرصة التي شكّلت بعداً حساساً في البحث
دفعاً للوهم الذي يرى أن الأفكار هي محرك التاريخ، والتي كانت تدعو
إلى قراءة الحياة الاجتماعية باعتبارها كلية عضوية، تحتلّت في فلسفة
لتاريخ نشبه الإيمان بالعناية الإلهية القديمة: المجتمعات تتنقل من مرحلة إلى
أخرى لتصل حتماً إلى الشيوعية

جميع التعبيرات الإنسانية عن الحياة الاجتماعية. شحفت أو شُوّهت
واعُتبر الإيمان «بيدولوجية الخنوع، والإلحاد دين الدولة، في حين أن
ماركس، في «مدخل إلى نقد فلسفة الحق عند هيجل» عندما مضى روح
«الحق مقدس» موخه ضد الشعوب على أنه «أفيوب الشعب»، رأى في
الدين، في الصلحنة نفسها، وفي حركة التفكير نفسها، «تعبير عن الوهم
الإنساني واحتجاجاً على هذا البؤس أيضاً»

وطوبست العزّ بأن عدو نافلة للدعاية الرسمية، إذ أن الواقع
الاشتراكية منعت من التصدي للواقع لكي لا تُرى تناقضاته ومآسيه. وفيه
الفكر، على طريقة الفلسفة الوضعية، وكأنه «انعكاس» لواقع خارجي
جاهر ومتّج.

إن تصدير هذا اللاهوت بلا إله والذي يعتبر النظام السوفييتي على أنه
تمودج الاشتراكية الوحيد والثابت، قاد الأحزاب الشيوعية في أوروبا وهي
العالم الثالث على حد سواء إلى إفلاس شعهم. أما أحزاب العالم الثالث
هذه، هذا التمودج قد صُنع انطلاقاً من تجارب خاصة بالعرب، من مثل
لاقتصاد سياسي الانكليزي والفلسفة الألمانية أو الاشتراكية الفرنسية،
ولأن الاشتراكية حرة تصوّرها على أنها انتقاد بين الرأسمالية و الشيوعية
لكن كيف تطبق شبكة الرموز هذه، دون تبديل أساسي، على شعوب لم
يخلق من الهي الرأسمالية، حتى ولا إلى الإقطاعية سي عرفها لغز
«حده» وأما الأحزاب الشيوعية الأوروبية هذا كان ماركس قد أعطى مثلاً
تحليل حركة التاريخ انطلاقاً من تطوّر رأسمالية بلغت بصحها، في أوروبا
الغربية، فإن الثورة السوفييتية التي وُلدت في ظروف استثنائية لا يمكنها أن
تُحصى كنموذج شامل إلا بتعميم وهمي، دون أن يكون له اتصال بالواقع
تاريخي للعرب.

لا يمكن للاشتراكية، في أوروبا، أن تكون تجاوزاً لرأسمالية نامية مثل
أسماء روسيا سنة ١٩١٧. يمكنها أن تولد من تطوّر عضوي لتناقضات
سماوية متطورة تطوراً تاماً، لا من انفجار «طرفي»، ولا من دمير كامل
سرس لاقتصاد السوق، لكي يُعزّض، من فوق، وبالقوة، تخطيط إرادي
لا يُلغى لواقع البنى الاقتصادية والاجتماعية، وهي ثمرة التاريخ الخاص لكل
عد، وثمرة تطوّر التقني والمادي، وثقافته

لا تلبس نموذج مستورد مبني في شروط مختلفة جذرياً لا يمكن أن
تأتي إلا إلى أنظمة من الإكراه التي لعنا ندهش من أن انهيارها في
أوروبا وهاغارها وبلغاريا وألمانيا الشرقية قد حدث دون عصف.

حالة استثنائية، بل وحيدة، في تاريخ الثورات والثورات المصادرة
لشيء في تطوّر هذه الاشتراكية هو استعارتها لمسلّمات الرأسمالية

لأممها. وسعدت في إيمان العرب سمودج وحيد متصور، محتلب باسمه
الكفي يدي وقته بضائ العرب وعمومه

ظهر الخطأ الجديد في روسيا سرعة شديدة ثلاثة بحروب

قد صاع ماركس فوسس النمو الأعظم للرأسمالية الأكثر تقدماً في
مع. الرأسمالية لا كبرى، وذلك بأن أقام علاقة حمرة بين الاستثمارات
مخصصة لإنتاج أدوات الإنتاج والاستثمارات المخصصة لإنتاج مواد
الاستهلاك، وهي البصرية الوحيدة التي عشت أكثر من غيرها.

لقد جعل بعض التلاميذ العقائديين من هذا القانون الوضعي لنقطة
الرأسمالية لا كبرى في القرن التاسع عشر دوناً معيارية لطور الأشرك
الروسية في القرن العشرين، وكان ذلك خطأ قاتلاً حال متدبذ دون
التفكير في الاشتراكية بطلافاً من غدايتها، وجعل من الأفضلية المطلقة
لنصاعة الثقيلة عقيدة، ناقلاً بذلك لا إنسانية التصنيع الوحشي لبداية
القرن العشرين في انكلترا وفي فرنسا

وفي شروط تأخر روسيا الاقتصادي في ١٩١٧ ثم في إعادة الإعمار
بعد دمار الحرب العالمية الثانية، أمكن لأولة الأمر بالنمو الصناعي أن تظهر
وكانها ضرورة تاريخية لكي لا يمحوها تطويق القوى الرأسمالية.

لم ينفذ الدمار البشري واضحاً إلا بعد الإقلاع الصناعي (١٩٣٧)
والهجمات الكبرى، لكن هذا الدمار أضحى بسبب ضرورة المواجعة، أثناء
الحرب، ولم يثر التمردات الأولى في ألمانيا وهنغاريا ثم في تشيكوسلوفاكيا
بخاصة إلا بعد إعادة الإعمار

الاحراف الثاني يقوم على الخط بين التحويل الاشتراكي وملكية الدولة
وكان ماركس يهزأ من الذين يعزفون الاشتراكية بأنها انشيم. وكان يقول
«سيكون حيث يسارك أكبر اشتراكي في أوروبا لأنه أتم ليريد».

في ١٩٢٣ عرف لينين التحويل الاشتراكي في آخر مقالة له في
هذا حول الحركة التعاونية، على أنها حق لشبكة من التعاونيات
بسيرو ذاتي. وقال: «سوف يستغرق الانتقال، في الريف، عشر سنوات أو
عشرين، ويعني أن يتحقق على أساس من التجارب الناجحة، دون استيق
من الفلاحين بقيمة النظام». وعندما قصد متالين إلى تأميم الزراعة في
سنة أشهر وبطريق تسلطية، أصاب الزراعة في الصمم، ولم تشف من
إعادة حتى اليوم.

إن التحويل الاشتراكي لوساتل الإنتاج في بلد دي رأسمالية متحققة
أدى إلى تحقيق التصنيع لا انطلاقاً من التعاونيات بسيرو ذاتي، لكن من
دون. أي بالتأميم والمركزة وبدلاً من أن تكون لحظة أداة لأسسه
لإحصاء، وتوجيه الإنتاج تبعاً للحاجات الإنسانية لا الربح، فقد أصبحت
مأساة ترتبه بطريقة شبه عسكرية، حيث كان الفيتون والبيروقراطيون
بإسعاد الجهاز الحزبي يحتفظون بجميع السلطات ويقزرون باسم العمال
من لا يشارون أو يشارون على نحو شكلي خالص، دون تأثير في
لإدارات المركزية.

ب هذا التصور لدور الدولة في تناقض جذري مع تصور ماركس:
إن ماركس يصرح ككومونة باريس مثلاً بالشك في قدرة دولة شرعية،
مافيه تمام للدولة السوفياتية. كانت الكومونة، في مطعمها، وفي شكلها
هيئي اتحادية لامركزية، ودون حزب وحيد: كان أنصار بروتون
محمعون بالأكثرية المطلقة، وكان لأنصار يلاكي حضورهم، ولم يكن
مهم سوى ماركسي واحد.

لأحراف الثالث الأكبر قام على الخلط بين التخطيط الذي ليس له
دور توجيهي، وبين طريقه للإدارة من فوق، محذره للاستثمارات
بأسعار ومعايير الإنتاج، والتوزيع التجاري، وانتقالات السلطة، انطلاقاً

من بيروقراطية مركزية، وأجهزة محلية معينة منها. هذا الانحراف الثلاثي قاد الاقتصاد إلى العوضى، والحرية إلى السجن.

إن أحد أكبر أخطاء الأحزاب الشيوعية هو أنها اتحدت من كرامة لينين «ما العمل؟» نموذجاً للتنظيم، باسم «المركزية الديمقراطية». كانت «العمل» تُشدد بتنظيم حربي من النمط العسكري لكن تلاميذه بسوا أنه تصوّر ذلك التنظيم من أجل السرية وحدها، في مواجهة انقمع القيصري لوجشي. والحفاظ على «شيوعية الحرب» في الحزب، في زمن السلم، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى السقوط.

والذي مات مع الاتحاد السوفياتي ليست الماركسية إذن وإنما كلاريكانورها المأساوي.

على العكس، إن منظور ماركس عن تطور المجتمعات لم تثبت صحته قط، في رأيي، بمثل هذه الروعة التي يجدها اليوم.

إن مظهرين اثنين للرأسمالية تكفنا بمستقبل النظام: وهما آدم سميث وكارل ماركس.

في سنة ١٧٧٦، بسط آدم سميث الذي دعي أبا الاقتصاد السياسي، في كتابه الأساسي «الثروة الأمم» نظرية للنمو توصف بأنها «كلاسيكية» وهي تطلّ الخطّ الموجّه الأكبر لما أتفق على تسميتها حتى اليوم «الليبرالية».

وفكرته الرئيسية هي إنه إذا كان كل واحد نموّه مصلحته الشخصية، في الربح، فإن المصلحة العامة ستكون متحققة. ذلك أن بدأ غير مرتبه تؤمن الانجسام.

أما ماركس فهو يبتدئ، على العكس، من تحليل عميق لعمل آدم سميث، ويعترف أن الرأسمالية بهذا التصوّر ستخلق ثروات عظيمة

ستحفر تطوّر التقنيات (وهو في رأس المال) لم يذخر إعجابه بتلك «مهمة البروميتية في النظام»، لكنها ستحقق في الوقت نفسه تعديلات مهمة وبؤساً رهيباً.

واليوم (كما ذكرنا في المدخل) يقود هذا الاستقطاب المتزايد للثروة من الأقلية، والبؤس لدى الجماهير، يعدو واضحاً على مستوى العالم. أما هو في كل أمة.

بعد حلل آدم سميث في نهاية القرن الثامن عشر وكارل ماركس في نصف القرن التاسع عشر الرأسمالية في زمن بوتعتها واستخلصا تنبؤين سمليين محليين، واليوم، في حين تسود الليبرالية وحدها على مستوى العالم، من الذي كان تنبؤه أصدق حول مستقبل الرأسمالية: أهو آدم سميث الذي أكد أنه إذا ماتابع كل واحد مصلحته الشخصية فإن مصلحة العامة ستكون مؤكدة، أم ماركس الذي حلل آليات تراكم الثروة في قطب والغرق في قطب آخر؟

قد أظهر ماركس كيف يمكن التغلب على هذا التناقض: وذلك بحطة أنه السوق من أجل حماية المستضعفين ومن أجل وضع الثروات المنتجة حده تطوّر كل إنسان وأي إنسان لا استعاده ومونه

الخيار بين الاشتراكية والبربرية مطروح اليوم أكثر من أي وقت من البربرية التي تولد هذه الانقسامات والاستبعادات القاتلة على مدى العالم وعلى مستوى كل مجتمع، أم الاشتراكية التي ليست سوى بحث عن الوسائل لمع هذا الاستقطاب وذلك بإعطاء الأفضلة لموحدة ولكي تزهو في كل إنسان ملء إنسانيته.

إن مجيء الاشتراكية ليس حتمياً. فليس من حتمية إلا بالنسبة إلى الرأسمالية المستتب: إن انحرافاتنا تقودنا اليوم إلى بربرية مصادات المتزيدة للثروة والبؤس، وإلى الانتحار الكوكبي.

حرب بين وحدانية السوق والمعنى:

م يحذد يسوع أي برنامج سياسي ولا أي مذهب اجتماعي واجبين
من جميع الشعوب وفي جميع الأزمنة.

من المراء إذن أن يُعقد إلى إضعاف صفة القداسة، باسم الإيمان، على
الانتماء إلى اليمين أو إلى اليسار. لكن ما نستطيع أن ننادي به،
واسمي أن ننادي به، من كل قوائم، هو أننا لا نستطيع باسم إيماننا أن
نقسم العالم إلى اثنين، الشمال والجنوب، وتراكم الثروة في قطب
الجنوع، والبؤس في القطب الآخر. وإذا لم يكن العالم واحداً، فلا
كأن يكون هناك معنى لا لحياتنا الشخصية، ولا لتاريخنا المشترك.

ب. مهمتنا هي أن نجمع جميع الناس ذوي الإيمان - أياً كان إيمانهم
للعالم الحالي، عالم اللامع، وأن نحلق نويات^(١) لمقاومة اللامع،
من ومقاتلين كل ماهر مافض لوحدة العالم السقفونية، حيث
جميع كل طفل وكل امرأة وكل رجل أن يطور تطويراً تاماً جميع
الإنسانية التي حملها في ذاته، لكي يحضر كل شعب وكل إنسان
هذه إلى وحدة العالم الشخصية.

ذلك يستتبع أن تكافح كل ما يتعارض مع هذه الوحدة، يدعو
من هيمنة امبراطورية، ماهي إلا وحدة زائفة.

نوت: جمع واحد.

كان ماركس، على العكس، يقول: إن تنامي الاستلاب لا يبلغ أبداً
حداً يستبعد إمكان النضال ضد هذا الاستلاب. وذلك ما كان، في
تحليلاته، ملازمة لتعالي الإنسان بالنسبة إلى حتميات قطاعات الطبيعة
ليس المستقبل ما سيكون بل ما سنصنعه

ما وحدانية السوق؟

مثل هذه المسألة تعرض من كل شيء أن يحطم المؤسسات التي تقوم عليها وحدانية السوق والتي هي حالياً «السلطة المدنية» لِسادة العالم، الولايات المتحدة وتبعها وتتوسط معها من (G7) «العاب» وصدوق النقد الدولي، وجميع الأدوات التي تفرض، باسم حرية مرعومة، وشت المان

وتشريع هذا الدمج بنظام السوق العالمية الخاضعة للهيمنة الأمريكية، ترشح بدويوية وسائل الإعلام فكرة «الضرورة»، وكأن الاقتصاد علم الأشياء وليس تنظيمياً إرادياً للناس. إنها تحول مثلاً أن توهم أنه ليس من غير ذلك «غات» سوى الانطواء القومي المؤمن بحماية السوق من المسافة المخرجة، وهو انطواء يقود إلى العزلة والاختناق. لقد أظهرنا، على العكس، إن تعيراً جذرياً لعلاقتنا مع العالم الثالث يفتح «سوقاً» (من نمط جيد) أوسع بما لا يقاس من السوق «الثلاثية الأضلاع» (الولايات المتحدة، أوروبا، لابل) مع صراعات الوحشية ومع العسرة على منافسة القوى الاقتصادية التي ليست مكتملة سابل حصصنا. إن الولايات المتحدة التي تتطلب من البلاد الأخرى الخلل الكلي لحياتها الاقتصادية حتى لا تُنذِي أي عائق في وجه توسعها، تواصل، وحدها، ممارسة نزعة الحماية الجمركية الوحشية: تسمح المادة ٣٠١ من القانون الأمريكي بتطبيق العقوبات الوحيدة الجانب حيال كل من ينوي الحد من الاستيراد «أخر» من الإسهام الأمريكي وهكذا «سعر» راعت التي تُفرض عليها استراحة الأرض، وسنمانا، وهولاندنا، وحمورنا، وصناعة حديدنا، وتقنية إعلامنا، وطائراتنا.

إن العالم الثالث يمثل مساحة اقتصادية أوسع كثيراً بشرطتين: الشرط الأول هو ألا يُعتبر مصباً ومستودعاً لعائس اقتصادنا المشوّء الذي يُنتج

للمنتج ويُنتج الأدوات، أكثر مما يُنتج لحاجات الشعوب الواقعة (شعوبهم وشعوبنا)

لشرط الثاني معاذة أن يجعل المليارات الثلاثة، العاجزين حالياً عن الوفاء بدينهم عاديين على الوفاء وذلك بأن تُمارس حيالهم سياسة معارضة على طول الخط لسياسة صدوق النقد الدولي الذي يُحزب مد رمع قرن العالم الثالث إذ يعرض عليه «نموذج تطوّراً» الخاص بنا. والمطلوب، على العكس أن تتيح لهذه الشعوب ابتكار أنماط من التطور «الداحية النمو»، أي التي تؤمن الاكتفاء للعديني الداني، وتطوّر حاجات تلك الشعوب، حاجتها السريعة النابعة من تاريخها وثقافتها ويمتتها الطبيعية

وسائل الإعلام واللامعنى:

جميع تبدلات الإنسانية إما تبدأ في وجدان البشر، كما تشهد بذلك الهبات الروحية الكبرى للبودية والسيحية والإسلام والإصلاح الديني، وكما تشهد بذلك الثورات الكبرى، على غرار الثورة الفرنسية التي هيأ لها قرن الأنوار والموسوعة، أو على غرار ما هو أقرب إلينا، محور العهد التي اغترفت، مع غاندي، من بنابيع «فيدايتا» أو دور العصر الديني في الثورة الإيرانية ضد «الحداثات» المستوردة.

ولنهضة هبات جديدة بهذا الأسراع، يجب نقل المعركة من كل شيء إلى مستوى معالجة العقول وتمهيداً بوسائل الإعلام - ولا سيما التلفزيون - ثلاثة قطاعات تكون مبدئياً وطاقم التلفزيون: الإعلام والترفيه والتثنية. ويمقتضى قانون السوق الذي يحكم البرامج تبعاً للحضور (الذين يحددون بدورهم الإعلان) أن يستمعين ومشاهدين هم محدد رئيس

فيما يتعلق بالإعلام ثباغ الصور والوقائع كسلع، وهي تُفَرِّز، على

المستوى العالمي، من بعض الشركات التجارية - لكن «مردوك»، و«ماكسويل»، و«هيرسات»، و«بيرلسكوني» ليسوا فقط تجاراً يؤمن لهم ما هو مثمر وسادي وماتمي أرباح المبيعات، وإنما هم أيضاً سياسيون يتلاعبون ب«آراء العامة» ليحملوها على قبول المدايح، كما فعلت مثلاً شبكة C.N.N الأمريكية التي احكرت الأخبار احتكاراً مطلقاً أثناء حرب الخليج.

إن الخبر والواقعة والصورة ليست سلعاً فحسب ولكنها سلعة أيضاً. واليدك بعض الحقائق التي أعطتها الجنرال «غالوا» في مقدمته لكتاب «جاك ميرليو»

بينما كان الرئيس بوش يتعنى أن يسانده مواطنوه في عملية تدمير العراق التي كان يعزّمها، ويسمى كان الكويتيون بأسفون لقلة الاهتمام الذي أبداه الأمريكيون حيال مصرهم، مؤلت البدائل البترولية في شبه الجزيرة العربية وكأنه للعلاقات العامة فما وراءه لأطلسي هي «هيل وولتون»، وذلك لتشر حملة في صالح حرب تحرير الكويت. استخدمت الوكالة أنجع الخيل، الخيل التي ستعني أمريكا بأسرها الموت المتعبد للمولودين الجدد الذي روت لاجئة شابة أفلتت بأعجوبة من أيدي الأخطاط العراقيين. كتبت اسمها خوفاً من الانتقام الذي يمارس لآذاه أسرتها التي طلت بين أيدي المحتبين، هروت بانتعصين كيف أن العراقيين اختطفوا اثنين وعشرين مولوداً من الحاصدات ورموهم أرضاً وتركوهم يحنصرون، روت ذلك كله والدموع تهمر من عيناها. هذه لدقائق القلبية من التلفزيون هزت نفوس الأمريكيين حتى إنهم طالبوا بالانتقام. واستند العراق من بين الأمم، وبرزت سلعاً لمدايح التي نلت والمطعة التي قصت على ٢٠٠٠٠٠ عراقي، وبخاصة الأطفال. وما إن انتهت الحرب حتى عُلِمَ أن «هيل وولتون» تلاعبت به ٢٥٠ مليوناً من الأمريكيين لقاء

عشرة ملايين دولار بفصل الصورة المتلفزة: كانت اللاجئة ابنة مفر الكويت في الأمم المتحدة، أما قصة الأطفال الذي انتزعوا من الحاضنة فكانت من اختراع الوكالة وقد أكد صاحبها الرئيس جورج بوش نفسه لأنه استشهد بها عدة مرات في مجلس الشيوخ وفي التلفزيون وفي الصحافة.

مثل آخر تقع الصومال في موقع ممتاز، من الناحية الاستراتيجية، على مخرج البحر الأحمر، على مقربة مسية من شبه الجزيرة العربية، الطريق الأكثر استخداماً من حاملات النفط التي تسير بحذاء الساحل. وقد أقامت فيها الولايات المتحدة مطارين صححين كما أقامت محطة أرضية لمراقبة سمر أقمارها الصناعية. ومن أجل هذه الأسباب جميعاً، وبلا شك، كانت المجاعة التي يشكو منها السكان البائسون موضوعاً للكثير من الريبورتاجات التلفزيونية. وهكذا فتى لرأي العام للتدخل لمسكري والإنساني الحاشد وقد جرى بتوفيق لا مثيل له، لكنه إنما مال لموافقة تقريب بفصل الصورة.

إن مختارات من هذا النمط جعلت من الولايات المتحدة والدول المكثلة لها في الصومال محسنة إلى الإنسانية، في حين أن الدول التي حملت والتي وزعت، أمام مئة آلة مصورة، لم تكن تمثل سوى ١٠ من كانت توزعه كل يوم منظمات إنسانية مستورة.

وبما يتعلق بتهمة التلفزيون الثانية، وهي الترفيه، فإن الإخراج يحضج لتواين السوق بصفها، وفي هذا ميدان، كان ستعلاء أدنى العرائر، «العرائر القاعدية»، عرائر الدم والجنس هو القاعدة.

لاحظ سقراط قديماً أن الطفل لا يحار في الاختيار بين حلوى الحلواني ودواء الطيب. لكن سادة العرض التلفزيوني لا يكتمون باعتبار مشاهدتهم كالأطفال.

إن سيد التلاعب بالعمول، أدولف هير، كان يقول ولكي نحصل على موافقه، أمام جمهور السمعين، أتوجه إلى أعدهم، وإلى أسفل مافيه العدد الدميعة أو الجنسية... وأربح دائماً. أما الأقلية الباقية فأنا أتعهد بهم بطريقة أخرى».

صريح أحد قمتحي متوعات القصة التلفزيونية الأولى الفرنسية لـ «تيلير ما» «كلما حفصا لمستوى إزداد المحصور، الأمر هكذا هل يعني أن نصنع الدكاء ضد المشاهدين؟ هؤلاء ليس عبيهم أن يمتكروا، وإذن، فلنكف عن إعطاء المواعظ». إن المقارنة قاسية لكنها قد تدفع إلى التفكير. لكن جمهور المشاهدين والمستمعين لا يتولد تولداً ذاتياً.

وهكذا تتكاثر على الشاشات الصغيرة في العالم بأسره نجوم التلفزيون صدوق القمامة، الذي يبيض بأسوأ الإتاحت الأمريكية، من «مدونا» إلى الأبطال لميديس لأعدائهم لدى تمر جميع العلاقات الإنسانية عندهم من خلال المستن، أو إلى أبطال «دالاس» الذين تمر جميع العلاقات الإنسانية عندهم بواسطة الدولار.

وتبقى الألعاب التي تكمن أقل عيوبها هي إعطاء فكرة مشوهة عن الثقافة، فمهاة الثقافة بالذاكرة، ذاكرة أي شيء، بدءاً من أول حونه حول فرنسا إلى طول نهر «أورينوك». أقل العيوب، لأن هناك عيباً آخر، وهو ألعاب الحظ، والجري إلى اليانصيب الذي ابتكر من أجله هذا الشعار: «هذا سهل»، ويمكنه أن يدر مبلغاً ضخماً! هذا ما يُلخص أخلاقية النظام بأسرها، وهذا كل ما قد يبقى من رياء وهي لدى الذين لا يمكنون شيئاً

ما هو مشترك، في الطريقة التي يضطلع التلفزيون فيها بهذه الوظائف الثلاث، هو تدمير كل فكر نقدي، كل محاولة للبحث عن معنى كثر انحدار مشروع ما مستبعد من المشهد السعوي البصري والإعلامي على أيدي الرقابة الصريحة أو الضمنية، رقابة قوين السوق والسلطة، والسيطة

حامية لتلك القوانين وقرينة منها، وكلا السلطة وقوانين لسوق حاصصا وحداية السوق.

إن مقاومه هذا «الاحلال» الثقافي (أو على الأصح، ساهص للثقافة) يعني أن تبدأ نوضح هضج اندرائع الايديولوجية التي تحت حتمها لسلطة الامبراطورية للولايات المتحدة، طبيعة انحطاط العرب. وبعد نصح هذه الأنساب الايديولوجية سعدو بمكة المقاصدة الاقتصادية للصدرب التي رمز بوضوح عظيم للثقافة الأمريكية. وتبدأ هذه المقاومة بتطوير روابط متهددي التلفزيون لغرض احترام حقوق الفاصرين الموقت، وذلك باخصور على صوب سن تقمع تدريجياً المسلسلات والأفلام الأمريكية، والألعاب المسوخة عن القنوات التجارية الأمريكية، والأخبار المضللة استقاة من وكالات الصور أو النصوص، ومن المهم، المقاومة هذا التضليل الإخباري المنهجي أن معرف مثلاً الأسعار المقارنة بين محاربة التصحر «اسطة اللاقطات الشمسية والمضخات وبين حاملة الطائرات أو رحلة إلى القمر. هكذا فقط يمكن أن تتسع المنافسات الكبرى من أجل التفكير المحامي حول مشروعات المستقبل وغايات الإنسانية الأخيرة

إن تطبيق المقاطعة يُعتبر حذرياً أسلوب العمل السياسي. أولاً لأنه لا يضمن تحزباً أو تعويضاً بالسلسلة، بل على العكس، هو يضمن مسؤولية «انقراضاً شخصيين، ترتب عليهما، في بعض الأحيان، تصحبات تصحبة بأشياءنا لمصلحة متعددة - تصحبات تفرد إلى نعتات في «عظ حانده» الذي يصطعب بالصعوبة الأمريكية الوضحة

وذلك عمل عيز عيب، لكنه قد يقتضي محاطر شخصية، عندما مع الحركة ويمكن التفكير في تدابير أكثر طموحاً من مثل رفض الأساط المضرية ضد الغزو الأمريكي للتلفزيونات، أو حتى الإضراب لاصطفائي عن الصرية.

النصف الآخر للعالم:

أول تدبير ينبغي من أجل العمل على وحدة العالم هو إلغاء دين العالم الثالث. إن هذا الدين المزعوم لا أساس له ولا تبرير.

يمكننا أن نتساءل قبل كل شيء: من الدائن؟ العرب، بالفعل، يحتفظ بتدين رهيب إزاء العالم الثالث: من الذي سدد لليرو مئات الأطنان من الذهب والفضة التي نهبا من هذا البلد الغزاة الأسبان؟ من الذي سدد للهند القطن الذي صنع ثروة مانشستر؟ من الذي سدد للعراق وإيران وجميع البلدان النفطية البترول الذي سحّب بأسعار ابتزازية على أيدي المستعمرين والشركات المتعددة الجنسيات؟

ينبغي بعد ذلك أن نتساءل عن سبب الاستئانة الحالية. يُعبد لإزالة الاستعمار السياسية المزعومة، عملت البلدان المستعمرة قديماً إلى تفكيك بُنى الاقتصاد الوطني للبلدان المستعمرة، ولا سيما بأن صحت بالزراعات الحياتية لمصلحة الزراعات الأحادية أو الإنتاج أحادية التي تجعل منها نواجع تلحق باقتصاد الدولة المستعمرة قديماً، لمصلحتها حصراً دون غيرها. إن مثل هذا الاقتصاد لا يمكن أن يؤمن الاستقلال ولا الاكتفاء الغذائي الذاتي. واليد العاملة الصناعية لم تكن مُتلائمة مع حاجات هذه البلدان. واستمرت التبعية إذن وغدت القروض لأمقرّ منها.

ثم إن هذه القروض قد سُدّت منذ زمن طويل بفوائد الربا التي تُدفع للمقرضين الأجانب. الجزائر مثلاً، وهي مدينة بـ ٢٦ مليار دولار، تدفع سنوياً ٦ مليارات فرنك. تمثل هذه لشروط، يعدو كلّ صحيح اقتصادي غير ممكن، وهاعنا المصدر الأساسي للأصوليات.

التدبير الثاني الذي ينبغي أن يُتخذ سيكون الوقف الجديري

«المساعدة» المزعومة لهذه الدول. إن هذه «المساعدة» تمرّ عبر الحكومات التي يستخدم رؤساؤها والجماعات المدنية والإقطاعية والقبلية التي تساندهم ذلك المال لمصلحتهم الشخصية أو لشراء الأسلحة المخصصة لقمع شعوبهم ذاتها.

وأخيراً فإن جزءاً كبيراً يُغذّي الفساد والرشوة في الشمال وفي الجنوب.

ينبغي أن تذهب القروض والاستثمارات مباشرة إلى الأهالي دون أدنى أهرية: وحتى القروض الطويلة الأجل ينبغي أن تُسَدّ بكاملها لأن الهدف الأكبر هو تحميل المسؤولية للمستفيدين من هذه القروض وهذه الاستثمارات.

ستكون الطريقة على خلاف جيلري مع طريقة صندوق النقد الدولي.

١ - لا تمرّ القروض عبر الحكومات: يُحصل المقرضون أو المستثمرون اتصالاً مباشراً بجمعيات المنتجين والتعاونيات والتعاونيات وجماعات القاعدة.

لقد أُحدثت، ولا سيما في إفريقيا، جمعيات للمسحجرين من هذا النوع، وكانت السائح دائماً تقريباً إيجابياً، إذ أن ملك المجموعات استخدمت تميّات متناسبة مع أرضها وثقافتها وتقاليدها. إن العنصر غير المتوقع لهذه المبادرات وتطور التقنيات «المناسبة» تؤمّن بولادة أشكال للتطور «داخلية» ليست مفروضة بحسب النموذج الغربي.

٢ - إن القروض والاستثمارات لا تُمنح إلا من أجل مشروعات محدّدة لأعمال ذات نفع عام: مثلاً تطوير الزراعات أو أعمال الريّ، والنقل، والبيئة التحتية.

بحري التسديد بعملة البلد لتسهيل إعادة الاستثمار في أرضه (لا تهجير الدائن الخارجي للأرباح).

وهكذا تعدو ممكنة مصدعة المبادلات بين الجنوب والجنوب (٨٠). من الموارد العالية) بدلاً من أن يرى فقراء الجنوب يدفعون كما يفعلون اليوم ترف الطبقات الثرية في الشمال.

٣ - هذه المبادلات ينبغي أن تتم بطريق المقايضة، في الأساسي منها، لكي لا تتوقف على العملات الأجنبية (وبخاصة الدولار) والمصاريف التي تخضع لها.

١ - إعادة تقدير أسعار التصدير الآتية من بلدان الجنوب لوضع حد مبادلات متعقبة تعاوتاً أحداً في التزايد في سنة ١٩٥٤ كان يكفي البرازيلي ١٤ كساً من القهوة شراء سيارة «جيب» من الولايات المتحدة وفي ١٩٦٢ كان يلزمه ٣٩. في ١٩٦٤ كان «الجامايكي» يشتري الجوار الأمريكي بـ ٦٨٠ طنّاً من السكر، وفي ١٩٦٨ بـ ٣٥٠٠ طن. هذا التعاوت الاستعماري ما يزال موجوداً.

ما تزال البلدان الفقيرة تحت البلدان العبيّة. لقد سجل برنامج الأمم المتحدة للتطوير: من ١٩٨٣ إلى ١٩٩١، نقصاً عملياً إلى النصف جدول لأسعار مجموعة من ٣٣ صنفاً أساسياً (حارج نطاقه) من (١٠٥) إلى (٥٧) (٠٠٠) وبين ١٩٨٩ ومتصف ١٩٩١ انخفضت أسعار التصدير للمنتجات الأساسية في البلدان النامية ٢٠٪ (٠٠٠) وبلغت أسعار القهوة والشاي في قيمتها الواقعية أدنى مستوى من ١٩٥٠

كل المدير المقترحة من أجل تعديل حذري لعلاقات مع العالم الثالث تنحى إلى تحرير العالم الثالث من عبودية سوق العالمية المتكاملة (كما يفهم ذلك القادة الغربيون) التي هم ضحاياها الرئيسيون.

بالنسبة إلى هؤلاء القادة، ثلثا الإنسانية عاجزون عن الوفاء بالتدبير، فهما رائدان عن الملزوم.

لقد يتنا إلى أي نقي للوحدة الإنسانية تقود وثلة السوق.

نحو ٣٥٠٠٠ طفل مايزالون يموتون كل يوم في العالم (ومعصمهم من العالم الثالث) من اصطلاح أمراض يمكن تعاديلها بسهولة أو يمكن شفاؤها، أو من سوء التغذية. نحو ٦٠٪ من الوفيات تُعزى فعلاً إلى أمراض ثلاثة: شهاب الرئة والإسهال والحصبة

إن نقص الفيتامين أ يهدد بالموت والأمراض الخطيرة والعمى، ١٠ ملايين طفل في العالم (إن ذلك النقص يحمل العمى إلى حوالي ٢٥٠٠٠٠ طفل سنوياً).

وكما أن نقص اليود يهدد بملير شخص ويظل أحد الأسباب الرئيسة لتخلف العقلي في العالم، في حين أن كمية اليود الضرورية لحياة إنسانية تحتويها ملعقة قهوة. واحتث هذا النقص يكلف ١٠٠ مليون من الدولارات، أي مايعادل ثمن طائرتين مقاتلتين

لتقليل عدد وفيات الأطفال الذين هم دون الخامسة إلى الثلث، وتقليل نسبة وفيات الأمهات إلى النصف، ولتوفير المياه الصالحة للشرب ووسائل النظافة لكل أسرة، ينبغي لبلدان الشمال أن تحوّر ٢٥ مليار دولار أكثر مما أنفق على النمو. وهذه المبلغ أقل من المبالغ التي يخصصها الأوروبيون في سه شراء الخمر، والأمريكيون لشراء حقه.

هناك مثال أشدّ أسراً للنقص: لقد كانت الصحراء منذ بضع ملايين من السنين غابة. ومن الممكن لإرجاعها خصبة من جديد، من فاكور إلى مقديشو، وإنهاء المجاعات في إفريقيا

ويحتاج رؤها إلى ثلاثة أنواع من الأشغال:

١ - سدود مضائية «صغيرة»، ولاسيما عند محيط الصحراء، لتجميع مياه فصل الأمطار.

٢ - استخدام حقول انداء الجوفية. وهي قليلة العمق وبالتالي قليلة الكلفة

٣ - الوصول إلى «الجيوب المتحجرة» الهائلة المحتوى. وهي جيوب عميقة لكنها أقل عمقاً بكثير من الحقول لترولية في حاسي مسعود حيث يبلغ عمق الحفر ٢٠٠٠ متر.

إن كلفة مجموع هذه الأشغال التي يجب أن تتقدّم يُقدّر الاختصاصيون بمليار دولار ونصف. وهذا هو سعر حامية طائرات مع طائراتها الـ ٨٦ من طراز رافال. وهو أقلّ بنحو مئة مرة من مجموع الاعتمادات للتجهيزات العسكرية التي نصّت عليها ميزانيات فرنسا من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٠ (من ٦١٣ إلى ٦٢٠ مليار فرنك حارح التصحيح) أي حوالي ١٥٠ مليار دولار). ومقدرة أخرى إن البقعة التي يسمي أن تُدفع لإحصاء الصحراء تُمثل سندس ماقدمته الولايات المتحدة من أسلحة سبلان التنمية في ١٩٩٢ (١٥ مليار دولار)

تحوّل الغرب:

إن «النمو» معناه العربي هو خلق حاجات جديدة، حتى لو كانت حاجات مُصطنعة ومُهيبة. والمثال النموذجي اليوم لاقتصاد التبريد هذا هو هذه الهجمة على الأدب الالكترونية. «هو تقدّم إنساني أو يصل امرء إلى رتبة فداة تلفزيونية دولية؟ أن تقدّم لأساناً ألعاباً الكترونية ذات حركات تفاعلية أكثر تطوراً من «نشدوة»، ولها يستطيعون أن يشاركوا في حرب أو في اغتصاب جماعي.

أن يُوقَفَ العالم على قدميه من جديد يعني أولاً أن تُعاد إلى السوق وظيفته الحقيقية التي هي أن يكون موضعاً لمرور الحاجات المادية والروحية الإنسانية الحقّة، وموضعاً لإرواء تلك الحاجات

ويطلب ذلك، كعملية أولى من عمليات التصحيح، نهضة حققة للإنسان، تحويلاً لمجموع جهازنا الإنتاجي، أمثال الأكثر إثارة هو مثال صناعة التسلح التي تمثل اليوم ٧٪ من الدخل القومي الفرنسي الإجمالي والتي تُعطي فرنسا المركز الثاني لثالث، يأتي للأسلحة في العالم بعد الولايات المتحدة وروسيا.

إن عمل البحث العلمي بلغ حدّاً من اشدة والموت بحيث أن كثير من المراكز لديه ليست سوى فروع تُساعد مالي، في جميع مجالات، من الفيزياء إلى علم الأحياء، ومن علم الفلك إلى مقاومة الموت أو إلى الكيمياء. وكأن البحث من أجل الحياة ليس سوى مادة ثانوية بصعاب الموت.

أما عدد الذين يعملون، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من أجل الحرب فقد بلغ من الكثرة بحيث أنه يُحتج أحياناً بحجة البطالة للإبقاء على هذه الترسّات وملحقاتها النشطة ومع ذلك فكم من أجهزة لإراعية للعالم الثالث، كم من وسائل نقل غير معهودة، كم من تقنيات لجمع البقايا المعدنية من أعماق البحار، كم من أجهزة تبديل طبيعة علمية، كم من وسائل للتفتح الإنساني، يُمكنها أن تُنشأ بهذه الصناعة العقيمة!

إن حيوشا التي آل بها لأمر اليوم، هي وسادها من حطب لأطلسي، أن تتساءل: عند أن احتضت من أفقها الدريشة السوفيتية: ما المستقبل؟ من الذي يهتدأ؟ وضدّ من ينبغي أن تنظم دفاعاً؟ إلا إذا كان ذلك من أجل عمليات استعمارية لاحقة مع مقاومة من الداخل، أو من أجل قمع داخلي محتمل.

لكن صناعة التسلح ليست الصاعه الوحيدة التي يجب تحويلها فهناك معالجات مؤدية مثله لأنها تهدف إلى محاربة الفكر، ولا سيما «الدعاية»

التي تلعب دوراً صارَ وحاسماً، في إثارة المخاضات كل شيء بحري، في المجتمع الذي تلعب فيه الدعاية دوراً محزناً، وكأنا نعيش بحسب مبدأ مسطواني أنيب الذي لايرعى سرعة الإنسانية والذي قصصه أفلاطون قديماً: والخير أن تكون لك أقوى الرغبات الممكنة، وأن تعثر على الوسائل (أي كانت) الكفيلة بإشباعها.

هذه الدعاية لاكتفي بالنهم غابيت بأسرها من أجل كرمات الكذب وقوائمها: إنها تلعب دوراً حاسماً من أجل تمويل الصحافة والتلفزيون وبالتالي من أجل توجيههما، وحتى في الإغلاء السياسي للأفراد مضهرهم أعظم أهمية من المشروع والحجج.

وهكذا تفتح سوق جديدة لصنع صورة فائز بوسطه مستشدين على اتصال به. ويُقدَّر متوسط الكلفة لصنع هذه الصورة في الولايات المتحدة بحوالي مليوني دولار. إن اقتصاد السوق يخلق هكذا سلطة جديدة للسلطة الإعلامية مؤلفة من الثلاثي المشؤوم: رئيس مؤسسة الاتصال، ومقرر التلفزيون ورئيس الحزب السيامي إن هذا الإعلام يغدو بذلك الاسم السياسي المستعار لوحدة السوق.

لم تذكرها سوى مثالين رئيسيين (التسبيح والدعاية) من صناعة الأشياء غير المفيدة، ولعلنا نجد ألف مثال آخر. تلك هي المراحل الأولى الممكنة من أجل جبهة إنسانية حقيقية متقدمة.

- التوجه الحاسم نحو وحدة سمفونية للعالم بالتعبير رأساً برأس لعلاقاتنا مع العالم الثالث.

وبصورة منطوية مع ذلك التوجه، رفض وحدة امبراطورية لمصلحة قوة علي ندية تنه العالم القاتلة وتهاجم منها.

- تعديل لمواقفنا، حيث التحول إلى «الواحد» وتطوير الفكر الخلاق يولدان، قبل كل شيء، من تحويل إنتاجنا، ومن ربط مدة العمل بالإنتاجية.

وهكذا نستطيع أن نجد يادير تلك الأمية التي مرت عليها آلاف بسير، أمة حكماء الحكماء لي تحبها أمة الكسبه بهذه الصيغة الرفعة: صاو الله إنساناً لكي يستطيع الإنسان أن يصير إنساناً.

إلى أي إله نحن محتاجون؟

الإيمان والعقيدة:

إن السؤال الذي طرحه القس «بونهوفر» قبل أن يُعدمه هتلر منذ نصف قرن، سؤال واهٍ أكثر من أي وقت مضى: كيف يمكن أن نتحدث عن الإيمان إلى ناس لا دين لهم؟ أم يمكن أن يكون هناك مسيحية دون دين؟

جميع الديانات، حتى يسوع، جعلت من القدرة، من القدرة الكلفة الصعبة الرئيسية لله، سواء أكان الإله «زوس» أم «يهوه». قدرة خارجة عن الإنسان تحكم مصيره وتوجب طاعته.

وما هو ذا الإنسان اليوم قادر على أن يُنجز تقريباً كل ما ظن قديماً أنه تجديف من الناس أو معجزة من الله.

يمكنه أن ينني برج بابل، يستطيع، مثل الله، أن يلغيه صاعقاً، في مدى لحظة.

يمكنه أن يطير كاللائكة.

وهو لم يعد يرفع عينيه إلى السماء مُتصرباً إلى إله جالس على عرشه وراء القبة السماوية المسطرة بمسامير النجوم المذهبة و «ليكن نور» أصبحت شيئاً يومياً: بشر النور وطرد الظلام حركة جعل لرو كهربائي. ويستطيع الإنسان أن يُدبر العالم بمخروته من آلاف القابلات الفيزية. قد

نقول: وحقن الكون؟ ها نحن أولاء في قلب امسألة الأولى: أيكمسي أن أتصور ذلك الخلق، سواء أكان في سبعة أيام أم في حركة واحدة مباحية دون أن أبحث عن قبل لذلك «القبل» الأولى؟ أليس الاسم الذي أطلقه على جهلي الأولى والمقترون بهذا اليفين وهو أنني لم أخلق نفسي بنفسي، أليس هذا الاسم هو ما أخفيه مع صور إنسانية مسرفة في إنسانتها، مثل صورة انفاخوري أو الملك؟

أليس وعي هذا القصير الأولى وذلك العباب؟ هو الإيمان. أليس رفضاً لجواب بديل عقلاً لأجواب له، ميثولوجيا الخلق السادجة انطلاقاً من لاشيء، وكان للغة عدم نفسها محتوى ومعنى؟

لا يمكنني مع ذلك أن أتجنب هذا السؤال الذي لأجواب له. لأن الغرور ضد التعالي، وهو يردني إلى آلهة القوة: إسي أسقط عجزى وأجمل منه يحيي روس، يهود، أو الإنسان المدعي الذي يحسب أنه إن أعلى موت لأهه يكون وارث لها.

فما له من وراث مسكين قاب. لأن الموت حاصر، الموت الذي أستطيع أن أنكره لأصاهي تلك القوى التي هي إسقاط سماوي لعجزى.

يقول القس بنهوفر: المسيحية هي الدين لوحيد الذي إلهه عاجز ولأول مرة أمكن للناس أن يعكروا، وهم يرون إنساناً يموت، إنساناً من أكثر الناس عزداً إنه الله. وأول إله حقيقي، لأنه لا سلطة له، إله مختلف عن جميع لأهه عدسه، مُصنعه القسوس و «رب الجيوش»، الذي أسقطه خالهم في السماء للتعويض عن ضعفهم وحده.

كس هذا الإيمان الذي يهز عراً والذي يرمي بجميع أهة اقوة القديمة الرائعة إلى سحرية السحر، لا يمكن أن يترشح برشحاً عربصاً لدى شعوب، يهودية أو يونانية، خاصة منذ أقدم الرمن لرب الجيوش والصواعق

ولقد حوّل القديس بولس، معاصر يسوع، معنى موته الحقيقي حين جعل من قيامته معجزة قدرة الله القديم، لا كما كانت وكما هي: تحوّلًا جنرياً لحياة الذين يؤمنون بها.

إن اليهودية التي أصلحها بولس تُعيد سلطان «رب الجيوش». لقد قوّل يسوع، بعد موته عكس ما أعلنه طوال حياته؛ جعل منه إلهاً كلي القدرة ميعود «مع ملائكة قوته» (الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي ١ - ٧) وهو ينسب إلى تجار التواضعين تاج دلود الملكي، هذا القائد للمرتقة الذي روى صموئيل مآثره الدموية وغدوره. لقد جعل منه رسول «رب الجيوش» الذي آثر ليشوع النصر ليستأصل شعوب كنعان. (أعمال الرسل ١٣ - ١٩)

كان لايد من فرون وقرون من الكفاح ضد السلطات وحليقاتها من الكنائس واثرة الامبراطورية الرومانية، لكي لأثلوث رسالة يسوع بصورة يسوع متصير ومتقمم، لتعطية جهلنا وعجزنا، ولكي يحيا الإنسان حياة جديدة دون مسحر، راذاً إلينا مسؤوليتنا التي لأحد ولاعزاء لها.

إن «جواشيم دي فلور» هذا الراهب الكالابري في القرن الثاني عشر، هو الذي يكشف للإنسان رؤية ماهو الإنسان المسكون بالله، ويعلم عن نهاية مملكة الآب والشرعة، والابن الذي صادته الكنيسة، من أجل بلوغ امتلاء الروح، الروح التي بثر بها يسوع، يسوع الذي لا ملك له ولا سلطان ولاكنيسة. فمتد يسوع تجاسر الناس على أن يعيشوا حياته الربيه، دون أن يؤمنوا بالنجوء إلى الوعود والمعجزات.

إنهم مسكونون بالله أي بالشعور بكل مايقصهم، الشعور الذي لأحد لمسؤوليته، بقية سداً ذلك النقص.

هذا الإيمان هو الذي حمل الأب «شيره» على القول: «إلهي إنسان»، وحمل القس بنهوفر على القول: «إنه لم يعلن عن دين جديد... لقد

كان قدوة للإنسان الحر كليا، حتى عندما يكون مجزأاً من أية فئة. لا يبعد أبداً مسؤوليتنا لكاملة.

إن يسوع - كما كتب بونيهوفر - يقترح علينا أن نحيا طريقة جديدة للحياة دون أن ننصر سداً خارجياً، وأن نموت بلا وعيد ودون مبادلة حياة أخرى بحياتنا. وكتب: «أن يكون الإنسان مسيحياً لا يعني أن يكون متديناً. بل يعني أن يكون إنساناً». يسوع لا يدعو إلى دين جديد، بل إلى الحياة، إلى حياة مسؤولة كليا.

وعندما يطرح السؤال: «هل يمكن أن تكون هناك مسيحية بلا دين؟» كيف تعدو لعكره التي تكتبها عن الله على فرائض أو الرد إيجابياً ويهيب بيهوب. «إله المسيحيين بلا فسر، وهذا ميصع أصالة وقوته» وهما بالذات إسمهما لا بدليل له في إيمان جميع الناس ذوي الإيمان الذين يريدون تنقية عبادتهم من كل معتقد سحري.

المعتقد ايدولوجية، وهو الموافقة على بعض التصورات عن أصل العالم، وعن انقبوى العليا لبي تفوده، وعن حياه بعد الموت، وعن عقاب الخجيم أو ثواب الجنة المنتظرين.

والإيمان فعل، وهو قبل كل شيء مسلحة، خيار، وهاء، يوجه حياتنا كنها. هل للعالم وحدة، ومعنى، وكأنه عمل فني لا يبي يولد، مع مستقبلي نحن مسؤولون عنه؟ إن وعيد لأخص ما في من حبيبة يتلاقى مع مركز الكل، كل الحياة. الإيمان هو «القرار» المتجدد أسداً، بالتوحد مع ذلك الكل.

والله الذي نتحدث عنه ليس إله المعتقد بل إله الإيمان؟

من الصعب، في حالت، لتعريف يهيم فكك ديني، كل شكلي للتصير عن الإيمان بصفة ثقافة ما، مرتبط كثيراً أو قليلاً برؤية للعالم

يتصور تمثل العالم المرتبط بثقافة ما مع المعرفة، معرفة العلم والفن. يتعدى الإعد بالصور والرموز، ويعد من ثم، ويتعد مع معتقدات، دينا، والخطأ ليس كثيراً حين لا يخلط الواقع بالنقط أو الاستعارة، والرمز الخازن، والتاريخ بالأساطير، واليقونة، وهي علامة على ما يتجاوزها، نوحس الذي يخلص اللامتناهي إلى المتناهي.

لأرب أن الإيمان، مهما يشأ أن يكون نقياً خالصاً، لا يمكنه أن يحيا في جو مخلخل للعالم بلا صورة. يكفيه فقط ألا ينسى أن المعتقد، العفيدة أو العفوس، والمؤسسات والتراتات، موقنة وسيئة، ولا غدا «دين» استلاباً للإيمان» كما قال «بول ريكور».

الإيمان واحد، وهو لا يتعصب عن الحياة ذاتها في انتشاره.

الديانات والمعتقدات متعددة كالثقافات التي ولدت تلك الديانات والمعتقدات فيها وهي تاريخية، بمعنى جزئي، وهي ليست حقة إلا إذا كانت وعية بنسبها ولحاجة إلى لاعاء بخوار مع وجهات نظر أخرى عن العالم وباريحه، كي لا نعد أزمات الثقافة التي فيها تعتر عن نفسها أمة الإيمان

الديانات، من الناحية التقليدية - جصع الديانات - دعت الله كائناً بعصي حيواتنا الشخصية وحياة الجماعة الوصايا الضرورية لمسحها معنى

أما الإلحاد فقد اتخذ، على العكس، شكلين لمعارضة هذه الديانات: الأول هو رفض قبول الصورة التي كتوبها عن الله هذا الدين أو ذاك ب. مسيحي روما مثلاً، شقوا كفاراً لأنهم أنكروا وجود الآلهة لأمطورة

ومنذ عهد أقرب اتحد الإلحاد شكلاً ثانياً. لقد أنكروا، في منظور

فرداني، أن يكون حيواتنا الشخصية وتاريخنا المشترك معي يقول كما هو
والحياة عتة ويعود سائر الإنسان هو الكثر يدي يريد أن يكون الله.
لكن فكرة الله متناقضة. الحياة إذن هي عتة.

إن الجزء الأعظم من الإنسانية اليوم فقد آلهة الأسلاف، حتى الإله
النوراني، إله العهد، رب الخيوش الجزء الأعظم يطرح التأييد، أي كبر
صورة أو فكرة لإله خارج عن الإنسانية ونخالتي لها، كما يطرح كبر
حضور غير منظور يمنح الحضور المنظور وحدته ومعناه، كنتاج الإنسانية.
في «مدينة» كلوديل يقطع «يعور» غير المؤمن «كوفر» المؤمن الذي
يعطى سم الله. «كنت أنظر مث هذا الاسم الذي تعبر عاماً بالسلطة
والظلم وأسرف».

إن لفظة «الله» فارغة إذا قلصناها إلى مفهوم. الله هو حقيقة الإنسابة
الكنية، إذا رأينا في الإنسان الحي الوحيد الرابع رغبة واعية في أن يمج
حياته والعالم ومستقبله معني.

عن طريق الاستعارة من الفلسفة اليونانية إما وجدت في اللاهوت
المسيحي، هذه الفكرة وهي إمكان البرهنة على وجود الله بالحجة
المقنعة، وكأن الإيمان ليس «رهاناً»، ليس التراماً بمحض حياة، ليس
مسلمة. وهذا لا يعني شيئاً أنه فعل أعظمي. فكما أنني يسعى لي، لكي
أبني عقاراً أو جداراً ثابتاً أن «أفعل كما لو أن» لمسلمة أقلدس قيمه
مصنعه، فكذلك يسعى لي، لكي أعطي حياي معني وتماسكاً، أن «أفعل
كما لو أن» العالم واحد وأنه تمتد لوحدة منسجمة. التأكيد هكذا أن
نعلم معنى مسلمة مشتركة بين جميع الديانات وكل حكمه حكماء
وقولنا: الله، إعلان لهذه المسلمة، لهذا الإيمان، لكن لاشيء يسمح لنا
«بالبرهنة» على صبروتها وحقيقتها.

إن لفظة «الله» لا يمكن أن تكون غنية بالمعنى لا بحد القاس لدى

وعم أنه يبرهن ما عن وجوده، ولا التجربة الخاصة، إدانة به الواقع
حلي أو لا شيء.

الصعوبة ليست في إدراك هذا الواقع الكلي مع الشعور بشأه بل في
استشفاف إمكانه على الأقل، وهو وحده يمكن أن يسبح لنا المعنى على
ذلك التناهي.

إن تاريخ الإنسان تاريخ تكون معدمة واحدة ووحدة. وبكي نعيش،
بمعنى بالضرورة أن يتم تجاوزها وتحريرها - مهما يكن هذا التعبير ظاهر
سافر - مثل تاريخ الله حيث فقط، وبه الأثر الكلي، وهي معدمة
حيث لا تعجز الحياة، يكف اللاهوت عن أن يكون حرة ليبريه

إن الله لم يجعل من نفسه مسيحياً ولا يهودياً ولا عربياً، وإنما جعل من
عنه إنساناً

ولنسترد من التجارب التي يشارك فيها الجميع، ومن تلاقيها
تجرب، للاقترب من ذلك السر، ولانفتاح تناهيا على اللامتناهي.

ليس من إله «في ذاته» نستطيع أن ننظر فيه أو نحرك على طريقة الذين
صنعوا بالمفاهيم أو ثنائاً جديدة فكرة الخير، من وراء الأفكار الأخرى، أو
«الكنائس جميعاً» أو «المحرك الساكن»...

يمكننا فقط أن نحاول القول ما الله بالنسبة إلينا، وما علاقتنا بالله. وإذا
«مكن الكلام عليه على طريقة الأشياء» فلا أرى فيه إلا ما يكشفه لي
سائر، إنسان إلى حد خلوه من كل رغبة جزئية، من كل تعلق بما هو
خاص به، وتلك خاصة تتراءى في أفعاله وكلماته، وهي المتطلبات
«وحدة للكس، كنه الإنسانية، خلافاً لمردبيت ونباتات وجميع
«عائتها».

وهذا ما اعتبره حين يقول إن الله صار إنساناً في يسوع، فكشف لنا

جميع أبعاد الإنسان: بُعد الإلهي، أي علاقته بالله؛ بُعد الكوني عندما تغلب الطبيعة بأسرها جسداً له، فيما وراء هذا الكهس الجلدي الذي يصنعه، وبُعد الجماعي عندما يحس كل واحد شخصاً بأنه مسؤول عن مصير كل واحد من الآخرين وهذا ما يُسمى المحبة. أو يُسمى الله.

إن عدم «غيرية» بُعد السببية ونظرية الكميات بشكل صريح من الاستعارة أو مثل لهذه الرؤية، رؤية محبة العالم بالنسبة إلى ديموقريط أو لوكريس كانت الذرة (الترجمة اليونانية للفرد) غير قابلة للانقسام، لبنة من الكون، لا يجري في داخلها شيء، ومفصولة عن السرت الأخرى بمراع أقما ما يسميه لفيرياثي اليوم «جزيرة» فهي، على العكس، عقدة من العلاقات، واقع فريد، مثل موجة، تسكنها جميع اندفاعات المحيط، ومن ورائه جاذبية القمر في مده وجره. جذورها تمتد إلى تخوم الكون. موجة بلا حدود في محيط من الصاغة لاضاف له. كذلك الإنسان. هو مسكون بجميع الآخرين. إنه جميع الآخرين.

لا شك أن هذا المثل يحتاج، حتى الدوار، الشعور بالتعاضد الشامل لكل شيء، بتسويته، بوحدة الكنية لا الفردية، وبالديمامية التي لانهاية لها والتي تبحث فيه الحياة.

لكن يجب ألا تكون هذه العلاقة علاقة معروضة تُعانيتها بل علاقة تُريدها. إن الجزيرة الإنسانية لا تمزج جذورها إلى لانهاية العوالم فحسب، لكنها نعيمها. وعلاقتها مع الكل لا يحمل منها واقعاً فردياً بل شخصاً متصلاً بعمور المحبة مع كل مالمس هي، لكنها تحتوي ذلك الكل ويحتويها.

هذه الاستعارة لها على الأقل الفصل في إظهار أن الفرد «الذرة» ليس سوى تجريد. أما الشخص فهو العكس. خصوصية بلا ريب، لكنها حاملة لكل في ذاتها، حاملة لكلية بلا تخوم، بلا حدود العلم وجموده.

إن التأمل في شخص يسوع ذلك، أي الإنسان في امتلأه الإلهي، هو «لاهوت الوحيد الممكن». إنه يستبعد جميع أشكال «النألهية».

من وراء اللاهوت المدرسي القائم على الميافريك اليوناني، «اللاهوت» (أو صمد اللاهوت) الوصفي، المنصور على تاريخ الوقائع. علاقاتها، واللاهوت الوجودي الذي لا يستطيع أن يتخلص من الذاتية، «اللاهوت الليبرالي» المسهب في شرحه «الكذب»، أو اللاهوت السياسي الذي يحاول أن يضيف إلى الماركسية رعاة من التعالي، «إن مسألة (الإنسان) هي الموضوع الأساسي لللاهوت الأساسي» كما قال «كارل ماركس».

وأعلى الأب «شيو»: «إلهي إنساناً». وكان «كارل بارت»، الذي ردهم بعضهم بتسمية مذهبه: «الحادية دراسة المسيح» لأنه كان يؤكد أنه لا يستطيع أن يعلم شيئاً عن الله خارج المسح. كان يستبعد كل تمثيل أسطوري أو ميافريكي لله وكل نصر هيبي.

يقول التقليد «المسحي». إن الله صار إنساناً، وهو بذلك على نقيض «عائيد اليهودية واليونانية». بالنسبة إلى اليهود لم يكن يُعقل أن الله، الذي «يكلموا» يحرقون على ذكر اسمه، يمكن أن يتحد له ثوباً إنسانياً. أما بالنسبة إلى اليونان الذين يأخذون بمكرة كون الله غارحاً وداحلياً، فلم يحل مستبعداً أبداً أن تخطر لأحد أذهانهم نزوة الشكر بزي إنسان حتى لو كان ذلك من أجل أن يتغمس على الأرض في مجونه.

التجسد المسيحي شيء آخر: ليس تنكر اليونان. وهو لا يتفق أيضاً مع تعالي «المتخلف كليا» اليهودي: لقد مات الإله الثوراني في يسوع مع جميع الآلهة القديمة. كما كتب بقوة الأب كاردونيل «مات الله في يسوع».

لقد صار الله إنساناً.

الله الذي صار إنساناً؟

صار الله إنساناً كنيماً. يستطيع الإنسان أن يصير إلهاً. كما كتب القديس «إريافوس»، ومعه دراسة آباء الكنيسة التي أذنت بقطع الصلة التي تحسبها عبارة «اليهودية - المسيحية».

وإذا يسوع يهودياً كما كان يستطيع أن يولد هدياً أو أسود لا يمكن أن يوجد إنساناً بشكل مجرد في نوع من اللا إقليمية الروحية بحيث يكون في العالم دون أن يضع قدمه في نقطة من نقاط هذا العالم.

إن الحصة بقاتل الذي يمي كل شمولية. كل «كاثوليكية» لرسالة هو أن تُمنح روح الله في الإنسان إلى نقطة وحيدة منه هو «يهود الأرضي» وأن تأتي فهمه إلا انطلاقاً من الثقافة لوحده التي تجلت فيها الرسالة الموجهة إلى أرض الناس كنها، في لغة كل منهم وثقافته.

يقول الأب «كاردوسيل» اسم يكن في هذا الإنسان شيء غير موجه إلى الجميع.

نقد رفع القديس غريغور النيسي (مات ٣٩٤) رسالة آباء الكنيسة إلى نوحس، فكذب «إن له الذي أعلن عن صب احتفظ بصيغتنا القابلة للمساء لكي يؤله الإنسانية إذ يجعلها تشاركه الألوهية».

ولكي تحتفظ الرسالة بشموليتها يجب تحليلها من التعبير الثقافي الذي تعطيه التقاليد اليهودية عن الإيمان الأساسي.

لقد حطّم يسوع كل محرماتها

لقد تحدى جميع الشرائع، الشريعة «في ذاتها» مع محظوراتها. إنه لشدة بالفرح، الشارة «عطيات الجبل» أي هي نقيض الشريعة تحرره دعوة إلى المحبة، إلى المحبة التي انطلاقاً منها يحقق كل عمل معبره الدلحلي.

لترك يسوع بلاميده يحسون القمع بعدائهم في اليوم الذي يحرمه السبب كل عمل، أو ليخرق محرم الشريعة وهو يشفي مريضاً بالرغم من الحظر، إن رفض الشريعة الخارجية يجهر به عن غمده: «لقد وجد السبب من أجل الإنسان، ولم يوجد الإنسان من أجل السبب».

ومستند النظر في الأخلاق التقليدية بقلب القيم: «إن العشارين والروائي يسقونكم إلى ملكوت الله» (متى ٢١ - ٣١). أما توضع الله في مكان مقدس، مكان تابوت العهد أو المعبد فقد أعدت إلى الأبد: «أستطيع أن أهدم الهيكل وأن أعيد بناءه...»

لا يمكن لسحر أو الحشب أو الغضار أن يحتوي ذلك الحضور في حين نحلي ذلك الحضور في قلب إنسان يسكنه الإيمان.

من السهل الاستكثار من أمثلة هذا الانتهاك الإرادي للشريعة، نهجي، حول العلاقة بالمرأة والأسرة والسميرين وجميع محرمات الشريعة اليهودية.

لكن من الخطأ أن نجعل من ذلك هدفاً له، أن نجعل هدفه بقي الدين اليهودي مثلما أن من الخطأ أن يرى فيه يهودياً، وحتى يهودياً نموذجياً،

لأنه كان سيحارب بالقوة نفسها جميع التحجرات الدينية وجميع المحظورات لطقسية، في أي دين آخر، سواء أكان ذلك سد مسودي الهند، أو بعض صنوف السحر الأفريقية، أو الحروب المقدسة ليهود الأمريكين، أو التطبيقات المزعومة للشريعة على أيدي المطبقين الحريين الذين خلطوا من التقاليد السلفية لشعب وبين الرسالة الشاملة التي تُعرف الشريعة بأنها تقانون الإلهي المشترك بين جميع الديانات وجميع حكم الحكماء.

وبالمقابل فهو يُعيد بناء جميع القيم السابقة ويحولها، وذلك بتأكيد حياة الكلية.

إن الإنسان، في جميع الديانات، ولكي يتبين معنى حياته والتقواعد التي تصنع تماسك جماعته، وهب نفسه أفعاء، مُفَصِّصاً، فيما وراء ذاته، صورة الهته. كانت حياة مقرر إلى حدود أسمى مسائل الإنسان، وكانت حياة أحر قوة غير مرئية ورهيبه. وكانت، حتى وهي في شكل وثني يركز تلك القوة، حافراً محمّكاً وقاعدة للسلوك.

هذا هو الجزء الذي لا يتحضر من حقيقة أطروحة فيوريانغ: الإنسان صنع آلهته على صورته.

ولكي نقصر على مثال واحد ولا نتحفظ إلا بأفقر مصطلح لهذه القصيدة الإلهية الرحمة، في الكتب المقدسة الأولى للهندوسيين: «الفيداء»، بحثن «مشوه» العالم ويؤمن صيانه. وفي كل مرحلة من اتفكك يرسل إلى الأرض أحد «تناسخاته»، لتحشد لبشرى بطل أو إله يؤتمن ولادة ثانية للناس أو بقاء لهم إذ يجمع حياتهم من جديد كمال المعنى، بالعبادة الورعة التي تُلهمها أوضاع وأعيان البقر، الرمز الجسدي للاتحاد الصوفي بين الإنسان وإلهه.

إن «رام» وهو تجسد آخر لـ «فيشنو»، نموذج «عروسة أبدية» للشرف المطلق، وللوفاء الذي لا يحول ولا يزول، للوفاء للحب وللقتال في سبيل عالم جديد بالله.

وإذ كنت مسافراً دائماً للاهوت الأب «ريجون بانيكار»، ولأسماء كتابه: «الثالوث والتجربة الدينية»، فأنا أعتقد أن هذا الإسقاط، إسقاط الإنسان لإله على شبهه، هو السمة الأساسية لجميع الديانات بما فيها ديانة العبرانيين الذين يزدن أنبياءهم، مع ذلك، معاده أوثان على أنها الخطئة العظمى.

لاشك أن هناك فرقاً لاتزاح فيه بين أوثان الشعوب المجاورة للصنوعة بيد الإنسان وبين إله اسرائيل غير القابل للتمثيل.

لكن هذا الإله، كما أظهر الأب «بانيكار»، الذي هو حقيقة غير مرتبة والحجة بالنسبة إلى اليهود، له مع شعبه العلاقات نفسها التي للآلهة الكنعانيين: وهذا السائل يجعل من يهوه إله «عبور» (سفر لشيه - ٥ - ٩ - ٦ - ١٥) تخصصاً للآلهة الأخرى، بحيث أن من الخطأ القول. إن الوحيد وُلد عند الشعب اليهودي. لقد ظلّ زمناً طويلاً متعدد الآلهة: وظلّ اسم الله في صيغة الجمع «إيلوهيم» قروناً بعد أن محا فرعون مصر، «أختانون» صيغة الجمع لاسم الله من واجهه المعدد جمعاً غير معترف إلا بالله واحد، سيد حياتنا الشمس التي تُهض كل صباح أساس وقمع إن «رموز ١٠٤»، مثلاً، هو شرح مسهب وحرفي أحاد كـ «شيد شمس» لأختانون.

إن ما يجعل يهوه «عبور» أنه في تابوت عهده حيث يُعند دون صورة، يلقى الملائح نفسها والتصرعات نفسها التي يلقاها بعل الكنعانيين. وهو لا يكرها، وإنما يطلب فقط ألا تُكرّم وألا يُطبع عبرانيون «الشعب المختار» من قبله، ألا يطيعوا سواه.

إن أعرق طابع لعبادة الأوثان ليس شكل تمثيل الله، بل موقف الإنسان الذي يعزو إلى الله قدرات الكائن البشري وصفاته. يُصلي العبرانيون لآلهتهم كما يصلي الكنعانيون لآلهتهم.

إن المسيحية، بدءاً من القديس بولس، معاصر يسوع، ومحور الرسائل من خمسة عشر عاماً من أول الإنجيل من الأناجيل الأربعة متوافقة بشمعة بالتراث اليهودي وبصوره الخارجية لله الذي يدير من الأعالي شؤون الناس.

يستحضر بولس، لتمثيل خلق الكون، صورة الفاحوري (رسالة إلى أهل رومية ٩ - ٢٠ - ٢٢) مردداً هنا عبارات سفر التكوين (٢ - ٧)، وحكم العالم، صورة فرعون (رسالة إلى أهل رومية ٩ - ١٧) الذي يقول

عنه سمو الخروج (٩ - ١٦) أن الله أبقاء في سلطانه ليظهر وهو يتحداه ويغلبه أن قدرته فوق قدرة فرعون.

وبالرغم من تنقية هذه التمثيلات التجسيمية لله من قبل الأنبياء يكرر أشعيا بلا كلل صورة الفاحوري يستحضر صورة الخلق الإلهي وحضور الإنسان (أشعيا ٢٩ - ٤١٦ - ٤٥ - ٦٤ - ٧) كما يفعل أرميا تماماً (١٨ - ٦). أنتم في يدي، يا بني إسرائيل، كالفضار في يد الفاحوري، أو مثل أيوب: «أنت كؤنثي مثل الصلصال» (١٠ - ٩).

المسيحية، مع بولس وتلاميذه، امتداداً لرؤية العالم في العهد القديم. لا يحتفظ بهذا التصور الخارجية لله التي تعاقب وتغير، وتصدر الأوامر، بل وتعهد بها إلى مؤتمن بعينهم دون غيرهم، كما كان يعهد بها قديماً إلى كهنة المعبد.

والحق أن من الصعب، خارج الاستحسان المتعسف الذي تم لهذه الخارجية وتلك القدرة الكلية، من الصعب أن نخليهما من الحضور إخلاء تاماً.

إذ كيف سيكون ذلك الحضور بالنسبة إلينا لو أننا لم نعد نستطيع من جراء تصور جنسوي لخالقنا وأخر مختلف كل الاختلاف، غريب كل غريب، دون أي شبهة، لو لم نعد نستطيع أن نحاذر أية صفة مع ما يتحاذر. كما يتحاذر المصطفى الواقعة؟

الأسطورة والتاريخ: من الأيقونة إلى الوثن.

ذلك الله، ذلك النداء، لا يمكن أن يكون حاضراً لنا إلا بالمثل، ولا نستطيع أن نستحضره إلا بالاستعارة. لكننا نستطيع على الأقل، بهذه الطريقة، الانتقال من الوثن إلى الأيقونة. الوثن شيء نزعهم أننا نتخذ الله المقدس فيه وكأن شيئاً متاهياً يمكن أن يحتوي اللامتناهي. أما الأيقونة فليست، على العكس، سوى «علامة» ترجعنا إلى ندائها يتحاذرها وهي ليست سوى رمز له

هناك أعمال فنية هي، بقدرتها على استحضار المعنى، هي لنا مداوخ نصيران من أجل تجديدها ذاته. إن «أيقونة الثالث» - «روبيع» - «ساعدي» على الأقل، على أن أعيش وأن أشعر أن ما أدعوه الله (سبعة لمعان) ليس كائن، ولا حتى شخصاً، لكنه جماعة، من خلال تصوير ثلاثة ملائكة موحدين على كأس الحياة. تدخل ذلك البستان قصة حب، والرماء تحتل بطل التي فرحها.

هذا الأمر ليس فقط أمل دين حاصر، أو شعب ذي امتياز. إن ملأ سبباً من عهد سونغ، الربيع في الجبل، «كوشو» يحملني على شعور مباشرة، وفيرياً، بهذا العدد في الإنسان الطبعة ليست متكافئاً، بل تلك الطبعة، جلال الجبال تؤثر الصخور التي هي كالصخور لثقبه، ده لب الخيال أو استلاء الصواب، ليس ملكاً لهذا وحده وإنما أيضاً «حما غير المريضة» «التاوه» الذي يجعلني أتحا لكل واقع ومتواجداً مع «حياة الكل».

إن قناع العوروة الأريقي ذلك، يحسنه المجدول لغزلة تغطي وجهها سائياً، أو مقراً^(١) «التالو» برأسه «كروي»، الكوكبي، وقرب الشمس يحضرن أبداً صورة القدرة كما هي الحال في «موسى» ميكيل أنج، ليس عملاً فنياً، متحمياً، وإنما هو مكثف لطاقة، بحيث أن الرقص (الذي منذ تحت هذا القناع) يشع في كل الجماعة، ومثلها يحترقني حضور من القوى هذا الذي يجعلني «واحداً مع الكل».

كل إبداع حقيقي فهو «تجلٍ إلهي». مثل وجه إنساني. من ترجمان «أنا» إلى «أنا» عرشي، إلى الكوميديا الإلهية لدانتشي، حيث المرأة هو أيضاً «أنا» تشير لنا إلى طريق هذا الحب بتفتح الكلي الذي ندعوه، لعدم «كلمة أخرى، حياً إلهياً».

١. بحر رود يسه المقاتل تحت القوس.

نحن نعود إلى الوثائق عندما لا يميز المعنى الذي يُستدل عليه بالواقعة،
 انمر لما يساعدنا على أن نتجاوزها، وعندما نحلط الأساطير المعظمة التي
 ارتسمت فيها معتبات التي عبرها الإنسان في سيره نحو الأنسنة الكاملة،
 عندما نخلطها بتاريخ يفرص علينا، كالوعاء، مساره الصلب والحضري
 نحن نحترق التاريخ إلى السرد الوقائعي حين نجعل من نصيحة إبراهيم
 وقعة تاريخية، وكأن الجوهري ليس في أن الناس حوالي القرن السادس
 (القرن الذي ألف فيه القصة وجرى إسقاطها من ألف سنة مضت).
 اكتشفوا إمكان التصحية التي تتجاوز أخلاقياتنا المسكية ومحاكمات
 الصغيرة لكي تُعاش كجواب عن مطلب غير مشروط.

وماذا يهم إن لم يوجد أي أثر تاريخي «للحروح» ولعبور البحر، حتى
 ولا في الوثائق المصرية التي كد يُسجل فيها مع ذلك انتحار الماشية
 لسكلاً، واجياز مسافر للحدود. أفئذهل تدفق مئات آلاف المهاجرين، وهذه
 الجيش المصري، وموت فرعون، وانتلاخ البحر لمركباته...

هذه الأسطورة الإلهية أليست أكبر في مكانتها، لا كقصة ذات تطلّع
 تاريخي، بل كرمز أبدي ونداء إلى اتهام أعلى السلطات وإلى العمل على
 تحطيم القيود، قيود الأحكام المسبقة وقيود القوى، وإلى تحرير الإنسان من
 جميع العبوديات.

فما أحقر تحويل الأسطورة المؤسسة لتحزير الإنسان، الأسطورة السردية
 للهتات البشرية في جميع العصور، تحويلها إلى حلقة للعرض والمشاهدة،
 حلقة من تاريخ وحيد، صاخبة لتبرير شعب مختار وحيد من قبل إليه قبلي
 ممتزج

إن هذه المعالجة التي تهدف إلى اختزال الأساطير الخلاقية، اختزالها إلى
 «تاريخ الوضعي»، حالة خاصة من حالات عودة الأيقونة إلى وثق.

إن تجلي الإله المتزايد و«عهده» مع ملاحه إنساني يتجلى في هذه الأساطير
 التي تشير إلى مراحل تأسس الإنسان وتآله. إن جماعات لا عصر لها
 ولا اسم خلقت ملاحم تكشف عن أبعاد جديدة للإنسان. إنها تُسقط
 فيما وراءها ذاتها، كأقني للقاطلة، هيئة الأبطال الذين يحاربون السطرة
 والقوى والأقدار، فيحطمون الأوثان، ويفكرون حدوداً جديدة، مثل
 برومبيوس ورامنا، ومثل بوذا وكويتزا الكواتل. ذلك هو تاريخ الإنسانية
 «المقدس» المصوغ من الأساطير المؤسسة التي يبنيها ويرى الماضي قطعة.
 وهو على عكس التاريخ، الخطي أو الدوري، تاريخ ضروب السيطرة
 والدمار، والعودة إلى الحيوانية بمعاركه وإمبراطورياته وفاتحيه، خالقي
 العبوديات، وبقومياته القليلة وحركاته الأصولية.

هذا التاريخ الزائف كان بدله اليوم التلفزيون الذي يتعامل مع صبية
 وشيوخ، وشيوخ صبية يجعل منهم زينة المستعدين. إنه يقدم صندوق صدى
 أمواجه لشبنة اقتصرت على الصراخ به «لا الرقص العاجز» ويجتري
 السياسة السلفيين، ويتجوم السوق، وشيوخ يمتنون به «نعم» موافقتهم.

يا له من امحاء مشؤوم للإنسان من جزاء خسر الوجدان النقدي
 والهيئات الخلاقية! إن هذه الهيئات الخلاقية لما هو إلهي قد رغرعت مع
 ذلك، وهي تقاوم الظلام، الثغلات الباعصة في عصور الانكسارات
 الكبرى لتاريخ الزائف.

عندما بدأ المال يصبح إلهاً في المراكز التجارية المدنية، بهوكب شقائه،
 احتار القديس «فرانسوا داسيز» الفقير بغية الانتقال من الدفن المتحجر
 للكنيسة الإقطاعية إلى بقعة الإيمان في المدينة لدى التجار والمعلمين.

وهو رجل آخر عندما بانّت جريمة الغرب الكبرى مع الفاتحين
 الإسبان: النزعة الاستعمارية التي شتكر وتدمر ثقافات جميع العوالم:
 إبادة هنود أمريكا، تجارة زنوج إفريقيا، حرب الأفيون في الصين،

هيروشيما ولقد أدت هيروشيما اليابان بعصر احتل فيه الإنسان البدائي بمليون القليل البشرية التي يملكها أعلى امتياز له: وهي فترة المخلوق على تدمير لحقيقه. عندما بان في القرن السادس عشر، هذا العصر الكوكبي للموت، نعم، هب رجل وتكنم باسم لله، وهو اسقف «شيداس» في «المكسيك» (ولم يُعجز حتى اليوم البت في استشهاده)، «بارتولومي دي لاس كازاس» ليصرخ سنة ١٥١٥، في «فالادوليد»، في وجه شارل كنت: «البربرية جاءت من أوروبا».

وصدت الضرورات الزائفة والأقدار الزائفة لتاريخ الناس الزائف هذان وقف رجال حقيقيون يحركهم الإله نفسه الذي لم يكونوا يلقون اسمه أحياناً، أو كانوا يجهلون وجوده. وكذلك فعل متصوفون، وشعراء أحياناً (وهم في الغالب شيء واحد) ضد رجال الهمة وآلهتها.

إلهكم ليس الإله. ليس شيئاً مما تقولون عنه. هكذا سيصرخ دُعَاة اللاهوت السليبي، ليس هذا... ليس هذا... (نيتي... نيتي... بلغة أخرى، لغة الأوباشاد وساكاري) ويصرخ لقدس «جان دي لاكروا» ليس هذا هو الإله كما صرح قديماً «لاونسو» وهو يعتبر عن هذه الصرخة بتوضيح القصيدة التي تذهب إلى أنها لا تترك الله ولا تعرفه بالمعهوم لكنها تدل على الطريق. «الظلام الدامس» أو «الصعود إلى الضل» الذي به يرتفع الإنسان إلى الألوهية.

مثل هؤلاء الدُعَاة الدُعَاة إلى المملكة التي علينا أن نحققها، هم آباء عاندي، وبوثر كيم، وروم هلدري، وكذلك دستوفيسكي وبابلو نيرودا، وجميع ماضلي المعاصرة الإنسانية والإلهية على نحو لا يتجزأ، معاصرة «الاهوتي» التحزرة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا.

وعلى انتصارهم في جنونهم المقدس وعلى التزامنا إلى جانبهم يتوقف بقاء الإنسانية حيّة بمستقبل دي وجه إنساني وإلهي: ثالوثي.

تصريف كلمة الله:

غير جميع هذه «الأيقونات» الحية للآب غير المنظور، يحتفظ الإيمان الراشد بصورة الله التقليدية، وهو متعال عليها، هذا الإله الذي بدعوه تصوّر الثالوث المسيحي «الآب»، الآب الغالي الوصف، الذي لا يرى والذي لا نستطيع أن نقول عنه شيئاً سوى ما كشفت لنا أعمال الابن وأقواله.

إن يسوع، تلك الأيقونة، علامة إرشاد على طريق تآله الإنسان، جميع لنا تجاوز الرؤية المهيمنة لإله إسرائيل

قلنا في «هل نحن محتاجون إلى الله؟» كيف أن انشاق التعاليم عبر الإنسان، عبر أصعب الناس وأكثرهم غريباً يشير إلى قصيدة حذرية مع جميع الملوك السماويين.

إن الابن يعطي ذلك الإله الذي لا صورة له وجهاً شخصياً إنسانياً. إنه يدعو أحياناً لنا ويجعلنا معه «أبناء الإنسان»، وأبناء الله. لم يعد ذلك «السيد» (يرفض يسوع هذا اللقب كما يرفض لقب «مسيح» على طريقة داود). ويرفض أن يدعى «صالحاً»: لماذا تدعوني «صالحاً» ليس أحد صالحاً إلا وأحد هو الله. (مرقس ١٠ - ١٨).

لم تعد «الطاعة» هي المقصودة بل «الحجة»، قبل أن يجعل منه بولس وتلاميذه «رباً»، سيّداً، بل وخالقاً للألم، وهي أشياء لم يفتأ ينيدها يسوع كتجربة الشيطان في الصحراء (مرقس ١ - ١٣) أو عمى تلاميذه الذين شكوا أنه يمكن أن يموت (متى ١٦ - ٢٣).

إن يسوع أتح لهم إلى حدّ إنه يقاسم الناس الموت ويكشف لهم عن معناه. ليس هناك «الموت» بل حياة القيامة الأبدية بالمشاركة في هذه الحياة الكلية.

ليس من موت سوى موت الفرد، الفرد الذي يظن نفسه مركز الأشياء ومعياها، الذي يماهى مع ملكياته وألقابه ووطنه. كل ذلك مبترع من باعتفاء فرديته. ولذلك فإن الفردية تولد الخوف من الموت.

ما الذي يستطيع أن يأخذه الموت ثم أعطى كل شيء؟ هذا ما أظهره لنا يسوع: الانتصار على الموت، الانتقال من الموت إلى الحياة، القيامة، أي الانتقال من موت الفرد إلى الشعور بالحياة الحقيقية التي يفصلها ليس مركزي في ذاتي بل في الآخر، في هذا «الأنت» الذي به أنا «أنا»: يقول القديس يوحنا: «ومن لا يحب لا يعرف الله» (رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤ - ٨) ويضيف «لأن الله محبة».

ويقول يسوع لتلاميذه: «وصية جديدة أنا أعطيتكم، أن تحبوا بعضكم» (انجيل يوحنا ١٣ - ٣٤).

جديدة بالفعل لأنها سير واردة في الوصايا العشر.

إن المثل الذي ضربناه انطلاقاً من الرؤية القيرائية الراحة للكون هو استعارة تصورية لهذا الانتماء إلى الكل الذي يجعلنا خالدين، خالدين بدءاً من اللحظة التي نتخلص فيها من «أنا» الصغيرة الفردية. هذه القيمة هي التي كان يسوع فيها القدوة.

يعني ألا نصلنا اللغة الساذجة التي استعملها أهلونا والآباء الأول في تعليمهم الديني. لقد ترحموا إلى اليونانية واللحم، والجسد، أي المادة الملموسة. ولكي يقولوا إن يسوع قد قام من بين الأموات كان لابد لهم حينئذ من إعطائه «جسداً» فردياً يمكن لمسه، وجنح جراحاته، ورؤيته وهو يأكل السمك المشوي.

كان ذلك كلاماً عن الموت والحياة بلغة زمنهم. لكن تكرار هذه العبارات اليوم هو إعطاء فكرة خاطئة عن الموت والحياة والقيامة.

هذه القيامة التي كان يسوع القدوة فيها والتي كشف لنا سرها هو وعي حضور طاقة كل شيء، حضورها في ذاته، وعي اسناد إلى ذلك الكل، وهذه القوة التي بعثت الحياة في يسوع والتي تجعلنا نحيا حضور يسوع لواقعنا، الهبة في ذاتها وأن نحيا حياة الكل والوحيد في فعل المحبة الذي يطرد أناياتنا وقبلاتنا.

تلك هي المعجزة الحقيقية.

ليست «معجزة قوة» حتى لو كانت معجزة إله، ملك كلّي القدرة، خارج عنا.

ليس هناك «معجزة قوة».

ليس من معجزة سوى معجزة الإيمان. بما فيها معجزة قيامة يسوع:

فهو لم يظهر إلا لمن آمنوا به ففتّر حياتهم.

هذه المعجزة يمكن أن تحدث كل يوم.

وهي ليست مشهداً مهما يكن فحماً مثل رؤيا حرقبال (٣٧، ١ - ١٤) وليست حادثة وقعت مرة واحدة، وضمت رجائنا حول مصيرنا عند انتهاء الأرملة.

ليس ذلك «خطونا للنفس» كما تصوّره اليونان بسبب ثنائية النفس والجسد.

إن «خلود النفس» هذا الذي كثيراً ما خلطه المسيحيون بالقيامة من الموت، يحمل في ذاته تناقضاً سادحاً إنه يعني أن للنفس بداية مع ولادة جسد كل إنسان، وبمعنى أن لا نهاية لها مع الموت. إنها نفس «خالدة» مدورة لنصف الخلود هذا، لنصف اللامتناهي.

كان الفيلسوف المتصوّف العربي يقول بقوة، وصد الفلسفة البوذية «المؤمنون لا يموتون لأنهم لم يولدوا قط». لم يولدوا قط كأفراد.

وذلك قد قيل هنا أبصاً، بلغة قديمة لكنها تعبر عن حقيقة خالدة البشارة، وهي أتم في القرآن (٣ - ٤٢، ٤٨) منها في الانجيل (لوقا ١، ٢٦ - ٣٨)، إشارة بولادة يسوع النولفة إبه تعبر عن رسالة الحياة هذه لا يمكن أن يكون يسوع أث غير «مكن»، مثل كل واحد منا، حارح تولدتا الوقت، كفرد محدثا في ذرية، في تقليد، وبكلمة واحدة هي خصوصية، ولو كانت خصوصية جماعية.

والقول بأن يسوع ولد من عذراء صح فيها الله من روحه هو اعتراف له بحضور أقوى من حضور أي متا، وبالتحديد لأنه يتجاوز حيات اعرده (القول بهذا هو أيضاً نقص بدلت السب المستبعد الصاعد إلى داود).

كان يمكن ليسوع، لو كان له «أب» حاصر، أن يكون بطلاً أو شهيداً أو قديساً لاهذه القوة، هذا الحضور «للكل» الذي كشف عنه إنسان «مزعج» من ذاته، دون أي ملك أو خصوصية فردية أو قبلية. هذه القوة (التي يسميها اللاهوتيون: النعمة)، هبة مجانية فقط لهؤلاء الذين قاموا اقتداءً بالسيح، بإفراغ «ذات من كل ما هو حاصر بنا» (١٦ - ١٧) «لكل» محلّه، لاستقامته، ليشر الفرد، من حيث هو فرد، بأنه ليس سوى شرارة عابرة في الجمرة الأبدية التي سنعود إليها بعد أن خايرنا الوهم لحظة بأن «مصلنا عنها».

وبهذا أيضاً ستغلب على الصور الساذجة لخلق الكون التي يُوحى بها من الماحوري أو سلطان فرعون.

كتب ابن خلدون بجرأة في مقدّمته لفلسفة تأويخه، أي الخلق الذي واصله الإنسان عبر الزمن: «كل إيمان بالوحدة الإلهية نهي لفكرة الخلق» (لمقدمة ٤ - ١٦).

كيف يكون، بالمعل، الإله خارج الخلق، وقيله؟ أكان يصجر في

وحدثه قبل أن يستشعر الرعية في أن يقول ذاته وأر يُع من محبوباً «الحق، لغة الإنسان في تبعيته الأرضية. الإنسان يبحث عن معنى المغامرة الإنسانية، يعترف بأنه ليس هو الذي أعطى نفسه الحق، لاهو ولا أبوه ولا أجداده الأقدمون.

أنا لم أخلق نفسي

أنت لست نور نفسك

نحن لانكفي اعتدادنا بالاكتماء

نصريف كلمة الله.

والجواب المسكين عن هذه الـ «لماذا»، عن «لماذا» المعنى والتبعية: هو الحق

الحق كلمة ساذجة، كلمة ملحدة، لغة إنسان يقيس كل شيء بمقياسه ويسب إلى الله مرسوماً ملكياً سخيفاً: كن!

إن التعالي المعاش هو بالتحديد ضدّ هذا الاعتداد، وصل هذه الكلمة المسكية، كلمة «الخلق» التي نطن أننا نعوض بها عن جهالاتنا

وهي جهالات حصبة مع ذلك عندما تكون وعياً لحدودنا، وعندما نقرأ فقط بعد جميع جهودنا شفيه والعالم، لاستدعاء الآسنة نني لانستطيع أن نجيب عنها تقنياتنا ولا علومنا ولا ميثاقنا بكياننا.

كان الكرديال «ديكور» يقول: «تلك جهالة عالمة» تُسقط إلى اللانهاية مشاريعنا وفرصياتنا، ونحرض على ولادتها ونقيس لها حدودها.

ذلك هو «إعلان» الابن والدعوة إلى أن نكتشف فيها تحقير الدعوة الذي لا يتوقف.

«أيها الروح النشط أبناً، لكم استشرك!» هذا ما كتبه «غوته» وهو يُعدّ

«فاوست»، أكثر الأساطير تعظيماً للإنسان العربي وتهدية له، لأن الروح
الخالقة والمالحة يمكن أن تصلح لتدمير الإنسان والطبيعة كما يمكن أن
تصلح لتفتحهما.

في الفلسفة الغربية كثيراً ما اختزلت الروح إلى العقل ومفاهيمه، إلى
العمل الأول «اللوعوس» اليوناني، وكثيراً ما وُجد اللاهوت المسيحي بين
هذا «اللوعوس» والكلمة كلمة الله. وهذا ما تؤدي، بتأثير أفلاطون
وأرسطو، إلى معالجة التعالي بمصطلحات «الخارجية».

وعلى هذا النحو أصبح المحصور، الكمون الإلهي في الإنسان الداخلي
تعالياً مقلوباً، وكأن الله كان، بحسب تغير الأب «هابيكاره»، «مستأجر»
لنفسه، تعالياً يتضمن عدم التجانس بين الله والإنسان. على العكس، إن
التعالى والكمون لا يعني لهما أبداً، أن يُسبانا أن الله والإنسان ليسا
«واحد» ولا «اثنين»، ذلك أن المطلق الثابت لـ «عدم» وهلاه لا يمكنه أن
يحتضن ملء الواقع.

ليست الدينامية الإلهية أكثر انفصالاً عن الإنسان من انفصال قطبي
المعاطيس أحدهما عن الآخر. وإلا غدتا إلى ثنائيات النفس والجسد، الله
والإنسان.

يذكر الأب «هابيكاره» الذي يحزى الحياة الداخلية لثلاث المسيحي
غير تجربة «الأدماية» (اللائحية) في أوابشاد، الهدى، يذكر الطرق الثلاث
نحو الله المرسومة فيها: طريق الـ «كارما» التي تقابل البحث الأيقوني عن
«آب»، طريق «الساكني»، الحياة التي تقابل العلاقة الشخصية «بالأب»،
وطريق المعرفة (جنانا) والتي هي حضور الروح. إن هذه الطرق الأخيرة
تقتضي الانسلاخ من كل مانع عا خصوصية «وحدانية» الكل، ومن
ضمن هذا الكل «أنا»، بحيث لا يعود ممكناً الكلام على علاقة بالله بل
على انغماس به.

لقد عثرت «الباغها» فاد جيتا» بشعرها، عن هذه التجربة الأساسية-
«جميع الكائنات في»

وأنا لست محتوى فيها،

ومع ذلك فالكائنات لا تمكث في. افهم هذا الشكل الأسمى للوحدة:

أنا حامل الكائنات لا حبيش فيها

أنا الفعل الذي يجعلها تكون

(٩ - ٤ - ٥)

إن لائحية «الفيد» (هذا الشكل لعلاقة الإنسان بالله) يستعيد كل
تجسيم كما يستعيد كل حلولة. إن الواقع الأعظم لكياني (اتمان) هو
«ابراهيم»، أي الواقع العميق، المطلق، لكل شيء: «أنت هو ذلك».

تاريخ الإنسانية المقدس.

إن الثالث المسيحي، إذا ما عيش في امتلائه، يتضمن هذه الأشكال
الثلاثة للعلاقة بالله.

العلاقة «بالآب» التي هي صمت الله، لأنني لا أستطيع أن أتكلم عن
الله وهي ذاته، لكن عتاً يظهره لنا مه لاين فقط، يسوع الذي يستطيع
أن نعرفه، أي أن نحب.

العلاقة بالابن الذي هو كلمة الله، هبة ذلك الآب غير المنظور
للإنسان، الآب الذي أفرغ من كيانه حين جعل نفسه منظوراً، يتصرف
ويتكلم، وثبت في ابنه. يقول القديس «ابريناوس»: «الابن يجعل غير
المنظور منظوراً». العلاقة بالروح التي هي حضور الله الكل في الجميع،
حضور الدينامية الإلهية المقولة بواسطة الابن. كل كائن في العالم وبين
ناس يصح حينئذ «تجلياً إلهياً» بقوة الحضور الإلهي.

هذه الأبعاد الثلاثة لكل روحانية حاضرة، بدرجات شتى، في جميع لعرات الديس، في جميع أشكال العلاقة بالله في الديانات السماوية. وفي علاقة الواحد والعلاقة «بالكر» في حكمة الحكماء. إنها استحالة الكلام على الله وتسميته لدى العبرانيين مثلاً، أو حتى تغييره من الواحد ومن الكل في حكمة الهند وحكمة الصين، لكي لا توقع في وثنية التجسيد.

إنها الشخصانية التي تُشدد عليها الإيمان بمسوح لكي تُنح نخة مدى امتلائها.

إن شمولية بُعد الحقة، لإله شخصي مقنعة، في صياغات «يقية» باللغة اليونانية «لجوهرة» الذي يقود إلى ترجمة «شخص» بالكلمة اليونانية «أقوم» الذي يقضي بنا إلى برودة «الجوهرة». الأقوم باللاتينية يعني بساطة ماعكث تحت هذه الرصانة تحدث أصراً أكبر عندما تُترجم حرفياً ككلمة «شخص» وباللاتينية Persona أو اليونانية Prosopon، وكلتا اللفظتين تعيان القناع، أي بالتحديد صد ما أردنا قوله في كلاماً على «الشخص» الشرقي الذي يستبعد «التفنع» كلياً.

هذه الصياغة غير المفهومة تذهب إلى تعريف تجرية ديمية، بلغة اليونان وفلسفتهم، وهي غريبة عن هذه اللغة وتلك الفلسفة، وفي لغة أخرى غير لغة اليونان يصح الثالث قريباً وأخوياً بالنسبة إلى الناس جميعاً. إن صوتياً مسماً، روربهان الشراري (١٢٠٩ - ١٢٢٨)، وفي الفترة نفسها، في القطب الآخر للعالم الإسلامي، ابن عربي، في قرطبه، عزها بكل بساطة الثالث، في الله، وبين الناس بأنه وحده لعشق والعاشق والمعشوق.

مثل هذا التعبير المعيش (لا المفكر فيه فقط) عن الثالث يكشف عن

بُعد الإنسان الإلهي وعن ندائه الباطني: هكذا ينبغي أن يعيش الإنسان الإلهي.

أظهر مسوع إمكان الربط بين المتناهي واللامتناهي، بين الواحد والكل تعلمنا «ادمايتافينا»، خلافاً لكل محاولة تحط من التعالي إذ يعبر عنه بمصطلح «الخارجية»، أن الله والإنسان ليسا اثنين ولا واحداً. ليس هناك إنسان يعمل من جهة، وخارجاً عنه ومن فوقه، من جهة أخرى، إله يحركه من بعد ويحكم عليه.

خلافاً لكل اختزال لله إلى مفهوم أو فكرة أو «كائن»، على الطريقة اليونانية، إن ماسميته تسمية فقيرة «إحيائية» الديانات التقليدية في أفريقيا علماً أن نعيش الله، قينا وفي الجماعة، كقوة.

هذه الوحدة العميقة، الوحدة بين الطاقة الإلهية وطاقة الناس، استشرها على نحو عجيب الآباء الشرفيون. كتب بجراف «غريغوار» الاسكندري (مات ٢١٥) «إذا عرفنا أنفسنا عرفنا الله، فإذا عرفنا الله صرنا الله» (المرئي ١١ - ١٥) ويقول القديس غريغوار السارياني (٣٢٩ - ٣٩٠): «لقد جاء ليوجدنا تماماً في المسيح، في المسيح الذي استقر تماماً فينا، ليضع بنا كل ما هو منه» (الخطبة السابعة). ويقول القديس يوحنا هم الذهب (٣٤٤ - ٤٠٧) بالروح نفسها التي سيتحدث فيها القرآن عن الناس: كم من الملائكة، وكم من رؤساء الملائكة تُساوي؟ (الخطبة السابعة حول القديس بولس)

تلك هي النعمة التي كتب عنها «مارتان بوييه»: «إنها الاسم الديني للحرية». أي، إذا شئنا أن نردد «مثل الفيزيائيين»:

- وعينا أن جلورنا هي على تخوم عالم لا نهاية له.

- وأن مركزي أنا نفسي يتلاقى مع مركز جميع الأشياء، هذا المركز

الذي هو في كل مكان.

هذا الوعي المعيش، وعي التعالي، يحدّثنا من كل محاولة لإقناعنا بأن عالمنا مُخلَق، وأن الواقع يُختزل إلى ماهو موجود من قبل، وأن المستقبل لا يمكنه سوى إمكانيات الحاضر.

- ٥ -

الإله الذي لا يكف عن الخلق.

أليس من فنّ سوى الفنّ المقدس؟

لكي نفهم اليوم فهماً أصلاً ذلك الجانب من انحطاط الذي يرسم حتماً في قلوبنا كما يرسم في اقتصادنا وسياستنا وإيماننا، نحن بحاجة إلى الله، إلى المص. وهذه الحاجة أكثر ظهوراً، وعلى نحو مباشر، في المصون منها في أي ميدان آخر، أكان ذلك يصبح المرء هنا مهدهاً أو ليتعلم «مراء» الأعمال المص، أي يتعلم المشاركة في إبداعها لا كمشاهد أو «كمستهلك» بل كمُحتف بها.

ليس الفنّ فقط لغة المقدس الذي غداً ضرورياً لأننا لا نستطيع أن نحوي الله في معاهيمنا، أي استقراء «المص» انطلاقاً من الواقعة.

إنه يساعدنا على وعي أن أكثر ما في من «شخصي»، ليس حزمة الوظائف الاجتماعية من الألقاب والممتلكات التي نكوّس كمراد، بل هو، على العكس، ما يجعل من شراره نار الحياة المتقدة أبداً، المشارك في التدفق الخلاق الذي هو اليسوع الخفي لكل شيء. ما يجعلني واحداً مع الكل، لا لإلغاء خصوصيتي في (كما هي الحال في التصورات الشمولية لمجتمع) بل، على العكس يجعل مني أحد الذين لا يذيل لهم من شخصين بذلك العيد الكوني العظيم. إن هذا التعبير أن يكون واحداً مع الكل، هو، مثلاً، أسمى تعبير لـ «تاو» يجعلني أحيا ذلك الملف الصيني من عهد «سونغ».

مثل الربيع على ارجل الربيع والربيع الكووهي. وكذلك تعلمنا قصيدة
والأوباشاد الهدي أنت هو ذلك، وذلك تعني كلمة حياة في إرهارها
الذي لا يقطع حيث يتحد كل فرد في ولادته مثلنا نحن. مصدره،
بيشوعه.

هذه الرسالة المركزية يسوع رسالة الممكة جميع الأمثال التي
يوحي إياها من خلالها بتلك الممكة تحدثنا عن أوان النار والدار
والحروب التي ستفتح وبكر. مملكة حاضرة هاء، لا كمؤسسة حامدة،
وموقف متب، بل كواقع محدد بولادة أسا إياها وحارح عتاء، وهو
يتحرق فيها كلما شاركنا في هذا الخلق المستمر، على طريقة يسوع نفسه،
حين يقول لنا «أني يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يوحنا ٥ - ١٧)، لأن
الخلق لم ينته. والعالم غير معلق. إنه مفتوح على إمكانات جديدة. وكل
واحد منا مسؤول عنها.

الإيمان بقيامة يسوع ليس قراءه الأناجيل قراءة ساذجة: بل هو أن نحيا
مع يسوع عمل الخلق هذا. إنه يأمر: «هو يشغلكم» (يوحنا ٦ - ٢٧) فقالوا
له: لماذا نعمل حتى نعمل أعمال الله» (يوحنا ٦ - ٢٨). حيث يطلب منهم
ما يقربهم الإيمان: لا الاعتقاد، بل الالتزام. فلو كان أن المقصود شيء آخر غير
القبول - المقصود جهداً يُبدل كل يوم - لكنهم يتفكرون: فإن هذا الكلام
صعب، من يقدّر أن يسمعه؟ (يوحنا ٦ - ٦٠).

إن هذا الصوت المتطلب ما يزال يردّ صدىه فينا كل يوم كما ردّ في
مجمع «كفرناحوم». وفيما تتختر الهمسات نفسها والترددات نفسها عن
قسوة هذه الطريق التي قادته بناد إلى الموت ليتم به عمله، عمل الآب.
هذا العمل هو الذي يعزّه آباء الكنيسة: «الله صار، في يسوع، إنساناً،
لكي يتمكن الإنسان من أن يصير إلهاً».

لكن، أن يصير الإنسان إلهاً، على طريقة يسوع، لا تعني السيطرة بل

الخدمة. لا يكون الله معاً، وفيها، كما كان مع يسوع، إلا عندما نكون
مثل يسوع، نحو الآخرين. هذه هي رسالة حكمة الحكماء وجميع
التصوّفات في العالم مثل المتصوف الفارسي الكبير «القطار»: «لغة
انطوي»، عندما تُفَرّ الصور أن تشدّ إليها، تطلق باحثاً، قدسة بأسوأ أنواع
العذاب، متصّدة لأسوأ المعارك: يقول «القطار»: «إن قنعت بتمكنك هذا،
العلم فقدت تمكنك الأبدية». وعندما فقدت هذه الطيور، بهنتها لذاتها،
كل أثر من حائتها هي فهم حشوها أن هذه النفوس التي يصعب شدّ
وترها لا تناسب هذا المعصم العاجز».

ثلاثون فقط (في الفارسية «ثلاثون» تعني «سي مورغ»، وهو اسم الله
داته. سيمورغ) بعث الوادي الأخير. وحين تمزّت في مرة بحيرة، لم تر
فيه سوى نفسها: ثلاثين طائراً. وهكذا عرفت ملكها - الذي لا يرى: قلبك
محنتها وصحبتها الذي هو الحياة نفسها لهذا الإله المحتجب قال لها
«السيمورغ»: «أنت لم تعني شيئاً إلا بعلي، ولقد حققت كياني
وكمالته». وبلاشت الطيور فعلاً إلى الأبد في «السيمورغ»: وعاب لعل
في الشمس.

هذا مثل الإسلامي. «الله في كل شيء، وكل شيء فيه» هو مثل جمع
محبي الله، هذا الإله الوحيد الذي هو، مهما تكن لغة حكمة الحكماء
ومهما تكن لغة الديدات، هو قوة تفتح الحياة الكلية في وحدتها. وهكذا،
يُعاش، «كقوة» لا «ككائن» في الديانات التقليدية في أفريقيا، وكما هو
في «البوبول فاب»، الكتاب المقدس لدى هنود أمريكا حيث يتمتّع
الباش المصنوعون من الصنصال، وحيث يتعقّ الناس من الخشب، إلى أن
يتفتح الإنسان الدره، ورث أحياء على الأرض، ووارث الهة الحياة
الأبدية.

جميع كبار الصوفيين، جميع الملهمين الإلهيين شهدوا أن الفرق هو لغة

المقدس لأن كل لاهوت (العلم الإنهبي) أي كل محاولة للكلام على الله لا يمكن أن تكون إلا شعيرة، سواء في «الرامايانا» أو في «تولسيد» الهندي، أم في قصائد الرومي في فارس وقصائد ابن عربي والقديس «جان دي لاكروا» في إسبانيا.

إن البحث عن معنى حياتك - أشقني الله أم شقني باسم آخر - هو روح كل من حقيقي وكل جماعة. هاملت الملك عبر المتوح في عصر العاصفة، دون كيشوت الفارس النبوي المسكون بالله، دستوفسكي عندما يتساءل «موسوس» في تمردهم العاري، عن معنى جريمتهم وعن معنى الله، هؤلاء جميعاً طرحوا السؤال القلق نفسه، لكن بطريقة خاصة بأوروبا، كما طرحته إيقونة الثالوث لـ «روبليف»، وراهدة مديح مسيح «غروينلاند».

لقد كان إسهام الفن الخاص في العمل الإلهي للإنسان هو: أنه أظهر كيف يستطيع الإنسان أن يصبح إنساناً.

إن تعليمنا المحرم يصنع في حصومات مسرفة في القدم بين القطع العام والقطاع الخاص، في حين أنهما كليهما يعضمان أكثر فأكثر لمطالبات التكوين الوظيفي مهمات مجتمع الإنتاج والاستهلاك، وأن مجتمع الإساح باسم العمالية، ومجتمع الاستهلاك باسم الرعة الاستثنائية المسيحية يستعيدان حكمة العوالم الثلاثة ودياناته، ليجسنا نفسيهما في العرقية العربية

إن تعليمنا المحرم يهمل، باسم الخيانة، العملاقة الذين طرحوا في الماضي مشكله الإنسان ومعناه، دون أن يعطى شيئا أي سلاح تقني يثاقوموا ثقافات التلويون - صندوق القمامة الذي نقل ٨٢ / من صور، في أوروبا، أسوأ فصلات هوليد، وماتتجه من أبطال القوة المزيقين.

حال المجتمعات كحال الأفراد: يمكنها أن تكون تجارية أو كهنوتية فأوروبا شكسير وسرفانتس ودستوفسكي تغدو مجهولة أكثر فأكثر من

الشباب الذين وهبو أنفسهم لأوروبا التي تتحدث بأنها سوق، أوروبا «بير لسكوبي» و«بروكسيل»، ولأمريكا «نهار «الروك» والكوكاكولا العشاشين، ومعهما «للخنة»، إله دين الوسائل، إله يدعى «ماكتوش»، إله يمكنه مع ذلك أن يكون حاداً رائعاً للناس بحضر لمعنى، أي الذين يطرحون مسألة العايات الأخيرة ومسألة المعنى، مسألة الله، ولو كان ذلك، مثل الشعراء، بقعة الأسطورة

إن عبارة أسطورة أو قصص الأساطير لا تحمل أي معنى تصغيري. فالأسطورة بحسب تعريف معجم «روبير»، صورة توضع على المسرح، بشكل رمزي، كائنات أو أحداثاً، تجسد جوانب من العقيدة الإنسانية أو الوضع الإنساني.. وهي تؤثر في سلوك الشعوب.

والجوهرى هو أن لا تخطأ بالتاريخ، وأن لا تعارض أيضاً به، بحاجة أن هذه الصورة، أو هذه الحكاية الأسطورية لا يمكن التحقق منها «مصادقات» مع تاريخ الشعوب الأخرى أو مع البقايا الأثرية

هناك آثار خراب مدينة طروادة، لكن حكاية الحصار ومعاركه، شأنها شأن صورة هكتور الطويلة، والإنسانية يعمق، هما من عمل خيال الشعوب الخلاق، ومن عمل شاعر أو عدة شعراء عظام صنعوا الألبدة، كما خلق اسجيلوس أسطورة أنتغون الفخمة، والتضحية التمودجية بداتها ضد جميع ضروب الطغيان باسم «قوانين الوجدان غير المكتوبة».

إن هذه الصور الأسطورية لم تولد لهم أسمى مآثر الإنسانية وأجملها. إن الحب الذي يلهمه «كريشنا» أو نموذج العروسية الروحية الذي يقدمه «راما»، وهما «ناسحان» للإله الهندي «فيشنو»، لاجابة بهما إلى الخروج من الأسطورة أو من القصيدة ليرتسما في التاريخ الواقعي للناس، فلقد ألهمت، غير آلاف السنين، حيز الناس فيما يعملون، مثل غاندي

فباسم أية عرقية تريد أن مسح الأساطير العظيمة وجوداً تاريخياً؟ إن

مثال تضحية ابراهيم وتحرير «الخروج» مع أنهما لم يشهد على واقعهما لتاريخي الوصفي. أي تقاطع وأيه بقايا أثرية، مثل أسطورة هكتور وأشعور وكريش وراما، إن ذلك قد لعب في اللحظة الإنسانية، مدحه نحاو لإسناد دوراً أعظم إبداعاً من المآثر العظيمة تاريخياً لتأثير استقرس مثل قبصر و كورنير وبابلون

ثم أن يقرر بتعسف إعطاء ابراهيم أو الخروج وضعاً آخر غير وضع الأساطير العظيمة التي طغت بطابعها مراحل الناس والعظمة، فذلك لا يمكن أن يعود إلا إلى القصد الحفي للتعصبة على تلك الحروب واندماج الأسطورية أيضاً التي زويت لنا، في ظل تلك الهبات الروحية العظيمة. إن الحكايات الأسطورية لمعارك الألياذة كانت صالحة للمحافظة على الصلف الحربي لدى اليونان، وعلى الصراعات العسكرية بين الدرافيديين والآريين في الهند، الحدث «التاريخي» تحول إلى مواجهة أسطورية بين الخير والشر، «الهدف» ضد «الكودوس»، كاتب صالحة، أثناء قرون، لتبرير السيطرة والفتوحات الدموية، شأها شأن المآثر الكادية ليوشع في كنعان، أو فيما بعد لداود، اللذين روى كتابا صموئيل جرائمهما بالتفصيل.

إن الأساطير، كالتاريخ، تشهد على حوار عظمه لإسناد كما تشهد على بربريته. وقد بدأ التاريخ، حتى اليوم أكثر حرصاً على تسجيل الحروب والسيطرة منه على إحياء الهبات الإنسانية الخاصة للعلم الروحاني والصون

ما من فن إلا الفن المقدس، لأن قولنا «الده» في أي دين من الأديان، يعني أن للحياة معنى.

معنى غير مكتوب قبلنا ودفوننا، لكنه وجوب البحث عن هذا المعنى على مسؤوليتنا. كل فن حقيقي يُطرح السؤال عن معنى حياتنا، ويُستقط أماناً ممكناً جديدة.

المقدس، من حيث هو تجربة شخصية، هو الشعور بالفتح، بالصدق فيما نحن، بما ليس نحن، بما ليس امتداداً لعناصر ماضية ولا لمركبتها، بل لتجاوزها الجذري بحسب لا يحترل إلى ما كان موجوداً في الماضي ذلك «في» دون أن يكون «لي».

ليس الفن طريقة للكتابة والرسم أو الرقص لكنه فعل كل شيء طريقة في الوجود

في التصور الكلاسيكي الغربي، ولا سيما منذ القرن السابع عشر، العالم حاصر، جاهز، بقوانينه وقواعده، قواعد الطبيعة والأخلاق

الإنسان الشريف هو الذي يمثل لها... هذا العالم ثابت لا يتغير. وقد عبر القدماء اليونان أو الرومان، عن نظامه الأبدي: لقد حدد أفلاطون من مرة واحدة جميع أطر الفضاء، وحدد «بوليكليت» «قانون» الجمال

هذه هي طريقة الوجود الكلاسيكية، في الأطر التي لا يحور المماس بها، أطر الكائن والكائن الواجب.

يعني أن تصور «الناس» كما ينبغي أن يكونوا، أو «كما هم»، قواعد صدره في الفن الكلاسيكي الذي غدا «أكاديمياً»

القرن التاسع عشر نورتي. بهذا المعنى العميق وهو أن طرائق جديدة للوجود برسخت معه.

منذ «كيركيغارد» الذي عارض تضحية ابراهيم بمحاكماتنا المنطقية الصغيرة وأحلاقياتنا الصغيرة، والذي عداش إيمانه على نحو مختلف عن إيمان الديانات والكنائس وعقائدها، حتى «فرويد» الذي تصدى لعلم نفس مختلف عن علم نفس الوعي المعقلن.

في قلب القرن، فتح ماركس إمكان مجسم آخر غير مبني على التراتبات العبودية، الإقطاعية أو البرجوازية، الملكية الناس، والأرض أو

المال، وبعده بقليل أشار بيشه وأصبح الاهتمام إلى جميع قيم الخير والشه المعترف بها منذ زرادشت.

وفي الاتجاه المعاكس لكل هذه الثورات أحل أوغست كونت، في محاولة منه لكبت هذه الثورات، أحل العلموية الشمولية التي سبقتها الوصعية، محل الحق الإلهي.

هذه الثورة لمصادرة تُعيد فكرة الطام الأبدية الذي ليس هو نظام الديانات والمساويكا التقليدية، بل نظام علم يفرض الكتل القاسية للوقائع الحاضرة وسلاسل قوائمه «العالم حاضره»، وذلك الأمر كذلك ولا حيلة لك هذه المسمة الوصعية للموضع الراهن، فيها من الاضطهاد ما في المحرمات القديمة التي تمنع من المساس بالنظام الذي أراده الله وبقراءات العبادية الإلهية.

بذل الأقنوع ليس غير، فاحتسب، هذه المرة، حتمية ما اتفق على تسميته «الموصوعية العلمية»، دخلت من باب آخر حتى لا يشاركه التي نقول إنها «علمية»، خوفاً من أن تكون نبوءة، (طوباوية، كما يقولون)، تسعى إلى أن يسي نفسها على امتداد ما هو كائن، لا على نصيبه منعاه عليه

وهكذا فإن كثيراً من الثوريين يريدون أن يخترعوا كل شيء ماعدا أنفسهم، أن يخترعوا العالم لا حياتهم الخاصة

لكي الواحد لا يصنع دون الآخر

لا يمكن لعالم أن يتعثر - اللهم إلا بطريقة كمية - مادامنا مقبل بالمسلمة الوصعية هو ما هو

من يتعثر شيء حقاً مادامنا نعيش على هذا الوهم وهو أن العالم والنظام الذي نعيش فيه هما وحدهما ممكنان.

هذا الفكر الوصعي يثير، منذ ولادته تمردات تعبر عن رفض الاندماج بأفك العالم.

إن إرادة كسر النظام تتجلى في السياسة، بالحركة الثورية، وفي الكنائس بالبحث عن تجديد الإيمان في التتالي الذي هو نقيض الاكتفاء العقائدي

أما في الفنون فالانقطاعات الشكلية تسبق ولادة المشروع السوي

في التصوير تمزق جلعلة الأشياء التقيدية

- يُحطّم النبوءة، وتلك هي الاضطراب

- يُحطّم بشكل، وتلك هي الكعسة.

يُحطّم الشيء، وذلك هو التجريد.

يُحطّم المعنى النفسي وتلك هي السريالية. - كل ذلك رفض محزون إزاء الماضي لكنه لم يصبح بعد هبة مستقبل جديد

أن تكون شاعراً في الحياة كما في الكتابة، إنما هو مشاركة في خلق مستمر للعالم بحياتنا المكونة إلى قصيدة.

ذلك هو تعريف كلمة اله.

ليس ذلك إيماناً بما لا يرى بل هو إيمان له جعته متطوراً. الشعر هو معه ما قبل الصلاق بين الفكر والكائن.

الشعر شعب

بشعر عدوى الملحمة عدوى سرود، وكارثراكي، وغارميا بورك، وهاميه ميزير، وإقبال، وسان جون برس، ولأمر والوصفي في ولاية المسيرات

أوضع تجربة للتتالي هي تجربة الخلق. هذا الخلق المستمر للإنسان على

يد الإنسان، على أيدي جميع الناس، وفي جميع الأيام التي تستمر التاريخ لا تاريخ، الأدوات والتعبات محسب، وهي قد أسهمت فعلاً في بناء التاريخ، لا تاريخ الحروب والسيطرة التي ما برحت تدمر التاريخ، بل تاريخ جميع المشاريع الضاهرة أو الخفية التي اتجهت نحو ابتقاء الإنسان الكلي.

كل عمل من أعمال الفن يُقرأ مثل وجه يحمل مالا يُرى من المعنى مرئياً على نحو فريائي. إن الفن من الرقص إلى الرسم، ومن الموسيقى إلى السيمفوني، ومن المسرح إلى الرواية، تعبر عن حياة الآخرين، لا انعكاسهم بل المعنى الذي منحوه هذه الحياة، المشاريع الممكنة في جميع عصور الإنسانية.

نقل إلينا الفنون بنوع من العذوى الكبتية، فيزيائياً وروحياً على نحو لا يتفهم، غزارة طرائق الوجود، في حين أن التاريخ لا يستغل سوى طرائق النفس المتصروا، لأن التاريخ يكتبه دائماً المتصرون.

الفنون وحدها يمكنها، ولو بقيت بالمشوهة، أن تفتح لنا أن نحيا من جديد أشكال الوجود التي حسدت مشروعاتها، أن نحيا، بحضورها، حين نُحسن مراءيتها، تاريخ الإنسانية الحق: تاريخ الممكنات الإنسانية ماتلك الممكنات إذن، وما معنى نحسن قراءتها؟

حتى الأجناس الأدبية الميتة تساعدنا أن نحيا من جديد: إنسان الملحمة هو ما قد يسميه علماء الحياة «متحولاً». إنه مسكون بمستقبل ما يزال غير متميز. وهو يجسد مسبقاً طريقة للعيش لا يكتشف علماء الأخلاق والفلاسفة قوانينها إلا فيما بعد. فيما بعد، أي عندما تكف طريقة عيشه عن أن تكون تلميذات الإنسان لتجسد في الجماهير الشريرة كما كتب رافلون في «الأسبوع المقدس».

بالنسبة إلى «أرجونا»، في «الماهاباراتنا» الدرب لم تُشق: إن البطون

يحمل في ذاته بذرة المستقبل، والقانون الذي سيهب الحياة وحداثتها ما يزال في طور تكوُّنه، ومعناه غير واضح إلا بالقياس إلى الإله «كرشن».

إن الملحمة التي يبحث فيها الإنسان عن معنى لداته في فوضى العالم، والتي تُؤد، في عصر النهضة، مثلاً، ومع قلب جميع القيم القديمة، تُؤد مثال شكسبير وسرفانتس، لم تزل تهز الجماهير التي تجد فيها قلق اليوم. هذه الأعمال تستمد مع ذلك من عصرها جذورها العميقة: لقد كتب «سرفانتس» بعد قرن من افتتاح العالم الجديد وهو جندي في حملة «بيانات» ضد الترك ورأى، وهو مدون عسكري لإعداد الأسطول الذي لا يقهر، مصير إسبانيا يترشح.

وُلد شكسبير بعد خمسين سنة من «يوطوليا» توماس مور، وأمير ماكسفل، وبعد ثمانين سنة من موت «نورث» وكان عمره عشرين عاماً عند تدوير الأسطول الذي لا يقهر وثلاثة وعشرين عاماً عندما أُمريت المزيات بقطع رأس ماري ستوارت. وبعد عشر سنوات، فتح مسرح «العلوب»، مسرح عواصف النهضة. فكلم من العوالم والمشاريع رآها شكسبير تُؤد وتموت. مثل سرفانتس.

إن تأصلتهما في هذا القرن، قرن الوحوش والعواصف، أتاح لهما أن يعطيا أعمالاً نجملنا نعيش القلق والأمل لمعنى الحياة الأخير.

١٦٠٣: «الملك لير» يكشف عن تمكك العالم «حيث يقود المجانين بعني» (الفصل الرابع - المشهد الأول). وليس الملك سوى أقطعة من حرات وهو يطرح السؤال الأساسي «من يستطيع أن يقول لي من أنا؟» ١٦٠٥: «جيب دون كيشوت»: «أنا أعرف من أنا» (١ - ٥).

جيب وهو صريع أيضاً، وهو في أحقاد اليأس أيضاً. لكنه مسكون بعشرون حنوني. وهو أن يعطي هذا اليأس معنى

إن مسرحية شكسبير ورواية سرفانتس لم تزل أخوين وحاضرتين لـ
كانت مارتا عراهم تقول إن الرقص ينبغي أن يتمكن من القول بلفظه
ماقاله ميشيل آنج وشكسبير بلفظهما.

الرقص محتاج الفنون كلها، لأن الفنون كلها تتطلب مشاركة الإنسان
كله.

لسنا «فراة» رسماً ولا نحتاً ولا موسيقاً كما قرأ كتاب رياضيات أو
كتاباً في الإدارة، بغاية فهمها فقط. لأن فهم العمل العملي ليس قضية
تفكير فقط. فهذا العمل يحتاج إلى مشاركة كنية الإنسان، وقبل كل
شيء جسمه.

إن عبداً مفقداً ميشيل آنج يشغ بقوته وجهده في القضاء المحيط به
ولست أقرأ هذا كما أقرأ كتاباً في التشرية

إن جسمي كله عالق في حقل الطاقات هذا الذي أشعر بتبديده
وبورائه، دون وساطة فكرية، في جذعي وذراعي وساقتي. إن خطوط
انقوه تحتاج ألياف جسدي وكأني أندرت بمسؤولية تحطيم هذه الروابط.

إن بودا «ماتورا»، على العكس، يمتص إلى داخله القضاء ويبدو كأنه
يبتهره. إن التكرار الإيقاعي للمنحنيات المنحتمة التي ترسم حاجبه
وشفتيه، مثل أوراق اللوتس التي تستدعي حافاتهما عيني نحو الساق التي
تصطفها، يقود نظرتي نحو أعماق المياه. فينساق جسدي كله إلى هدوء
لولبي. وكأن حركة الجمين الإيقاعية نفسها وهما مغمضان، تتمص
جسدي كالمضاء، لا ثقله بل لتأمره بوحدة أكثر انساقاً وسكينة، مثل
«بوعاء» عراقي في تأتيل لا أصغر منه من عدم إلا لأعتر على الروح له
سبق ولادته. فأبدأ من جديد حياة أخرى بعد ولادة متقطعة.

إن مطانة عملي «مقدس» يحملني إلى ماوراء ذاتي ليجمعني أعني واقعاً

تجاورتي، واقعاً أنتهي إليه بحركة هي أيضاً «هي» دون أن تكون «لي».
فأصبح واحداً مع الكل، والكل يعيش في.

إن زيارة كاتدرائية «شارتر» أو «نوتردام» باريس، حتى بالنسبة إلى
الذي لا يأتي بقصد ديني، انبساط للكائن. وأنا لا أستطيع، فيريائياً، أن
أعبرها على خط مستقيم، من البوابة إلى المذبح. إن خطوط القوى غير
المرئية تستولي عليّ وتدعوني إلى السير في أروقة الأجنحة الجانبية،
والانتقال من عمود إلى عمود، ومن فوس إلى فوس، وكأني سم أنه من
الدخول، ومن اجتياز الأبواب، في طقس أعترف فيه الأسرار، في حج
أحس فيه، حتى وأنا وحدي، أسي مُحاط بجمهور أخوي، بصحبي،
ويسكني إلى أن أشعر، في عزلة الخراب، بعد المسيرة الصامتة، فيما وراء
كثير من العتات، أشعر بانتقالي إلى أرض جديدة، تصبحها شعوش أخرى
الرجاجيات النجمية الملونة التي يغلب عليها اللون الأزرق وكان الشمس
نصيء الليل دون أن تدركه، «الليل المضيء» الذي تقني به القديس «جان
دي لاكروا».

وللصمت بالمقارنة نفسها، طين من جزاء هذا الحوار مع القباب التي
وُلد فيها النشيد العريري.

الفن ليس مقدساً لأنه مخصص للعبادة، كما أن كثيراً من الرسوم
يست مقدسة لأنها تعالج موضوعات «دينية».

الفن مقدس عندما لا يدعني سليماً، عندما يجعلني أشارك في حياة
أعظم. إن كنيسة «أوفر» مازال موجودة، ونحن نمر أمامها اليوم كما نمر
أمام أي مبنى عادي لكنها عندما يعبر «فان عرع» صورنها، نجعلنا بعين
احضاراً وبعثاً وتعدو حدران الحجر الرمادي وسفوح الآخر الحمراء لحماً
ودماً، تحت مد السماء التي رقتها حارقة وسوءاء من الأفاعي الملونة، تنوتر
عصلاتي لثقاوم هذا الاسحاق، فسري فيها منحنيات الجدران التي تن.

ودنت لآخر الذي يسيل دعاء، وأنتجت بالأرض لأقاوم كفاشة الطرق
مسيرة بني خويها، ولأقاوم ثقل السماء. إني أشارك بأكمسي في هد
أخهد نحو نصير مستحيل

يد يفتح الرقص والرقص امتداداً وتميزاً، مطفئاً، لتلك الحركات التي
ارتسمت في عندما عشت بشدة مثل هذه الأعمال

الروح فيها تتحقق في جسد، في جسد الراقص نهض «أنا»
أخرى، كبر، لا تحبها حدود جسدها هي ولا جسدي، كنها تحب
الفضاء وتعطيه معنى، إنها توحى برحابة أو باختناق: مارتا عراهم في
«حدود» Frontiers تحملنا على الإحساس فيزيائياً بلا نهاية سهول
أمريكا والمعمرة الإنسانية التي تستدعيها.

أما ماري وبعمان التي تسلط عليها السحق الهليري فهي تشعرنا، في
بعمانتها للرقص، بالمضاء وكأنه قفص يتشبث به الجسد ويتهشم لبقاوم
ليس هذا عرضاً وإنما هو احتفال ديني.

الرقص أقصر طريق من الإنسان إلى الإنسان. وبالرقص، تحت حركة
الجسم الدالة مباشرة على نقل مخطط هذه الحركة إلى جسم آخر، ومع
هذه الحركة المعنى الذي يحركها. وهي بذلك تخلق جماعة لا يبر
«المشاهدين»، وإنما بين المختلفين. لأن مشاركة الجماعة في دلالة مشتركة،
في استفهام مشترك، يخلق تواصلاً هو شيء آخر غير مجموع الأفراد
الذين يكتولونها. هذا التجاوز هو في مبدأ المقدس.

إن ذلك الاتحاد بالآخر، ومبدأ الآخر المختلف، نداء ما وراء الذات
الذي يخلقه ذلك الاتحاد، هو الذي جعل من الرقص، في حبه
الحضارات عند بلوغها أوجها، لغة المقدس. ليس المقدس، في الرقص
أن يُعبد إلى تمثيل طقس هذه العقيدة أو تلك، إنه ذلك انصب لكبد
الإنسان جسداً وروحاً. وهو أيضاً تلك القدرة على الانسلاخ من

الحركات اليومية المعية والمروبو كونه الحذرة التي صنعتها فيود الآلة أو
التقاييد،

وهو أيضاً إرادة تجاوز الفوضى. إن للرقص بُعداً استشرافياً، بوباً، عندما
لا يكتفي بأن يعكس فوضى انحطاطنا ولا أن يسقط على المستقبل هذا
الانعكاس، بل عندما يتجه إلى الإحياء يتجاوز.

لدينا هنا، جهد في حال الولادة، هو الجهد الإنساني والإلهي الخالص
مجاهدة العوضى، والتغلب والتعالي عليها.

تلك هي، في الفنون، تجربة التعالي الأساسية التي تُبجع لنا فهم
الإسقاطات الإلهية في قلب الناس، حتى لو لم تُشارك فيها.

الفنون مقدسة لأنها تقيض التاريخ البازر، تاريخ الماضي. إنها التاريخ
وهو في طور تكوّن، تاريخ المستعمل، لا تاريخ السيطرة، والامبراطوريات
والجمرالات ولطعة والتجارة والحروب، وكل ما ملأ الرمن الوهمي لهرائم
الإنسان، كل ما حاول تهديم الأبدية الحية.

لا يلب «بولوس قصير» أي دور في حياتي، وهو لا يوجد إلا في كتب
المسيرة. مثل رعميس الثاني في الأشرطة المصورة الحقيقية، في نقوش
الكربك التي تروي مديحه. الصوت سنك التاريخ، التاريخ الزائف الذي
يرداد دماراً، نبعاً «للتقدم» في معاليه الأسلحة أكانت عسكرية أم اقتصادية
أو إعلامية.

التاريخ الحقيقي هو تاريخ «الخلق» الإبداع على يد الإنسان والذي
يوصله الإنسان، تاريخ الإنسانية «المقدس» المصنوع من الفنون الكاشفة
عن معنى الحياة الإلهي، وابشره بالمستقبل.

تاريخ الإنسانية مقدس، على بعض الترهج الخطي الذي يدعي العصر،
لا يبدؤ على مثل هذه المحيات الرمن فيه قابل للارتداد إن بنائي

كاندراية «شارتر» ومسجد قرصية ومعبد «بورو بودور» معاصرون لي.
وهم جزء من حياتي يُغنونها بأبعاد جديدة، فتتمدد رثائي في جميع
ضروب الغناء المقدسة، الشديدة الاختلاف، لكنها دالة على العالي
غناء الكاندراية، وغناء الجامع، وغناء المعبد الهندي.

إن «باجها فادجيتا» أو «الأوبانشاد» «حاضرة» حضوراً مباشراً بالنسبة
إني لكي تقودني إلى مركز ذاتي.

إن الموسيقيين الذين مرت عليهم عشرة آلاف سنة والذين انقطعوا
يوم نفع الهواء في خوف لقصص «كثير قصص» من «باجا» أو «شكة القمح»
وهو يحيي في شهر اب «قصص» من «قشر» إن هؤلاء الموسيقيين
بأقدم أو أحدث من أن يوقفوا حثاً وإيماساً وقتنا واندفاعاتنا.

«سان جون بيرس» معاصر «بندار» أو «رامادانا» «مارتا غراهام»
معاصرة للإله «سيفا»، سيد الرقص، على الأقل بالنسبة إلى الذين يحشو
بداياتهم. لحظات لا زمنية لإبداع الإنسان، أبدية تُعاش في كل لحظة،
وحضورها فيما يُدعى الثقافة.

الفن في مركز هذه «الشعرية»، المبدعة والعاشقة، خارج الزمن الخطي
والوهمي والعدائي.

الفن يساعدنا على الاهتمام إلى أبعاد الإنسان الصائفة، أثناء الكثير من
مسابقات التاريخ الصائفة، وذلك عندما لا يستسلم إلى تقليد الماضي، ولا
إلى أن يعيش الحاضر، ولا إلى حيط المستقبل بالحجة بأي ثمن، حتى
كنت ماضية لتفعل. الحق أن الإغواء عظيم بأن يحبط الأصالة الفردية.

التجارة وإن لم يجردها عن ذلك فهي هد الذي أعيد ندر
لبحر على الإعلان عن اسمه، أي وحدته السوق، كل شيء يدي
العدا، أكان رساماً أم موسيقياً أم رقاصاً إلى أن يقدم ذاته سماعاً مستحقة.

تُباع على نحو أفضل في معارض الرسم، وفي التلفزيون أو لدى مقايي
المسرح والغناء والرقص، وبكلمة واحدة في «سوق الفن».

إن اختصاراً المختصرة تُعظم الصور المسادة بدلاً من أن تصدى تلك
القنون لدمارها، تعكس انحلالها، أو تهرب منه، أو تبع صوتها بلغاتها
الغاجرة، وكان سائر يعون عن أحد هؤلاء الذين يخلون عصرهم غسلاً
قوياً حتى إنه حصل على مباركة حائرة بوبل لأنه أعلن عن لامعديه
العالم، كان يقول عنه: «أنت تجريد للمتمرد».

في جميع الصور تتكاثر هكذا الأناشيد التي تتأوب فيها نائحات
التاريخ واللاعنون.

لقد فتح «رامبو» للفنانين أبواب المقلعة الوضعية: ومن هذه الأبواب
يخرج الهاربون أكثر مما يخرج الناس الأحرار.

حتى لدى العظماء كف الوجه الإنساني عن الظهور.

«الإنسان» كما كتب ميشو اختزل إلى تواضع الكارثة، إلى تسوية
كاملة، كما هي الحال بعد خوف هائل.. وتلاشى في عتوه وفي قدره.

الإنسان الخشنة في منحوتات «جياكوميتي»، أو مبتتاً بالأعشاب
السوداء لـ «بوبيه».

الإنسان المتعنت في روايات «جويس»، وفولكنر («الضوضاء والغضب»
عالم له دلالة، يراه معزقاً عقلياً، وروب غريب وارث هدي يسمى سعي
حتى إلى تمديد المعنى، الإنسان الحامل للمعنى والمبدع للتاريخ.

إن رواية لا تساعدنا على وعي الواقع العميق رواية مبتذلة.

لقد قيل، وربما كان فيما قبل تسرع شديد، إن الرواية ملحمة عصر
حلا من الإله، ومأساة هذا العصر، حتى لو أضيف: على الأقل دون إله
خارج الإنسان يُعطي عليه قوانينه.

لأن الرواية في الزمن. كالموسيقا. وليس من رمي حقيقي، ولا من تاريخ إنساني خالص، إلا عندما ينبعث في حيواتنا شيء جديد جذرياً، فاطعاً صلته بالماضي. زمن الرواية ليس زمن لقوم والساعات وعلم. الغلث حيث المستقبل ليس سوى امتداد للماضي وللحاضر.

زمن الرواية هو زمن الإبداع، لا إبداع الكاتب، بل إبداع إنسان يواصل إبداعه كإنسان.

السبب العميق للتراجع هو أن الرؤية الوضعية قد بشرت عواقبها القاتلة أثناء هذا القرن. أثناء القرنين المصطلحيتين في الغرب، وفي العالم الذي حازه الغرب إلى دماره.

إن علمنا الراهن عقلائي إلى حد اللامعقول.

أخذ شياطين دستوبفسكي يفرون. ليس لي قدرة على خلق نفسي ولكن القدرة على تدميرها.

قد مسح العلم والتقنية اليوم هذا السلطان: عدمية على مستوى الجنس البشري، انحاراً بشرياً يرمج في الحاسوب.

إن عقلاً لا يتساءل عن غاياته فهو عقل يرتقي إلى العبادة.

لفيزياء تحطم قلت الذرة وتخزل مليون هيروشيما؛ الإمكانات التي لإبادة ٧٠ مليار كائن بشري.

وعلم الحياة يحطم قلب «الجينة» ويُعطيا القدرة على توجيه الدم الأليلين الأحياء عن بعد، أو على صناعة كائنات هائلة أو أوتة جائحة.

الاقتصاد يحطم قلب العالم: إن نماذج عمه المشوهة، بلا عاقبة إنسانية «تطوره» مجتمعات الذهب والتبدير، وفي القطب الآخر مجتمعات الجماع والامتدانة.

ليست الحياة هذه الحياة الصغيرة الزائفة، تكديس الأشياء

والخرافات التي هي مادة الزمن والتي تفصلنا عن الحياة الكلية. الزمن المسوح من كل ما يمكن برمجه: بطاقة الإحصاء في المشروع، الخاصة في المحازل الكبرى، برمجة «الفيديو»، آخر موعد للتغير السبارة، اللوحة، وبكلمة واحدة، من كل ما يصنع لحمة الزمن. كل ما يصنع شكله جميع صور الحياه التي يمضي التلفزيون من رؤيتها، جميع عطور الثرة أو المحيط التي يمضي البرول أو التبغ من شتمها، ضجيج الرياح والناس الذين يحيطون بي، وربما سعادتهم في الإفصاح عن أنفسهم التي يقطعني عنها جهاز استماع جماعات المعرفة، إذ يحسني في فقصه الرثاء مع رقصه هسان عي داب الإيقاع المردوح الذي يتسرب إلى قدمي وأبي مرقعه أصداي.

ها نحن أولاء «موصولون»، موصولون على أشد الحيوانات زيقاً، كائنات آلية تُوجه عن بعد ونوصل بققص الزمن.

أن نحيا حياة القرون، اسلاخها من القوضى، ذلك يخلق نظرة جديدة: تلك النظرة التي لا تتعلق بالجزئي بل تكشف فيه «الكل» واستقل الذي يومي إلى كل كائن مبه (وليس من كائن متناه إلا شقيع التي للواقع بمقطعة المعاهيم والكلمات). شاهد على ما يتجاوره وعلامة عليه. دليل التعالي.

أن ترى العراشة في الشرنقة، والقديسة في البغي، والنسر في البيضة، الأخ في القريب والبعيد، وفي بسمة الياسمين العابرة، انتعاش الربيع لأيدي، تلك هي نظرة الفن للعالم. لكن، كما يقول الانجيل عن يسوع: «وكرر ولم ترقص» (متى ١١ - ١٦ - ١٧؛ ولوقا ٧ - ٣٢).

يقول «جوان عري» أكثر المجتدين تجديداً بين رشامينا، وميدع التكعية مع «براك» و«بكسوه» فإن قدره المدع الحقيقي هي أن يُقتر عظمه حاصي الذي يحمله في ذاته، قبل أن يتجاوره. ليست هذه دعوة للعودة

إلى الماضي، بل، على العكس، إنها دعوة لتجاوزها، شريطة ألا تتجاهل ذلك الماضي.

تلك مهمة الرقص، مجتاع^(١) الفنون: إن القناع الأفريقي الذي تُنفذ الرقصه تحته مكثف للطاقة، يجمع القوى المشتتة في الصبغة، قوى السلف والآلهة والأحياء والأموات ليشتقها في الجماعة، وليخلق تويات من الواقع والطاقة أشد كثافة.

تلك هي المهمة الشاملة لجميع الفنون: أن تُوقظ في الإنسان الإله الذي يحمله في ذاته.

في عالم فيرباتي نترع أبداً إلى التفكير، وفي ملحمة بشرية يلوح فيها الاحتياط أرواح مسافة إلى الانحرافات لانتحارية لقصور الحرري تعدو السمون والرقص الذي هو مجتاعها، جهداً لتجديد العالم وتعبئته، وبوّة لمقاومة اللامعنى لتكون مبشرة بنظام للحياة أعظم غنى، ولتعظيم قوى الحياة المساعدة: العمل، والمحبة، والتمرد على اللامعنى، والجمال والإيمان.

(١) مجتاع: ترجمة لكلمة Synthese الفرنسية والتي تعني جمع الأجزاء المنفردة

خاتمة

الإنسان إله في طور إزهاره

إن التصكك الحالي للعالم من جراء انتصار الإلحاد الجذري في جميع العلاقات الاجتماعية، إلحاد وحداية السوق وتعند الآلهة الذي يؤكده ذلك الإلحاد (آلهة المال والأمة وعملة اللامعنى) تؤكد بالمثل خدس أندريه مالرو: «القرن الواحد والعشرون سيكون دينياً أو لن يكون».

لكن الدين الذي يمكن أن يُنقذه من الموت لن يكون المسيحية ولا الإسلام. لا الدين المسيطر لدى المسيطرين ولا الدين المسيطر لدى المسيطر عليهم. لأن تاريخ الحياة لن يبدأ إلا مع موت جميع أنواع السيطرة.

لن يكون القرن الواحد والعشرون إن استمر وتفاقم الاستقطاب الراسخ في الشمال والجنوب. إن قطبي الشمال والجنوب أراض متجعدة لا يسودها سوى الظلام والموت.

إن هذا التجمد القاتل يمتد اليوم على المنطقة الوسطى حيث يمكن للحياة أن تمينا، وحيث لا يستطيع بعض الناس أن يحيوا إلا بموت الآخرين. هاهنا الغرب، وحي اسمها من أصل ليلى، البلد الذي تغرب فيه الشمس، بلد العشق الذي يتقدم فيه الليل، ومنه الموت.

العرب الذي ولدت فيه العقيلتان الشريرتان: عقيدة الآلهة الكثرة القدرة، والمتحجرة التي هي خارج الإنسان، تُدير من الأعالي مصيره، الآلهة

سارقه الحربة مؤلده عسروب لاهوت السيطرة. «شعوب مختارة» بحارها.
هذه الآلهة القديمة التي حملت «أوريبيد» على أن يكتب: «وُلد اليونان
للحربة والبربر للعبودية». «رب الجيوش»، رب يوشع وداود الملعي إلى
التحريم أي إلى الإيابة المقدسة

العرب للملعي في ركضه انهوس إلى المشية والسلطة، ومعه تلك
البرود الأسطورية من العاية الإلهية أو من تقدمه كشعب مختار من
لأزل

وهناك الشرق الذي يعلن حله الأقصى عن أنه «بلد الشمس
الشرقية».

الشرق الذي سبق غيره آلاف السنين، بحكمة «لعرقه الروحية»،
وحيث اعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يدرك «الواحدة» والكل، الموجودين
والجاهزين، وأن يثبت جهما

ليس الخلود نقياً للموت لكنه تأكيداً للحياة الأبدية والمبدعة
في هذا «الهلل الحبيب» بالأراضي وبالنفوس حيث تقرر اللقاءات
والصلوات بعضها ببعض، انبجست الشرارة.

الشرارة الإلهية، شرارة الوحدة الحية بين عالمين، شرق وغرب، الشمس
تشرق والشمس تعرب وستولد من جديد غداً في أفق الآخر إن ساعدها
إنسان على ذلك، ليكون، كما كتب روادشت أول سبي للوحدة الشامة
«من الذين يعملون، منذ الصباح، على ريادة النهار».

حشد وُلد الإله الذي لا اسم له، إله هيراقليط «أفيس»، المبتسر هو
يضاً بالوحدة الثانية، الذي يرى أن «العلم ناز متفقد أبداً تشتت وتطمي
بحسب قوانين محددة».

على هذه الأرض، أرض الرسالات الإلهية، والتلافج الحبيب

الروحانيات العبدية، اتحد الشرق والغرب، وتحتد في إسب كان يشق منه
الإلهي يسوع لقد علم يسوع أن الآلهة نفسها نموت وأن موتها
لا ينفصل عن الحياة في البعثات التي لا تنقطع.

على الحد الفاصل بين هذين العالمين، في هذا الشرق الأوسط، قال لنا
آباء الكنيسة المعنى الحقيقي «البشارة» بها التجسد صر الله إنساناً
ليمكن الإنسان من أن يصير إلهاً:

كان يمكن للملحمة الإنسانية أن تبدأ. لكنها، هي أيضاً، سم تهص إلا
من كبرياء إلى كبرياء.

إن آلهة الأساطير القديمة الغيري سرعان ما أعادت، مع بولس، يسوع
إلى الحق العام الذي لآلهة القوة القديمة، «بحروبها المقدسة»، وحروبها
«الصلبية»، ومحاكم تنفيذها، و«تعاليمها المقدسة» مع جميع آلهة المال

كان هناك أيضاً الجور الباهر، عبقرية محمد ومصوّفه الإسلام الدعاة
إلى وحدة الإيمان، إيمان إبراهيم ويسوع كما هو إيمان «الأوبانيشاده»
وهيردافيتاه.

إيمان لفديس «مراسوا داسير» محطّم أوثان القوة والعسى، لكي تحيا
شعلة يسوع. إيمان «رايمول لوله» و«ابن طفيل»، شتي الإيمان الأولي
والأخوي حتى في رمس الحروب الصليبية. إيمان «كارديال» «ديكو» الحاتم
في «سلام الإيمان» يجمع شامل للديانات في الساعة نفسها التي كان
الترك يدخلون فيها القسطنطينية سنة (١٤٥٣)، وفي الفاتيكان الثاني للبابا
يوحنا الثالث والعشرين، والكثيرين من لاهوتيين التحزير. من (كيس) إلى
(أقبال) في الهند المسمنة وفي الغرب المسيحي من الأب (موشانان)
«أب (بانيكان) إلى الأب (غوتيريز) وإلى (ايلا كوربا)، في وجه أفواج
موت، إلى «ليوناردو دوف» في وجه المحققين.

لكن الديانات التقليدية انحسرت في منحوتاتها، وحقوقها القاصرة على أصحابها، من قسطنطين إلى جميع قلة الإيمان الصمّة بدءاً من صوف الحرم الرومانية، ومن ملوك إسلام البترول المتفهرين، إلى الفقهاء الجبهة الخدم الدين يصلحون في الغالب ليكونوا الصامنين بهم باسم التقاليد المرتفعة.

ماضى الإيمان محتاجاً إلى «نهر النار» (موربانغ) الذي يحترقنا من محاولة إسقاط يرادة قوة البشر على الإله أو الآلهة؛ «نهر النار» هذا دعاء ماركس ويتشبه إلى عبوره لبولوج الإيمان فيما وراء الاستلابات «الدينية» «ثمت وصير» لأن «الواحد والكل» اللذين علينا أن نهتدي إليهما لكي نصح الإنسان الإله الذي بشر به آباء «كادوسيا»، بتماهيان مع وحده الحياة وكتبها في إبداعها المستمر للحديد الشرق يدعونا إلى أن نكتشف في «الواحد والكل» اللذين هما واقعنا الحقيقي، أن نكتشف «الفعل» الذي يكون كياناً.

عسى أن يتذكر العرب أن لا نهاية لتاريخ وأن الإنسان إله في طور إرهاره.

ملحقات

١. هل توجد أدلة على وجود الله؟

أفلاطون في الكتاب العاشر من قوانينه هو أول من اعتقد أن البرهان ممكن^(١).

البرهنة بسيطة: إن ما يدعوه بموجب ثنائياته الأساسية، ثنائى النفس والجسد، «المادة»، لا يمكنها إلا بقى الحركة. ولابد من محرك أول وادى^(٢) فالنفس وحدها يمكنها أن تكون مصدر الحركة الأبدية. هذا أيضاً مظل في مستوى الكلمات وتعريفها: النفس = مصدر الحركة.

الحركة في العالم لا يمكن أن تُعزى إلا إلى النفس، نفس العالم. لقد حلت محل تفسير كلمة نفس العالم أو الله. هذه الحيلة العقلية صوف تُسقى في علم اللاهوت المسيحي: الدليل الكوني. وذلك مجرد طريقة للفن: لا أدري، ولإطلاق اسم على جمل العلة الأولى.

ويرى أرسطو أن الحركة ليست بغيراً في المكان لكنها انتقل من المكان إلى الواقعى بسم الأشياء أو الكائنات الحية بمؤاً يتبع لها أن تتبع ملء تفشعها وهذا أيضاً لم يمكن تفسير التطور فأطلق عليه اسم هو «المحرك الذي لا يتحرك» والذي يدعى كل شيء إلى كماله وكما أطلق سابقاً على العلة الأولى اسم عوضاً عن تفسيرها، فكذلك هذا لم يمكن

(١) في الجمهورية خوف الله على أنه يماهى مع الخير، وهي فضيلة اختيار الأفعال ليس غير. واحيدان كلمة بأخرى: الله خير.

تفسير الغاية الأخيرة فأطلق عليها اسم: سُدعى تلك الرغبة التي تحرك
«الكائنات» نحو كمالها «المحرك» الذي لا يتحرك، فكذا الفكر، وفي علم
اللاهوت المسيحي الذي تبنى هذه العقلانية اللفظية الخالصة: الله.
وسيكون هذا هو برهان الغائية الذي سيدعي: «البرهان العالي».

وأخيراً فموجب مبدأ اليوناني الذي يُعَدُّ فيه المَعْهُومُ (أي الكلمة) واقعاً
مطابقاً للكائن، ولدت فكرة استنتاج (وجود) الله من الفكرة التي تكونها
عنه.

كل شيء يبدأ لدى اليونان، بالتعريف بقول القديس «اسلم». «الله»
هو الكائن الذي لا يمكن أن تفكر في وجود كائن أكبر منه. وهذا برأيه،
مَعْهُومٌ لا سبيل إلى رده: «فحتى الأحق الذي يقول في قلبه: الله غير
موجود، يملك، من أجل إنكاره، فكرة عن الله» وفي هذه الحالة «الكائن
الموجود أعلى من الكائن غير الموجود».

وجود الله إذن، حقيقة مؤكدة إذ أن عدم وجوده لا يستجيب
لتعريف الكائن الأكبر ذاك الذي يملك الأحق ذاته معهوداً عنه.

لقد أظهر راهب هو «غوبلون» بطلان هذا الرعم: أي استخلاص
الواقع من المَعْهُوم، أي القفز من فوق الظل.

المطلوب بكل بساطة الاعتراف، ضد هذه البراهين المزعومة، بأن
الإيمان، ليس له طابع اجواب بل طابع السؤال.

وبعد ذلك بقرون، رَدَّد «ديكارت» الذي أظهر «جيسون» أنه آخر
«انطرسيين»، المعالطة ذاتها، في الجزء الرابع من «مقالة في المنهج»، وفي
القسم الخامس من «تأملاته»، وفي القسم الأول من «مبادئ الفلسفة» (١٤)
- (١٨).

هذه الالتواءات اللفظية تُقْع، فيما وراء الكلمات والورق، تجربة

واقعية: تجربة جهالاتنا وتبعياتنا. فنحن لا نستطيع أن نجيب عن مسائل
أصولنا الأولى، ولا عن مسائل عاياتنا الأخيرة، ونحن نعي أن سياحنا هي
أنفسنا، وأنها تنتمي إلى كل أكبر منا.

إن القلق وراء هذه المسائل الحيوية: من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟
وما نحن؟ لا يمكن أن يُسَكِّه هذا التيسر وهذا الهدر عن «البراهين» أو
الأدلة «الزعمية» ينطلب، في الواقع، فعل الإيمان. فعل الإيمان بكل معنى
الكلمة هو فعل لأن المقصود الترائ حياه بأسرها، وفعل الإيمان، لأن المقصود
فراز مسؤول لا يرتكر على أية مسالية من الوقائع، ولا على أي قياس
منطقي. لا بد من الاختيار، وعلى مسؤولية من يختار. المظلة لا تنفتح إلا
عندما يقمر منها اعطلي، والاختيار العكسي يرتكر أيضاً على مستمه أنقي
عليها دستويكسي صوءاً ساطعاً دون الله (أي دون تأكيد معنى الحياه)
كل شيء مباح. ليس المقصود إنها بضاء بالشعور أو يُحشَى، وكأنه
طاعة أو قاض، بل المقصود اختيار حياة ليس فيها، عند البدء، مانوغد به
وليس هناك من يتظنرا

٢ - لاهوت القرن العشرين وحوار الحضارات

في لاهوت النصف الثاني من القرن العشرين، أي بعد الحرب العالمية الثانية، كانت مشكلة «الإنسان» في المستوى الأول.

تصدى اللاهوت للترعات الإنسانية المعاصرة وسعى جهده إلى دمجها في الإناسة (الأنثروبولوجيا) المسيحية.

في المرحلة الزمنية الأولى (حتى ١٩٦٥) كاد الاتجاه الغالب هو خلق «وجودية مسيحية».

وبعد ١٩٦٥ تحولت المشكلة إلى التصدي للماركسية، وحتى إلى دمجها وتجاوزها.

في المرحلة الأولى، كانت لأعمق اللاهوتيين مراجع أساسية: كيركيجارد (رائد الوجودية المسيحية قبل قرن)، وأقرب منه، هيدغر، جاسبر، غامبريل ماوسيل وسارتر. ولاهوت كارل بارت.

المشكلة المركزية هي المواجهة بين الذاتية والتعالي. بعد محاصرة سارتر المدونة سنة ١٩٤٨: «الوجودية نزعة إنسانية»، غدا النقاش «حول الإنسان» بالنسبة إلى الكثير من اللاهوتيين، غدا، بصورة جوهرية، مقابلة مع الوجودية.

لاهوتيان بروتستانتين من هذا الجيل، وهما رودولف بولتمان وبول تيبش صمما الوجودية إلى لاهوتهم.

أما بولتمان فإن نزع الطابع الأسطوري عن الانجيل يتماهى مع تأويله لوجودي. (انظر: Le kerygme et le mythe)

وأما «تيلش» فيسعى إلى الرد بجواب إنجيلي عن الأسئلة الوجودية التي تعرض للإنسان (اللاهوت المنهجي).

وفي المنظور اليهودي، يعتبر «مارتان بور» الله على أنه ال «أنت» للطلق، مؤولا هكذا «العهد مع الله» وكأنه صلة بين ذاتين. شأنه شأن كارل بارت الذي كتب: «الأناء» الحقيقية تعني: أنا هي اللقاء (اللاهوت البروتستانت في القرن التاسع عشر).

القس «بونهور» (أعدمه النازيون في ١٩٤٥)، الذي لم تزل مسيحيته اللاهوتية تؤثر تأثيراً كبيراً في اللاهوت، كتب: «التجربة الوحيدة للتعالي أن يكون الإنسان للآخرين» وأيضاً «التعالي ينحصر في ال «أنت» الأقرب» (للمقاومة والخصوع).

ليست هذه سوى أمثلة قليلة، يبرز الأمثلة، على ذلك الاتجاه إلى الحديث عن «الإنسان» في ذاتيته، مستعلة عن الشروط التاريخية والاجتماعية والسياسية التي نعيش فيها.

هذا الاعتنا على الإنسان وعلى العالم (بما وراء اللاهوت) الذي يسيطر عليه حتى الآن الفكر اليوناني، والمركر حتى في مطلع القرن العشرين على فلسفة مدرسية حديثة وعلى تصور كنسي مركزي) كان المقدم بين اللاهوتيين النمودجين فيه هو الأب «كارل راشر» في ألمانيا والأب «شينو» في فرنسا.

وعما له دلالة أنها كليها كائنات كخبيرين، أهم ملهمين ومحررين للتمتور الأكثر تجديداً في مجمع الفاتيكان الثاني.

ولا يقل أهمية عن ذلك أنها هما وتلاميدهما كانوا أشهر المشاركين الكاثوليكين في «حوارات مسيحية» أدار كسه، التي نظمت في أوروبا من قبل مركز الدراسات والأبحاث الماركسية الذي أنشئ سنة ١٩٦٢، ومن

قبل الجمعية الأعوية البوليسية التي يقودها في النمسا الأب (كيلتر)

وقد اعترى ك. ديال «كونيج» الذي عيّنهُ المجمع رئيساً للجنة الخاصة بعير المؤمنين، هذه المذاهب مرغوباً فيها، وشجعها.

جرت هذه المذاهب إذ شكل بدوت عالمية كبيرة بين مسيحيين والماركيين (في سالزبورج وفي «هيرين شير» في ألمانيا وفي «ماريك» لاربي» (ماريباد) في تشيكوسلوفاكيا) واستشرت في أوروبا بأسرها وفي أمريكا وفي فرنسا بشكل أساع الفكر الماركي.

حدث المصطف اللاهوتي الكبير في سنة ١٩٦٥ وفي سنة ١٩٦٦ سنة ١٩٦٥ هي قبل كل شيء اختتام مجمع الفاتيكان الثاني الذي يشكّل الحدث الأساسي. سنة ١٩٦٦ هي المؤتمر العالمي لمجلس الكنائس المسيحية الذي انعقد في جنيف، في تموز، حول موضوع الكنيسة والمجتمع، وفي نصه النهائي فتح الكنائس البروتستانتية والأورثوذكسية فسحة عريضة للتفكير اللاهوتي في صلاته بالمجتمع.

هذا الأمل بالتحوّل يتأكد بقوة أكبر أيضاً في مؤتمر «ميدلان» ١٩٦٨ لأسقفية أمريكا اللاتينية.

إن لاهوتاً جديداً أخذ يُولد ويتطور: وهو لا يتصدى فقط لمشكلات الإنسان الفردي، خلافاً للتيارات الوجودية القديمة، بل لمشكلات الممارس الأخلاقية والسياسية وتحوّل المجتمع.

لقد هيئت التربة بسلسلة من المناقشات، في الحلي اللاتيني بين الوجوديين والماركيين، وقد بلغت ذروتها في المواجهة الهائلة في «نوتويليه»: كانت جميع صلاتها ولشارع مرّودة بمكبرات الصوت لاستقبال ٦٠٠٠ طالب، في ٧ كانون الأول ١٩٦٦ كان يرافق سار «هيوليت» مدير دار المعلمين العليا، ورافقي الغريالي «جان رينيه منجيه»

من معهد جتري بوانكاره.. وقد نُشر النقاش مباشرة، في «مستورات بلون»، وشكّل، لدى الشباب، بداية انتقال من الوجودية إلى الماركية.

هيئت التربة أيضاً بالمناقشات بين ماركيين ومسيحيين حول عمل الأب «تيلاردي شاردان». منذ ١٩٥٩ حدث «مستوراتي عن الإنسان» (الوجودية والفكر الكاثوليكي والماركية) في الأب «تيلاردي شاردان» معلماً للأمل.

فماجد الذي بدنه، جهد العالم ولكهن، «اللقاء العوي الحية في عصر»، سواء أكانت في العلوم أم في بناء مستقبل، ولكي يدمج في رؤيته دينامية ومعدلة معنى ما يتطور، مد شكّل الأرض وتطور عدم الحياة إلى جهود الناس لبناء مستقبلهم، أتاحت رؤيته للعالم افتتاح النقاش الأساسي مع الماركيين النقاش حول معنى المستقبل. وتنبّت الكلمة التي حياها بها الأب «دي لوباك»: «لقد أثر في الأبناء» وأكثر من ذلك لقد أبقت الحياة.

ومن الخير الإشارة إلى أنه في اللحظة التي نصّ فيها قرار من محكمة السدة الرسولية في ٦ كانون الأول ١٩٥٧ على أن «كتب الأب تيلاردي شاردان يجب أن تُسحب من المكتبات ومن المدارس والمؤسسات الدينية، ويمنع الأئمة من أن يُقرأه إلى لغات أخرى»، توصلت إلى طاعة ترجمة روسية في موسكو لـ «الظاهرة الإنسانية» لتيلار، وكتب لها ترجمة متحسنة.

كان الأب تيلار، رائد روح مجمع الفاتيكان الثاني، يريد أن يتقل من «مسيحية ازدراء العالم أو الهروب» إلى «مسيحية التجاور والتطور».

«لقد وقر التربة لحوار محسوب.. لأن هذا الحوار لم يُفسد، منذ البدء، لا الشعله بالمحافظة الاجتماعية، ولا حذر حيل العلم وفرح الحياة. (مستورات الإنسان ١٩٥٩).

حرى أول حوار كبير بالفعل، في باريس، أمام ٣٠٠٠ شخص، في سنة ١٩٥٤، بلاتة كاثوليكين وثلاثة ماركسيين، انطلاقاً من أعمال نيلا وطمح لحوار على الفور بعنوان «الأخلاق المسيحية والأخلاق الماركسية» أما على الصعيد الأيديولوجي، فقد ظهرت العلامات الأولى للتحول الكبير في سنة ١٩٦٥: لم تعد المشكلة المركزية، لدى المسيحيين، دمج التعريفات الوحدوية حول الدانة، بل الماركسية الأمية ببرنامج ماركس ولم يفعل الفلاسفة شيئاً حتى الآن سوى تفسير العالم، وانطولوج لا تغييره» (الطروحة الحادية عشرة حول فيورباخ).

وكان قد نُشر في سنة ١٩٦٤ «اللاهوت الأمل» لبروتستانتني جورج مونتمان، بتأثير بالغ من مبدأ الأمل للماركسي «أرست بلوك» الذي أعاد، إلى داخل الماركسية انتظار المسيح والطوباوية وهما تلعبان، كما قال، في العمل السياسي، دوراً شبيهاً بدور العرصة في البحث العلمي، على اعتبار أنهما استباق حلاق للمستقبل. وفي سنة ١٩٦٥ بنط الأمل «شبهه» في «الإنجيل في الزمن» اللاهوت المادة وهو امتداد لـ «اللاهوت العمل» في ١٩٥٥.

وفي ١٩٦٥ ظهر في أمريكا أروخ الكتب اللاهوتية وهو «المدينة الزمنية» لهنري كوكس. وليس في هذا الكتاب النعثة النبوية التي لدى «مونتمان»، لكنه يعتبر التغيرات السياسية منطقاً للتفكير اللاهوتي والكنسي.

وفي ١٩٦٦ نُشر «الإصلاح الجديد» للأسقف الانجيلكاني جون روسون وفي السنة نفسها أخرج جوهان باتيست مينر، في ألمانيا «اللاهوت السياسي».

وسنة ١٩٦٥ هي أيضاً سنة ظهور كتابي: «من الحرم إلى الحوار» ماركسي يحاطب المجمع» (وقد ترجم إلى أربعة عشرة لغة، حتى الياباني).

وهو يقع في مركز الحوار بين اللاهوتيين المسيحيين والمطرح الماركسيين وما أُنْجِمْ إلى الألمانية حتى كتب الأب «كارل راينر» مقدمته، وفيها غرض فكره الأساسية «المسيحية هي دين المسفل المطلق» الذي لا يمكن أن تكون الماركسية إلا مرحلة فيه. ويدعوني هارفي كوكس إلى «هرفاردا» لمواجهة كبرى. ويقارن مونتمان، في ألمانيا، أهمية محاربي محاولة «أرست بلوك» من أجل لاهوت الأمل.

وفي كندا، ومن حوارنا في معهد ساك ميشيل في تورنتو، يستمد «ليلى ديوارت» كتابه: «مستقبل الإيمان».

وفي ١٩٦٧، كتب الأب كوتيه «مسيحيون وماركسيون»، حوار مع روجيه غارودي. وفي السنة نفسها، نشر أستاذ في الجامعة الحبرية «السليريسة» في روما، الأب «جيرادي» (ماركسية ومسيحية) مع مقدمة من الكاردينال «كوبنغ»، وتذييل من «رووجيه غارودي».

وفي ١٩٦٨ ظهر في نيويورك «حوار مسيحي ماركسي» بين اليسوعي الأمريكي «كاثان لوبر» ورووجيه غارودي.

وفي ١٩٦٩ كتب لاهوتي إسباني هو «غونزاليز روي» (وهو أحد المشاركين في حوار ساربرورج) «نعتقد بعد ماركس» وفيه يطرح إشكالية المركزية: الله ليس حصصاً لتجهد الإنسان ويمكن أن يُسجَل بروميثيوس في التفرغ المسيحي. ومحاربة العمة الإلهية لاتعيق بناتاً حريه الإنسان الكاملة.

في ١٩٧٠ جرى، في إيطاليا، في «أسيز»، لقاء بين الأب بالدومني، رئيس دير «ميرول»، واللاهوتي الإسباني «غونزاليز روي»، واللاهوتي الفرنسي «رنا بستر»، ورووجيه غارودي، ونُشر الحوار في إيطاليا وفرنسا بعنوان: «مجازفة تدعى صلاة».

كتب الأب «الفريدو فييرو»، مدير المعهد الجامعي لللاهوت في مدريد، في كتابه «الأنجيل المناضل»: جرت لقاءات بين مسيحيين وماركسيين في ١٩٦٤ - ١٩٦٥. إن الحوار الصريح والضمي بين اللاهوتيين والمطربين الماركسيين أثر تأثيراً حاسماً في منعطف اللاهوت، إلى حد أن اللاهوت الحالي، لاهوت الثورة والتحرر يمكن أن يُعتبر كأنه ردُّ فعل نوعي للمسيحيين على صدام الماركسية الجديد في النصف الثاني لهذا القرن وإذا شئنا أن نحدّد بدقة لحظة القفزة اللاهوتية من الوجودية إلى السياسة، فيجب أن نشدّد على المحادثات بين المسيحيين والماركسيين لفرنسيين في ١٩٦٦ (في ليون وفي باريس)، ولقاء سالزبورج في ١٩٦٥، مع اللاهوتيين وأبرز منطري الماركسية.

كانت النتيجة الرئيسية لهذه الحوارات التوجّه الجديد للمحاورين الماركسيين والمحاورين المسيحيين في آن معاً.

هذه اللقاءات مع اللاهوتيين المسيحيين تحدّت الماركسيين إلى البحث عن أبعاد مفقودة للإنسان.

أما اللاهوتيون الكاثوليك أو البروتستانت فقد قادهم نقد ماركس للإيديولوجيات إلى التصدي للمشكلات العملية تصدياً محسوساً على نحو أكبر من ذي قبل.

كتب الأب «شيلبيك»، إن تفسير مملكة الله يقوم قبل كل شيء على جعل العالم أفصل، وكتب الأب «غونزاليرز» في كتابه: «الإيمان الترام» كان المعصّر الأبعد والأحصب هو لاهوت التحرر.

نجمت من هذه المواجّهات نتيجة أخرى ليست أقل أهمية: ذلك أن البحث المشترك لما هو جوهرى سمح، في عدة نقاط، بتجاوز الشروح القديمة بين اللاهوتيين البروتستانت والكاثوليك. فلأول مرة منذ الإصلاح الديني، شدّد على المشكلات المشتركة.

ولدى لاهوتيين التحرر تلامي عمل اللاهوتي أروبن بيره مع عمل بطرائه الكاثوليك وفي أوروبا تابع لاهوتي الأمل الكبير غس اهور عن مولتمان أبحاثه النقدية بالروح نفسها التي لدى الكاثوليك في بحث ميترا في لاهوته السياسي.

لقد شعروا جميعاً منذئذ بالمتطلبات الجديدة لكل لاهوت: أن يكون عملياً وعمومياً وعمدياً.

٣ - مسيح القديس بولس هل هو يسوع؟

لدى كل نقاش حول كتابي: «هل نحن بحاجة إلى الله؟» أحسست بالضيق الذي تُحدثه القضية التي طرحها هذا الكتاب: «إن مسيح القديس بولس ليس يسوع». وإله بولس ليس إله المسيح: لقد أرسى بولس، على نقيض رسالة يسوع التحررية، الأساس النظري لكل لاهوت السطرة وليس هذا اللاهوت ولا هذا الإله هما اللذان نحتاج إليهما.

إن ضغط الكثير من مستعصي الذين أعرف حسن نيتهم الثام (ولدى بعضهم الكفاءة كمستعصين) وإن لم يُعربوا عه على الملاء، هو ما قادني إلى تفكير أعمق في المسألة التي طرحها هذا الكتاب.

خواطري الأولى حول بولس تغلّت بالشروح الكبيرة لـ «رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية» من لوتر إلى كارل بارت. والأعمال التي لا تُحصى للاهوتيين الكاثوليك، حول القديس بولس، تركت في هذا الانطباع وهو أن بولس هو الترجمان الأمثل للأناجيل الأربعة المتوافقة.

فلا هؤلاء ولا أولئك ينادون عليهم أنهم يعلقون أهمية على أن رسائل بولس (التي يسميها هو نفسه في الغالب: «الإنجيلية») كانت، بحسب تفسير معظم الشراح المعاصرين، الكاثوليك أو البروتستانت، أسبق بعدة سنين من الأناجيل الأربعة المتوافقة، بخمسة عشرة سنة على تحرير أقدمها إنجيل مرقس.

هذه الأسبقية لبولس توضّح أنه لم يكن شارحاً لشهود حياة يسوع، لكنه كان يسبب من عقيدته الصوفية، وصرامة لاهوته المهيجة، وموهبه

كمُنظّم للجماعات، كان الملهم لتفسيرات أقوال يسوع، وأفعاله، وحياته من الدين قاسموه إياها.

ولكي أقرأ الإنجيل متى والإنجيل مرقس والإنجيل لوقا استندت إلى الموجز المستقصي للأب (مينواه والأب «بواناره» من مدرسة القدس التوراتية. وبعد ذلك أخذت أقرأ وأعيد قراءة رسائل بولس بطريقة «سادجة»، أي، بعض النظر عن آلاف التفسيرات القديمة لهذه النصوص، وعمماً حتى عن مراجعة المختصين (عني الأقل في زمن القراءة الأول).

هذا الجهد للتصدي للنصوص «بعينين جديدين»، أو على الأقل بعينين لا تستوردان شرح عشرين قرناً، هذا الجهد قلب جميع قناعاتي السابقة. وقد قادني إلى أن أطرح على نفسي الأسئلة الأساسية التالية:

١ - لماذا لا يستشهد بولس بكلمات يسوع وأفعاله؟ أكانت قليلة الأهمية إلى هذا الحد لدى المسحurin؟

(١) الاستثناء الوحيد الظاهر هو استذكاره المشاء السري في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١١ - ٢٣ - ٢٩). والعرب أن بولس الذي لم يكن حاضراً شخصياً في ذلك المشاء، لا يرجع البتة إلى الغير كانوا شهوده على العكس إنه يلعب إلى «أنه تسلّم من الرب مأسسته» (١١ - ٢٣).

وليس في أي من الظهورات التي يقول أنها حصلت له شيء، يشير من قريب أو بعيد إلى هذا الاتصال. فما يقوله بولس إذن في هذا المقطع ليس الاحتفال بالفتح كما أمكن أن يبيته المشاركون في المشاء السري، بل هو طريقته الخاصة في تصوّر مر القربان للقدس كمؤسسة «جديدة» منسوخة عن علاج العهد القديم. وروايته مبينة من مجموعة متطابقة من الاستشهادات: «هذه الكأس هي العهد الجديد» (١١ - ٢٥). على طريقة موسى وهو يستذكر «العهد» (خروج ٢٤ - ٨) ولوقا (٣١ - ٣١) وهو يقدس «عهداً جديداً» في أشعيا الذي تبدأ «بالوعدة السياسية» لجميع الشعوب (أشعيا ٢٥ - ٦). لوقا وحده، أقرب تلاميذ بولس ومعاويه يربط هذا الاحتفال بطقوس الوعدة الفصحية لدى اليهود (متى ١٦ - ٩ - ٨) في كلامه على «العهد الجديد» (لوقا ٢٢ - ١٩) بينما لم يذكر متى (٢٦ - ٢٦ - ٢٩) ولا مرقس (١٤ - ٢٢ - ٢٥) عهداً جديداً. وبطبيعة لوقا من جهة أخرى هناك تأويل هذا المقطع مدّكر بأن كل شيء جرى «كما هو مكتوب» (لوقا ٢٢ - ٢٢).

وإذا لم نجد، بالعمل، في الرسائل كلمة واحدة عن أقوال يسوع وأفعاله وحياته، وكأنه لم يبدأ وجوده إلا بدءاً من موته وقيامته، فحين نجد بالنقل أكثر من مائتي استشهاد من العهد القديم تسج لنا إعادة تكوين صورة للشخص (المسيح).

ألم يحمل يسوع إذن شيئاً جديداً بالنسبة إلى العهد القديم؟ ألا يكون سوى ممثل مُصاع يمثل لسارايو لمكتوب فيه؟

٢ - وإذا كان بوس، بعد لرؤيا المُرارة التي أفاد منها، يريد أن يحمل رسالة يسوع، فمماذا انتظر ثلاث سنوات يذهب ويستعلم عن حياته من الذين كانوا شهوداً على هذه الحياة؟

على العكس إنه يفتخر بذلك ويضع نفسه فوقهم: لقد «أمرني من بطر أمي» (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ١ - ١٥). وهو يحرص على أن يبشر، «ولم أمتشر لحماً ولا دماً ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي» (رسالة إلى أهل غلاطية ١ - ١٦ - ١٧).

ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرّف بطرس فمكث عنده خمسة عشر يوماً ونكسني مع أر عميره من الرسل إلا يعقوب أخا الرب (رسالة إلى أهل غلاطية ١ - ١٥ - ١٩) وهو يبرز ذلك بالأمر الخاص الذي تلقاه، وأعماله هكذا من ذكر يسوع الحي وهو يتكلم وتصرف. «الأنجيل الذي يبشر به إنه ليس بحسب إنسان. لأنني لم أقله من عند إنسان ولا تعلّمته، بل بإعلان يسوع المسيح» رسالة إلى أهل غلاطية (١ - ١٢).

كان التلاميذ المباشرين ناساً، وهو يفرض عن الاستعلام منهم. لكن ألم يكن يسوع إنساناً أيضاً؟ الحق أن يسوع في الإنجيل بولس «الإنجيلي» (رسالة إلى أهل رومية ٢ - ١٦) لا يبدو كإنسان قط بل كإله، له صلات القسرة.

العرب أن بولس لا يتحدث عن العمل الرسولي للشهود إلا ليستحضر نراعاته معهم. وهو على يقين تام من أنه هو وحده المؤتمن على الرسالة حتى إنه لم يعد إلى القدس إلا بعد أربع عشرة سنة من مهمته. «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضاً إلى أورشليم» (رسالة إلى أهل غلاطية ٢ - ١) وذلك ليتكرّر بالإيجاز «وعرضت عليهم لأجيل الذي أكرّز به بين الأمم» (رسالة إلى أهل غلاطية ٢ - ٢) و «أريت أنهم لا يسلكون باستقامه حسب حق الأجيل» (رسالة إلى أهل غلاطية ٢ - ١٤).

وهو يتعد بحذو القديس بطرس «واقفته مواجهة لأنه كان ملوماً» (رسالة إلى أهل غلاطية ٢ - ١١). واللوم الذي يوجهه إلى بطرس هو الانتهازية: كان بطرس يعيش في القدس في وسط يهودي، ويتناول طعامه مع اليهود. وينتهي كل شيء، بحسب رواية بوس، بتسوية «أؤتمنت عني أجيل العلة كما بطرس عني أجيل ختانه» (رسالة إلى أهل غلاطية ٢ - ٧ - ٩).

أكان ذلك مجرد التقسيم الإقليمي أم كان ذلك خلافاً منهجياً؟ تصوّر أن عن الله وعن الكلام على الله يتواجهان تواجهاً لا سبيل إلى التوفيق بينهما.

إنا أننا لا نعرف عن الله إلا ما كشفت عنه حياة يسوع وموته وإما أننا لا نعرف عن يسوع إلا ما بشر به العهد القديم.

وفي هذه الحالة الأخيرة لن يكون هناك كسر في التاريخ: إله المسيطرة التغلبي، يُرسل لزمي معلوم إلى الأرض بدلاً ليعيد، بعد التغلب التي فرضها العوصى، النظام القديم، نظام التراتبات والصاعه.

لاهوت السيطرة أم لاهوت التحرر؟ ذلك هو الخيار المخرج.

حق أن يوس لا يعرف أنه يحمل نجل يسوع، بل «جيل الله» ومسيحه
 اندودي الذي ترجمه إلى اليونانية «كرستوس»^(١) وهو يرمي حزم على
 كل من يشر بأحد آخر غير نجيته كتب إلى أهل غلاطية (١ - ٨)
 «وبكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فيمكن
 محروما»، وهو يسير على قاعدة (غريبة بالنسبة إلى مبشر) وهي ألا يكر.
 بعد رسل آخرين «وبكن كنت محترفاً أن أشر هكذا بس حيث ينبغي
 المسيح لئلا يبي على أمامي لأجر» (رسالة إلى أهل رومة ١٥ - ٢٠).
 هذا التحول من حياة يسوع موضوعاً «والقصة» إلى مهمة مسح المجدد،
 تمت على «رؤيا» يوس على طريق دمشق فهو لم يكن مجرد رفيق تلك
 حياة الموضوع وأي تلقى بالاتصال مباشر اتصال «الوحي» شخصي.
 رسالة ومهمة. ومبادئ اعتبر رسالته أعني من رسالة شهود تعبد.

ومع أنه يعتبر نفسه «آخر الكل» في عدد بدين طهر لهم يسوع، لأنه
 «أصغر الرسل» «وكالبقعة» (رسالة إلى أهل كورنثوس ١٥ - ٨)، إلا أنه
 يصيب: «إن أنا تعبت أكثر منهم جميعهم. ولكن لا أنا بل سعة الله التي
 معي» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥ - ١٠). لأن
 عرف يسوع لا في حياته التاريخية وإنما بعد مجده قيامته نسب يوس
 مبشراً. وعلى نحو أفضل من أي آخر «بحسب الروح»، لا «بحسب
 الجسد» ويتصل مباشرة.

وهو يستذكر اليوم بدي أراد الله فيه أن يعلن أنه في «رسالة إلى
 أهل غلاطية ١ - ١٥»، إن ظهور القائم من الموت، لا كونه قد عرف
 المسيح تاريخياً، هو ما يؤسس رسالته «وإذا كنا قد عرفنا المسيح حسب

١. أنه إن المسيح Christ يتم مع هذه الكلمة مع جميعه، إذ الترجمة اليونانية بنفسه
 القديسة (مسيح الشخص messie)، مسح إسرائيل هو «يهو» أي «المسيح» الشخص
 سنكون حاشية التاريخ اليهودي.

جسد، بكن لا لا يعرفه بعد» (الرسالة صلبة إلى أهل كورنثوس ٥
 ١٦).

٣. بعد لا شكك البتة عن مريم بعد، ويكفي بقول عن يسوع به
 «ند من امرأة» (رسالة إلى أهل غلاطية ٤ - ٤) وكان بولة مريم «تاتالي
 الطابع» لخارج لمطبعة في هذه «ولادة» تعرف (أدراج ليريجي يسوع في
 درية داود؟) فهل هذه «امرأة» فليبه الأهمية لدى الكاثوليك إلى حد الذي
 عرفوا معه لوس أنه جعل منها «من فقد» لا روح له الذي نفع منها،
 بل لوارث داود؟

٤. ألا يعتبر ذلك تعبير «خطير» بحدود. للمسيح التي بشر بها
 يسوع، والتي هي هذا، والتي هي حاضرة لأن أقرب لمسيح وأفعاله وحياته
 ندش حضور هذه المملكة في حياة الله «هل المقصود منذ الآن وإعادة
 ملكة داود» أثناء محي «ثاني» وهل «حق المجيء الأول بحيث فُصل
 هدم الكلام على الحوادث التي طرأت على حياته وبهايته على الصليب،
 وبحيث كان من الضروري الوعد بمجيء ثان مسيحي، هذه المرة، وسيتم
 مع الآمال المتشائمة»^(١)، أي مستنداً إلى ملائكة قوته معطياً بقمة لدير
 لا يعرفون الله» (رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ١ - ٨).

أهذه هي المملكة التي بشر بها يسوع والتي لا يكون الدخول إليها
 بالفتح بل بالترقد؟

لدى المواجهة بينه وبين الرسل في القدس وهي مواجهة انتهت بتسوية،
 استدكر بولس فقط توصية وصي بها: «أن نذكر الفقراء». وهذا عينه كنت
 أحييت أن أقوله» (رسالة إلى أهل غلاطية ٢ - ١٠).

وعند قراءة الرسائل، يبدو أن هذا التعهد لم يوف به. إن يسوع شهود

(١) المسيحية Messianiques

العيان يُشتر للمساكين والإنجيل (متى ١١ - ٥؛ لوقا ٤ - ١٨). أما بولس الذي لا يحتوي لاهوته المهجي (رسالة إلى أهل رومة) على كلمة «فقير»، فهو يطلب فقط من الأغنياء تبرعات دعونة القديسين. (الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس ٩ - ١) ويصف «وأي أشهد أنهم أعطوا من أموال أنفسهم» (٨ - ٣) «وبست أريد أن تكونوا أنتم على صيق» (٨ - ٣). أن تعطوا «فصالحكم» «فدخروا بذلك لأنفسهم رأس مالي راسد للمستقبل». (رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس ٦ - ١٩)

مثل هذا التغير بالقياس إلى ما يوجبه يسوع على الأغنياء، ألا ينفذ عند بولس، من قلب حقيقي لمفهوم «المملكة» التي بشر بها يسوع والتي تستحل قطعة جذرية مع جميع مفاهيم «المملكة» السابقة.

يسوع، بحسب بولس، هو «مسيح» اليهود؛ «لحقق المواعيد للآباء» (رسالة إلى أهل رومية ١٥ - ٨) مثله مثل داود. كما تشير بذلك هذه الملاحظة من T.O.B: «المنفرد إظهار الإيمان المسيحي منفرداً في ر. اليهود انكساراً حقيقياً»

نحن نلاحظ الجوهرية هنا، إن الإنجيل الذي يشر به بولس هو إنجيل إله اليهود لكنه يحمل إليه نتيجة جديدة: لم يعد «المسيح» وعداً. لقد جاء ابن داود، وسيعود بكل صفات قدرة رب الجيوش (وجميع الآلهة القدماء)، جاعلاً جميع الممالك تحت قدميه، وليس هذا على سبيل الاستعارة، بل على سبيل التطبيق العملي، كما هي شريعة لئيل، في العهد القديم: «إذ أنه من العدل، عند الله، أن يجازي بالصيق الذين يضايقونكم». الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكا (١ - ٦).

إن غضب اليهود التقليديين على بولس إذ يستهزئون به أحياناً أو بطردونه مبرر ومفهوم تماماً. فهو يستخدم مفهوماً ابتدعه النبي أشعيا عن «عبيد» أي عن قسم من اليهود ظلوا أوفياء سهو بالرغم من حادثة الآحاد

فيحتفظ لتلاميذه بعلامه «الاحتياز» هذه (الذين يسعون حبه، حتى إن لم يكونوا من نسل يهودي، وكانوا يوناناً، مثلاً، والذين يسعون ربه عن تاريخ «الشعب مختار» ويرون في يسوع «مسيحاً» قدم الشريعة ونواهد لمي وعد بها «الشعب المختار». تلك «اليقينة» الجذرية «الاحسر» بحسب بولس، هي تلاميذه

وهكذا فإن بولس قد صبح، لقرون طويلة، مسيحياً مُهوّدةً وعنى بقبول رسالة يسوع الجديدة، أدخل من جديد، ونصلحة نسجيه هذه المرة، مفهوم «الشعب المختار» الخاص بجميع الديانات القديمة

لقد شرع بولس في إعادة نهوود اليهود، في صيغة جديدة، به يحلق يهودية مُصلحة يتماهى فيها «المسيح» ويسوع، لكنه يسوع «مخلص من التاريخ» وعداً مسيحياً، «المسيح» المنتصر.

مذهبه كله متجذر في التقاليد اليهودية

- هناك شعب مختار، لكنه عندما يحصى الله الذي اختاره، تظل بقية أمة وتحتفظ بميزة هذا الاختيار ومن مفهوم «الاحسر» الاعتدالي لشعب من قبل الله تنجم الفكرة البوليسية عن «الاحتياز الأزلي» للمختارين والمستعدين

- إن «البقية» الحالية التي تحتفظ بامتياز «الاحتياز» تتكون من الذين قبلوا أن يكون يسوع هو «المسيح»، يهوداً كانوا أم لا. فليست طاعة الشريعة اليهودية هي التي تختص بل الإيمان بالطابع «المسيحي» يسوع الذي دعي منذئذ: يسوع المسيح.

وهذا يسمح بإدراج من ليسو يهوداً في «البقية» الأمة. من هذا يحسم مذهب «التبرير بالإيمان» ولكي يؤسسه يستند إلى مثل إبراهيم فهذا «أرامي» الذي جاء قبل موسى من يهودياً ولا يمكنه إذن أن يرجع إلى

الشرعية. إيمانه وحده بالله هو الذي يحسبه الخلاص.

مثل هذا التصور لم يكن غريباً كلياً عن الجماعة اليهودية في آخر مرمور من موخر كتاب الانصاف في مخطوط «قمران» يظهر موضوع التبرير بالإيمان وحده، وهو إن لم يكن تعبيراً عن التصور البولسي فهو مع ذلك تمثيل شائق له، كما يذكر «جيريمياس».

يمكن أن نسأل عما تركه هذه «العمدة» للإنسان من مبادي ومسؤولية عندما تنسب إليها الخارجية نفسها التي للشرعية اليهودية وبالمثل يوضح بولس: «بسم الله إما خلصتم». ولا بد لكم في ذلك إنباء موهبة من الله. وعلى ذلك ترث رسالة يعقوب: «كذلك الإيمان إن خلا من الإيمان فهو ميت» في داثه (٢ - ١٤ - ٢٦).

ويرى بولس أن روايته هي الصحيحة، وأنه يتكلم باسم الله: «يوم يدين الله سرائر الناس» على حسب انجيلي (رسالة إلى أهل رومية ٢ - ١٦).

لقد اضطربت اضطراباً عميقاً لما بدا لي هكذا وكأنه قلت من بولس لرسالة يسوع فيما هو جوهرية إشارة كملكه نقص قطعاً حذرة علاقاتها التقليدية مع القوة والثروة.

ينبغي لي أن أعرب عن امتناني للأب «ناسان» الذي حذرنني من أن أنسب إلى بولس قضايا كانت معمولاً بها، في زمنه، في العديد من الجماعات اليهودية، بل والهيانية.

وكذلك، في لموضوع نفسه، أنا مدين كثيراً للتفسير العلمي لـ «جوريف ريوس كامبس» الأسناد في كلمة اللاهوت في برشلونة.

إن متخذتي الشروحات المعوية والتفسيرية التي كرسها لأعمال الرسل ساعدتني على فهم أن لا بولس وحده، بل وحتى الشهود المباشرين لتعليم يسوع، وكلهم دور تكميلي يهودي، قد قاوموا قبول إعطاء «المسيح» الذي

كانوا ينتظرونه، لإعادة مملكة اسرائيل، وكم طال زمن نحتهم (حتى موت بطرس) إلى رساله يسوع الحقيقي «مملكة الله الشاملة» التي لا تمارسها لأي شعب. «لم تكن كيسة القدس مهتأة لامتياز بهذا الانساع». مع عدم المحافظة على امتيازات اسرائيل، حتى ولا امتيازات «المسيحيين» على الخطاة» (لوقا ٥ - ٣٢).

وبرأي «ريوس كامبس» أن بطرس إنما بدأ يعني هذه الوحدة الإنسانية منذ تحول قائد الملة «كورنيليوس» إلى الإيمان: وأصاف أن يسوع «أقامه الله دياتاً للأحياء والأموات» (أعمال بطرس ١٠ - ٤٢) وهي عبارة مفيدة رثدها بولس: (الرسالة الثانية إلى تيموثاوس ٤ - ١) ولم ترد في أي من أحاديث يسوع نفسه الذي لا يمتنع حذراً لتشير الذي رسم خطوط التعبير الأولى عنه بحلقات تنحدر نحو المركز، تشير جميع الذين كانوا يحفلون حتى الآن تلك الشمولية، بدءاً من اليهود أنفسهم.

ويعلن يسوع على العكس أنه يجب «أن يركز باسمه، بالثوبة لمغفرة الخطايا، في جميع الأمم، ابتداءً من اورشليم» (لوقا ٢٤ - ٤٧). إن لوقا، كتلميذ نجيب لبولس، يربط هذا الواجب طبعاً بالكتاب المقدس.

ألقى الله كل تمييز، لا بين المختارين وغير المختارين محسب، بل بين كل ما يفصل الطاهر عن غير الطاهر، والمقدس (السبت، المعبد، رجال الدين) عن الدنس، بدءاً من البشر وحتى الأطعمة. يقول بطرس: «أما أنا فقد أواني الله أن لا أقول عن أحد: إنه نجس أو دنس» (أعمال الرسل ١٠ - ٢٨).

وإذن فليس المقصود فقط ألا يُعتبر اليهود (شعباً مختاراً) (بينما خاطبهم بولس، حتى موته، قبل جميع الآخرين) وألا يُشتر اليهودي والآخرون إلا بعد أن يُبند الرسون من الذين حث أن الرسالة يجب أن تُوجه إليهم أولاً.

حيث حساباً لهذه التصحيحات المتعلقة بالتفسير والتاريخ، فيلزم لي أن ملاحظاتي حول دور بولس البارز في «النهضة الجديدة» تبرز.

وحيث أردت أن أتأكد إن كانت المسائل التي توافدت علي أثناء القراءة «الساذجة» قد طرحها المفكرون وإن كانت لقيت جواباً.

أولاً، فيما يتعلق بالجنة الجديدة لرسالة يسوع، ذلك الانسطار الاستثنائي الذي سجله في تاريخ البشر والآلهة. كما يؤكد اللاهوتي الانكليزي «دود» إن أقوال يسوع لا يضر بها لا في التعليم اليهودي ولا في القسوس المعاصرة. «لا يعني أن تعتبر مهمة يسوع محاولة لإصلاح اليهودية، إنه يحمل شيئاً جديداً كل أحده ولا يمكن أن يتفق مع النظام التعديدي»

مفسر آخر من كلية اللاهوت في زيوريخ، القس «ايتلبرت ستوفر» أكثر جذرية أيضاً: «بشر يسوع برسالة لله جديدة، ودين جديد، وأخلاق جديدة غير مرتبطة بالتوراة».

تبدأ القطيعة، برأيه، حين أرى يسوع رجلاً وأمره أن يحمل فراشه في يوم السبت. بهذه القطيعة الأولى مع الشريعة تبدأ إجراءات الحرم من كبار الكهنة. وهذه القطيعة تبعها كثير غيرها.

إن حياة يسوع خرق مستمر لشرائع التوراة اليهودية.

فبينما يحكم الله، في العهد القديم، على الذين لا يقبلون شريعته بالإبادة أو بعباد الهاوية (تشية ٢ - ٢٢؛ أشعيا ١٣ - ٢٩؛ أيوب ٢٤ - ١٩).

يقول يسوع على العكس: «إني لم آت لأدعو الصديقين بل للخطاة» (مرقس ٢ - ١٧).

سنا نجد، لدى الانجيليين أي رجوع إلى مذاهب السكان الوثنيين أو المشركين، وهي مذاهب أوجها إله قاس (تشية ٢٠ - ١٦) إلا عند بولس

الذي يسذكر استنصار الكهان كسابقه نشر بتصريحات أخرى (أعمال «رسول» ١٣ - ١٦ - ١٩). ويطرد بولس أيضاً الخطاة «كل واحد أو نجس أو طماع ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله» (رسالة بولس إلى أهل أمسي / ٥ - ٥) وذلك متناقض سافياً جديراً مع يسوع «إن العشارين والبقايا يسفونكم إلى ملكوت الله» (متى ٢١ - ٢٣) وحتى علي الصليب أجاب يسوع المحرم المصلوب مثله والذي تصرع إليه أن يتذكره: «حق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لوقا ٢٣ - ٤٢).

ويقول يسوع: «وأنا لأدين أجداء» (يوحنا ٨ - ١٥) «إني لأفعل شيئاً من نفسي» (يوحنا ٨ - ٢٨).

أما بولس فيقول، على العكس، وبروح العهد الجديد: «سأتي يسوع المسيح ليدين الأحياء والموتى» الرسالة الثانية إلى تيموثاوس ٤ - ١.

لقد انتهك يسوع الأمر بعدم الذهاب إلى السامريين الذين يعتبرهم اليهود مهرطقين وأساء من الوثنيين (متى ١٠ - ٥).

وقد عرضه ذلك لشبهة اليهود التقليديين: أنت سامري وبك شيطان! (يوحنا ٨ - ٤٨)

وبتهمة المريسيون بالحرم الأعظم، نقص حرمة السبت (متى ١٢ - ٢) (يوحنا ٥ - ١٦) ويستند المريسيون إلى (تشية ١٣ - ١ - ٦) فيخلصون إلى القول: «هذا الرجل ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت» (يوحنا ٩ - ١٦)

وطردوه: «لقد وُلدت بجملتك في الخطايا، وتعلّما... وطردوه» (يوحنا ٩ - ٣٤).

وأخيراً، فإن أعلى سلطة دينية. شيوخ الشعب ورئيس الكهنة «فصروا عليه بأنه مستوجب الموت» (مرقس ١٤ - ٦٤) واتهموه بالجديف،

وتظاهروا بالاعتقاد أنه دجال حين زعم أنه «مسيح» بالمسي الذي كان يفهمونه هم أنفسهم: الملك الذي يُعيد قوة إسرائيل.

وهكذا شكوه إلى بيلاطس، ولكي يحصلوا على قرار الحاكم حينئذٍ، إن أنت أضلقتهم فليست موابل لقيصر لأن كل من يجعل نفسه ملكاً يُقاوم قيصر (يوحنا ١٩ - ١٣) فترقد بيلاطس: «أصلب ملككم؟» نكر رؤساء الكهنة، اتعاويز مع شغل والدين تظاهروا بسبب سيادة الإلهم الذي لاسيادة لغيره، أجابوه: «لأنك لنا إله قيصراً» (يوحنا ١٩ - ١٥).

لقد شدد يسوع دائماً على أنه يعني أن يُطاع الله لا أن تُطاع التوراة وعندما لامه الفريسيون على أنه لا يحترم الشريعة، مثلاً إنه لا يقيم بالاغتسال التقليدي أجابهم: «تركتم جانباً وصية الله وتمسكتكم بتقليد الناس» (مرقس ٧ - ٨).

لا يمكن أن يكون هناك فصل أفضل من هذا الفصل بين الدين البشري عن ثقافة وتاريخ وبنى الإيمان، قانون الحياة الأبدي.

وهو يعلن أن محكمة الله قد حُلَّت: وليس المقصود بالمملكة تلك الأمور السياسية لإعادة إسرائيل: فهو يأكل مع العشارين والخطاة، مما يهبط الفريسيين المخطئين على التقاليد والتاموس (مرقس ٢ - ١٦)؛ وهو لا يصوم مثل الفريسيين (مرقس ٢ - ١٨). وفي اناصرة طرد من المجمع وحقق به في قراره (لوقا ٤ - ٢٨) وأعطى حجارة ليرجموه لأنه جَدَّف (يوحنا ٨ - ٥٩) وقال إنه أعظم من إبراهيم.

وأخيراً قضى عليه شيوخ شعب ورجال الكهنة «قاعاً» بالموت، لأنه يمزح للخطر حياة الشعب اليهودي بأسره. (يوحنا ١١ - ٥٠ حتى ٢٦ - ٤) حياة يسوع كلها، أقواله وأفعاله، هي في الواقع، إدانة للإيمان والتمسك.

اليهوديين. «لقد أثبت إلى هذا العالم للدينونة» (يوحنا ٩ - ٣٨).

إن إعادة النظر في الشريعة المكتوبة، شريعة التوراة، ومحرّماتها التي هي قصائد عصر وشعب، باسم مشيئة الله الأبدية التي يُعلن عنها كل فعل من أفعاله، وكل كلمة من كلماته: معارضة ما هو طقسي، بل معارضة أشدّها جسماً في الترتيب الكهوتي. السب. سلوكه مع النساء إنه يحاطب امرأة أخلاقها مريبة، سامرية، وهو الأثافي (يوحنا ٤ - ٩). ويرى دبعه نساءً، يسهن الحافظة مريم المجدل (لوقا ٧ - ٣٧) وهو يصرف الزانية دون أن يرحمها (حلاًفاً للشريعة اليهودية) يوحنا ٨ - ١ - ١١) وهو يعيد النظر في الرمز المقدس، والمكان المقدس: المعبد، وفوق ذلك كله، يُعيد يسوع النظر في العقيدة المركزية، إعادة إسرائيل كشعب مختار، على يد «مسيح» مكتلف بخلاصه مثل داود. إن تلاميذه وأقربهم إليه، اعتقدوا ذلك حتى موته.

وهو يصف الفريسيين أحبار التاموس الذين ظلوا «عمياناً» حتى الآن (يوحنا ٩ - ٤٠) بأنهم أعظم خطيئة لأنهم قالوا: «إنا نبصر» (يوحنا ٩ - ٤١).

ويُبرز يسوع سوء ثقة الدين بتهمونه بأنه يزعم أنه الله لأنه قال: «أنا والآب واحد» (يوحنا ١٠ - ٣٠) والذين رجموه من أجل ذلك. وهو يلجأ إلى كتاباتهم خاصة بهم ليوضح معنى أحاديته «أوليس مكتوباً في ناموسكم: أنا قلت إنكم آلهة؟ فإن كان التاموس يذهب آلهة أولئك الذين صارت إليهم كلمة الله...» (يوحنا ١٠ - ٣٤ - ٣٥).

وعبارته «ناموسكم» جديدة بالملاحظة. لأن يسوع لم يقل «ناموسنا» كما قال في مناسبات أخرى: «أباًؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا» (يوحنا ٦ - ٤٤) «لقد نُكِّت في ناموسكم» (يوحنا ٨ - ١٧)؛ «الكلمة المكتوبة في ناموسهم» (يوحنا ١٥ - ٢٥). حلاًفاً لبس الذي يقول «ناموس»

وكانه ليس من ناموس آخر (مثلاً رسالة إلى أهل رومية ٣ - ٢١)، أو «آياتي» (الرسالة الثانية إلى تيموثاوس ١ - ٣)، وذلك ليظهر لإرادته في يشرح نفسه في اللوحة.

لقد عبر يسوع جذرياً رؤية الله والإنسان والعالم عما كانت عليه في العهد القديم

- إله التوراة والكتب التاريخية في العهد القديم غير إله يسوع: إنه ليس السيد الخارجي القاسي تجاه الذين لا يؤمنون به، القومي والقبلي تجاه «مخاريبه» بل إنه الأب الذي يفتح إلى الإنسان حياته الخاصة.

ولم يعد الإنسان عبداً، وإنما هو «الابن» و«الصديق» بولس وجهه يستخدم عبارته «عبد يسوع المسيح» أو عبد الله. والكلمة في اللاتينية servus وهي تعني العبد أو القرى، وتُلفظ إلى «خادم». (رسالة إلى أهل رومية ١ - ١) (رسالة إلى العلامتين ١ - ١٠).

وتلك لغة غريبة عن يسوع: «أما أنتم فلا تدعون «أبي» (بالمعلم)، بل معلمكم واحداً، وأنتم جميعكم إخوة» (متى ٢٣ - ٨). «لأستبيحكم عبيداً.... بل أستبيحكم أصدقاء» (يوحنا ١٥ - ١٥). «وأقول لكم أنتم أصدقاءني» (لوقا ١٢ - ٤). «امضوا وفتر لإخواني...» (متى ٢٨ - ١٠).

والقطيعة واضحة مع العصات على الجبل التي لا تعرض أي ناموس خلافاً للوصايا العشر «قد قيل لكم... أما أنا فأقول لكم». وتمن «فاعلم» القول الأول إن لم يكن موسى؟ إن يسوع لا يميل وصايا إنه يدعو إلى المحبة. محبة الآخر تظهر في سفر «اللاويين» عندما يتعلق الأمر بالعلاقات الداخلية في الجماعة اليهودية (لاويين ١٩ - ١٨) لأنها مصحوبة به شريعة المثل (لاويين ٩ - ١٩).

لكنها لا تظهر في الوصايا العشر، والأمر جديدة إلى الحد الذي هو

معه يسوع لتلاميذه في آخر حديث: «إني أعطيتكم وصية جديدة: أن تحب بعضكم بعضاً». (يوحنا ١٣ - ٣٤)

ليس المقصود إذن بالنسبة إلى يسوع أن يعيد مملكة إسرائيل، وأن يكون «مسيحاً» من النمط الداودي، وإنما أن يهب وجهاً لأمل الناس جميعاً. وفي هذا المعنى، وبهذا المعنى وحده، الذي ينبغي كل حصر «الشعب المختار» به دون غيره، إنما كان دور «المسيح» الشامل ورسائله المركزية: إقامة مملكة الله على الأرض بأسرها. وهذا هو معنى عيد العصرة الذي تُلقي فيه الرسالة بكل النعات: «فندقش كل المؤمنين من أهل الختان... من أن موهبة الروح القدس قد أوصت على الأمم أيضاً» (أعمال الرسل ١٠ - ٤٥)

وذلك يسمح بتجاوز جميع الالتباسات لدى بولس حول دور «الناموس» الذي لعب، برأيه، دوراً تربوياً حتى محي، المسيح ليحل محله التبرير بالإيمان.

وهنا الخلط ناجم عن الاتصال الذي يحاول بولس أن يقيمه بين العهد القديم والعهد الجديد. والعبارة التي يستخدمها هي: «لأن غاية الناموس هي المسح» (رسالة إلى أهل رومية ١٠ - ٤) وهي عبارة ملتصقة لأن الكلمة اليونانية «تلبس» أي غاية، يمكن أن تعني أن الناموس «انتهى» أو «تم».

المطلوب، والحال هذه، هو الوضع، كما أشار «بانتيرج»: «لقد رفض يسوع باسم الناموس باعتباره مجتهداً. فهل كان يسوع مجتهداً أم أن الناموس (اليهودية كدين) قد أُلغِيَ؟».

المقصود، بالنسبة إلى يسوع، شيء آخر غير ملك إسرائيل المقصود بمملكة الله. (لوقا ٩ - ١١) وهو يفتح على ذلك ويبري أنه يعمل أعمال أبيه، جاعلاً الإله غير المنظور منظوراً.

ويأبى أن يُعتبر «ملك اليهود» وعندما سأله بيلاطس: «أنت ملك اليهود؟ فأجاب: أنت قلت، قال بيلاطس لرؤساء الكهنة وللجمع: إني لأجد على هذا الرجل جرماً» (لوقا ٢٣ - ٣ - ٤).

من الوضح إذن أن جواب يسوع لا يعني أنه يقبل هذا اللقب، وإلا فإن بيلاطس لم يكرر ليبرته: ذلك أن إعلان نفسه ملكاً لليهود هو عصيان للإمبراطور الروماني، وهو عمل يستوجب الموت.

وذلك ما تؤكده رواية يوحنا (يوحنا ١٨ - ٣٣ - ٣٨) فعندما سأله بيلاطس: «أنت ملك اليهود؟ أجاب يسوع: أمت عندك تقول هذا، أم انخرون قالوه لك عني؟ ويوضح: «إن مملكتي ليست من هذا العالم»

ويعيد بيلاطس الكرة: «أنت إذن مت؟» وأجاب يسوع أنت قلت إني ملك. لقد وُلدتُ وُجِدتُ إلى العالم لأجل هذا لأجل أن أشهد للحق» قال بيلاطس هذا وخرج إلى اليهود وقال لهم: «أنا لأجد عليه خطاً».

إن رسالة يسوع مصيعة: فهو، بأقواله وأفعاله وحياته وموته، يجعل مشيئة أبيه منظورة: فمن وراء كل قانون خاص تأريخي، من عمل الناس، يكشف عن الحياة الإلهية الأبدية الشاملة التي لا علاقة لها بإعادة مملكة هذا الشعب الخاص أو ذلك الذي يزعم بتحرير الله له.

لقد انتشرت مع يسوع الأسطورة القاتلة، أسطورة «الشعب المختار» وهي تبرير أيديولوجي لكل سيطرة سياسية أو دينية.

كل ذلك يُظهر أن موت يسوع ناجم عن حياته وأقواله وأفعاله: إن خرقه المستمر للتوراة يستحق، في نظر الكهنة اليهود، الموت مراراً. فإن الإله الذي يكشف لنا عنه يسوع - كما يقول اللاهوتي الإسباني «غونزالير فوس» - ليس إله العهد القديم.

أما الرومان فعُدوه منشوشاً للجماعة اليهودية، في حين كان تعاون

رؤساء الكهنة مع المختل ضرورياً لتفادي الحوادث. وأخيراً فهو يصحني بصراحة الأيديولوجية الأساسية في الامبراطورية: الامبراطور هو الله، ولا شيء أشدّ تحريماً من القول: ردوا ما يقصر يقصر، وما لله (مسي ٢٢ - ٢١). ذلك أن يقصر هو الله ومعارضته بالله تشكيك بالأساس اللاهوتي لسلطته

إن سلوك يسوع الإلهي يقوده إذن إلى موت مؤكد لأنه يواجه سلطة اليهود والرومان الدينية والسياسية: «الساموس» بالنسبة إلى اليهود، و«السلام الروماني» بالنسبة إلى الرومان. ولم يخطئ تلاميذه في فهم ذلك: فهم لم ينتظروا قيامته ليعرفوا فيه «ابن الإنسان» و«ابن الله»، وعجز الأعظم بالعبادة، والطريق والحق والحياة (يوحنا ١٤ - ٦) والبع الذي يتفجر حياة أبدية (يوحنا ٤ - ١٤). «وإن عندك كلام الحياة الأبدية» (يوحنا ٦ - ٦٨).

٤. هل هناك اتصال بين العهد القديم والعهد الجديد؟

هل يسوع وارث داود؟

مسألة الاتصال بين العهد القديم والعهد الجديد مسألة رئيسة. ومع أن يوس حريص على أن يجعل من يسوع، خلافاً للثة التقليدية اليهودية، المعص النبائي في العهد القديم، إتماماً للعهد الذي وعدت به إسرائيل، فإن من اليسير إظهار أن لاتسيع قد قرؤوا العهد تقدم قرينة تتجلى

لقد حفظ من بعض تصور الكثرة، لكنهم حولوها تحولاً عميقاً وشار لأنهم يودعيه هو مثل حين فالانجيليون لا يسمون الله أبداً الخالق ويمسونه يسوع دائماً «آب»، الذي يعطي الحياة لا الخالق كما يقدمه العهد القديم، أي كما تعمل عبود الكونية في جميع العبادات النبائية إله كتي القدرة، خارج الإنسان، وهو يصنع صنعا بكل موه والصورة المفصلة في العهد القديم لاستحضاره هي صورة العاجور والصلصال الذي يشكله. وكالطين بيد المصنعي يشكله كيفما شاء، كذلك البشر بين يدي خالقهم وكذلك الأمر في أرميا (١٨ - ٦) وفي اسي أشعيا (٨ - ٦٤ - ١٦ - ٢٩ و ٩ - ٦٥) الذي يشدد على عارسيه بريق المنحدر «يقول الصلصال لمن صمعه ماذا فعل»

مثل هذا شئسه لا يظهر في أي مكان من الانجيل، إلا عند يوس (رسالة إلى أهل رومية ٩ - ٢٠) الذي يردد أشعيا بصره في الأناجيل، الآب الذي يهت الحياة هو آب للجميع، دون تمييز بين

اخترين والمعدنين، بين الأظهر والمجسوس.

واقترده يسوع، صرح بصره وهو يدخل إلى مرل قائداً لثد كورينثوس «أنتم تعلمون أنه محطوّر على اليهودي أن يحافظ أحسباً، يذنو إليه. أما أنا فقد أراني الله أن لأقول عن أحد إنه بحس أو دلس» (أعمال الرسل ١٠ - ٢٨) وبضيف: «في الحقيقة قد علمت أن الله لا يعابي الوجوه، بل إن من اتقاء في كل أمة، وعمل البر، يكون مقبولا عنه» (أعمال الرسل ١٠ - ٣٤ - ٣٥).

وهكذا قصي على امتيازات الشعب المختارة الذي يعطيه الله النصر على كل شعب لا يتبعه، وبأمره بإبادته.

وهكذا قصي على جميع محرمات الدموس الترهية والتي لم يعتا يسوع بنهكها اسب (وهو انتهاك يستحق وحده الموت)، احترام بعد الذي أكد يسوع أنه يستطيع تدميره وبائه من حديد في ثلاثة أيام (مرقس ١٤ - ١٥٨ حتى ٢٦ - ٢٦؛ يوحنا ٢٠ - ١٩).

لأن مذهب الرب الوحيد هو قلب الإنسان، وليس هذا الجبل أو ذاك من الجبال المعروفة بأنها مقدسة سواء أكان أورشليم أم جازريم. وعدم قالت السامرية ليسوع: «أناؤنا عبدوا في هذا الجبل، ونقول: أنه (اليهود) إن الموضع الذي تحب فيه العبادة هو في أورشليم» قال لها يسوع صدقيني أيتها المرأة، إنها تأتي ساعة التي تعبدون فيها لا ب (يوحنا ٤ - ٢٠ - ٢١).

جميع العبادات القديمة كانت وثنية. ويسوع هو غروب لآلهة الحقيقي. ونحن لانستطيع أن نكشف الآب الحقيقي، لا عند الفلاسفة اليونان، ولا في العهد القديم: «من رأني فقد رأى الآب» (يوحنا ١٤ - ٩) وأنا والآب واحد (يوحنا ١٠ - ٣٠). «لا يأتي أحد إلى ذاب إلا بي» (يوحنا ١٤ - ٦)، «سيخرجونكم من المجمع، وسيقتلونكم... وسيفعلون

هكذا لأنهم لم يعرفوا أبي وماعز موسى (يوحنا ١٦ - ٢ - ٣). الأمر كذلك بالنسبة إلى اليهود واليونان ورومان

إن موت يسوع ناجم عن حياته (بالنسبة إلى الكهنة اليهود لأنه حرق الناموس، وبالنسبة إلى الرومان لأنه أحدث اضطراباً وتعدياً على سلام الروماني). لا عن قرار مسيحي واحد، حتى قتره الله وبرمحه سلفاً مع فائدة هذه الحياة إذ ذل والدروس التي قدمها؟

يوس هو الذي علم هذا السياريو الذي استبعدت منه حياة يسوع سيكون لموته معنى كتكفير عن الخطيئة الأصلية وعن خطايانا وكفداء.

إن ذلك تراجع نحو إله القوة لدى نجر مقاصده إذ يُرسل إلى إسرائيل مسيح القوة.

لم يُرد يسوع قط هذه القوة. مثلما أنه لم يذهب قط إلى أنه بن داود فقد رفض يسوع سلفاً هذا التأويل: «كيف يقول الكتبة إن المسيح هو بن داود؟» (مرقس ١٢ - ٣٥ - ٣٧) متى ٢٢ - ٤٢ - ٤٥ لوقا ٢٠ - ٤١ - ٤٤.

يتناهي أهل نحن بحاجة إلى الله؟ ونحن نذكر مسيرة داود المنيعة في «صموئيل الأول»، و«صموئيل الثاني»، كم كان متناقضاً الرعم بأنا نعر في يسوع على «السمات الأساسية» لرئيس المرنقة اندموي داك

في محاولة لتبرير فكرة بولس الخريص على إدراج يسوع في التواريخ اليهودي والذي يقول عن مسيحه إنه «مولود بحسب الجسد من ذرية داود، اصطفى متى (١ - ١٦) ولوقا (٣ - ٢٢ - ٣٨) إلى معاجات عربية: لقد عدّ أحدهما (لوقا) اثنين وأربعين جيلاً من داود إلى يسوع. وعدّ الآخر ستاً وعشرين جيلاً من أسماء اعتباطية جداً بحيث أن اثنين فقط (شالانيل والباثيم) يوجدان في اللاتحين، كل ذلك للوصول إلى

يوسفه الأم بالثني ليسوع، لا «بحسب الجسد»، بحسب «العرق» كما سيمول ٢ - وهو يعتد بانتسابه اليهودي

أما يسوع فهو لا يتنسب أبداً إلى هذه القبالة الشعارية الغريبة التي نصعه في ذرية داود الملكية

وفي حين يلزم بولس نفسه نفسه أمسه وهي أن يجعل من يسوع «مسيح إسرائيل»، يرفض يسوع «المسيح» دائماً هذا اللقب المرتبط بانتظام لليهود السياسي. ويشارك بولس للتلاميذ في إحسانهم وهم يعثرون باستمرار عن حياة أملهم: «متى تذهب إلى إسرائيل؟» (أعمال الرسل ١ - ١٦ - ١٧ مرقس ٩ - ١٢ - ١٣ لوقا ١٩ - ١٢).

هل يسوع هو موسى الجديد، وداود الجديد؟ أم أن الناموس قد غرسي من كل قيمة؟ هل ألقى يسوع الناموس أو أمته؟

وبعبارة أخرى: هل اضعة طيد شريعة المثل أو «إتمام لها»؟

إن تقلص بولس من هذا السؤال الأساسي مشيراً للقلق

«أفيظطل عدماً وفاتهم وفاة الله؟ كلا! وحاشاه». (رسالة إلى أهل رومية ٣ - ٣)

على الجواب عن هذا السؤال يتوقف معنى حياة يسوع وموته: هل هي «مُبرمجة» من الله مع جميع مفردات العهد القديم وروحه: الخادم المتألم، «العدي، اخلاص، التكفير، من «مسيح» (المسيح) شتم سب خطيئة، وفاء من الأموات «لتبريرنا» (رسالة إلى أهل رومية ٤ - ٢٥). المسيح الذي يكفر عن خطيئة آدم، أم أن هناك إعلاناً غير أعمال يسوع وأفعاله وحاشاه عن صورة جديده جسدياً للإنسان والجماعة؟ إن ترجمة اللاهوت اليهودي إلى اللغة اليونانية، التي قام بها بولس لا تخل إشكالية. يقول شويتزر، وجميع النصوص تُثبت ما يقوله «المسيحية»، بالنسبة إلى بولس، ليست

دينا جديداً، وإنما هي يساظة الدين اليهودي الحقيقي المتوافق مع العصر ومع الكتابات المقدسة في آن معا.

إن رواية قيامة يسوع والأموات تجسد هذه المصلات بين العهد القديم والعهد الجديد.

والانجيليون يجتمعون تقاليد العهد القديم بعضها قريب بعض ويستمدون منها حتى صورة القيامة باللغة الثقافية اليهودية التي كانت حتى الآن لغتهم، والأمل الجديد جذرياً للعودة إلى الحياة الصحيحة الأبدية، التي حمل يسوع إعلامها.

وهم يستحضرون صورة قيامة يسوع على النمط العبري: نمط رؤى حرقبال الشهيرة (٢٧/٢ - ١٢) «هأنذا أفتح قوركم» وتقررت بعضهم وبسط الجلد عليها (٣٨ - ١٧) ورؤيا هوشع اليهودية (٦ - ٢) الذي حدد للقيامة مدة ثلاثة أيام ورؤيا أشعيا (٢٦ - ١٩) حيث تقوم الجثث ورؤيا دانيال في اليهودية المتأخرة: كثيرون من الرافدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للأزدهاء الأيدي (١٢ - ٢). ومن هنا الصور الساخرة للغير الفارغ والمغلف، أو جسده يسوع الذي اكتسى جسده القديم بحراجه وحاجاته العدائية (السمك المشوي).

وفي الوقت نفسه، تلك الرؤيا العظيمة السموة رؤيا القيامة، رؤيا الحياة الجديدة التي لانهاية لها. تلك التي لاحاجة بها إلى المرور بالمير. لأن حياة يسوع نفسها هي القيامة. «أنا القيامة والحياة» من آمن بي، وإن مات سوف يحيا. (يوحنا ١١ - ٢٥)

وسوف يحيا الحياة التامة: الحياة التي تثيرها حياة يسوع كل يوم في كل الأزمنة والتي لا يبالها الموت

قد يُقال إن فصل بولس هو أنه حُرّر من ساموس وبخامه بانسكك الذي جسد به مع الصديقين والفرشيين وكسبة في ريمه لا، لأن بصوره «المعصية» التي حثت محل ساموس، ستمتحن خارجة الله نفسها. «لأن به هو حمل حكمكم أن يريدوا أن يمتصوا» (رسالة بولس إلى أهل فيبي ٢ - ١٣)

ولأنكم «لعمري محققون بالإيمان، ودمت من محكم، هو عصية الله» (رسالة بولس إلى أهل أفسس ٢ - ٨) قد ت في «هل نحن بحاجة إلى الله» كيف أن هذه «المجانبة» من الله لا تستبعد بقاها الجهة الإنسانية، دون أن تقع من أجل ذلك، في مبالغات يلاجيوس حول «الاعتداد بالاعتفاء» الإنساني الذي يعتمد كل تعالٍ إلهي

الأمر، مع يسوع، على بعض اليهودية المصلحة التي تُثير عمل بولس، هو تحوّل جذري في تصور الله والإنسان والجماعة والعالم. «ليس من أحد يحيط رفعة يحيط من سيج حده في ثوب عتيق.... ومما من أحد يجعل حمراً حديده في ردف عتقه» (مرفس ٢ - ٢١ - ٢٢)

لا بد من الاختار بين العهد القديم والعهد الجديد، ولأى به يسوع هو الأس

من المؤكد أنه ليس «أنا» «يهوه» رب جيوش والمدايح، وتقسيم المعنى إلى طاهر وجس، إلى «مختار» «مستبعد»، إنه بولس العبر مستغم «إد هو عادل عند الله أن الدين بصديقكم يحاربهم صبيعا» (رسالة بولس إلى أهل تسالوسكي ١ - ٦)

لقد أعاد بولس تهويد جماعة يسوع الأولى، يسوع الذي يقول (في انجيل مرفس ١٣ - ١٠) «ولا بد» من قبل، أن يُكرر بالانجيل في جميع الأمم. «عما أبعدنا هنا عن قول بولس (في رسالته إلى أهل رومية ١ - ١٧) لليهودي أولاً ثم لليوناني»

أعطى ما في إعادة الاتصال بين العهد القديم والعهد الجديد - بعد التحول الحدي الذي أعلمه يسوع - أن هذا الاتصال صلح أساساً للاهوت السيطرة.

إن السياسة المستمدة من الكتاب المقدس، «لبسوية»، مبنية على أسطورة «الشعب المختار»، يقول: «الإله الحق هو إله إسرائيل - المالك في السماوات والذي تُناط به جميع الامبراطوريات».

هذا هو، في الواقع، موضوع الدائم في العهد القديم التوراة (الأسفار الخمسة الأولى التي يسمونها المسحون أسفار موسى الخمسة) وأسفار أشعيا والقضاة وصموئيل الأول والثاني وشموئيل، تروي لنا تاريخ الإبادات الجماعية التي قامت بها الأسباط.

في سفر الشية الذي يُنسب إلى موسى يُوصف لـ عرؤ الكنعانيين وأند الرب الرمرمين من قدام العموريين مطردوهم وسكوا مكانهم، كما فعل لسي عيسو .. الذي أثلج الحوريين من قدامهم مطردوهم وسكوا مكانهم إلى هذا اليوم، والعويون الساكنون في القرى إلى غزوة (تشية ٢٢ - ٢١).

مباشرة الإبادات تستمر في التوراة: «التحريم»: «قدفع الرب إلهنا إلى أيدينا عوخ وجميع نومه .. محرمها الرجال والنساء والأطفال...» (تشية ١٣ - ٦).

ويشكر موسى هذا الرب الذي هو أقوى من جميع الآلهة: «يا سيد الرب، أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك وبذلك الشديدة. فإنه أي إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك»، (تشية ٣ - ٢٤). ويتابع موسى: «والآن يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التي أن أعينكم لتعملوها.. أعينكم قد أبصرت ما فعله الرب بعمل معور .. إن كن

من ذهب وراء عمل فلور أباده الرب إلهكم...» (تشية ١٤ - ٣).

وبعد أن أعين في الوصايا العشرة: «لا تقتل» (تشية ٥ - ١٧) ما لبث أن حدد دور إسرائيل تجاه الأمم: «اسمع يا إسرائيل، أنت اليوم عابر لأردن لكي تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك... إن الرب إلهك هو العابر أمامك باراً أكلفاً، هو يبيدهم فيذلهم أمامك فتطردوهم وتهلكهم سريعاً» (تشية ٩ - ١٤).

ويتابع خطبة موسى يشوع سياسة التفتيل هذه بنفس الحمية الدينية. إن كتاب «يشوع» هو، قبل غيره، كتاب المذابح التي بدأت في أريحا، فمنذ عبور الأردن «حزمو كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ .. بحد سيف» (يشوع ٦ - ٢١) ولم يستثن سوى الرابية «راحاب» التي قادت الخماسون (يشوع ٦ - ٢٢). ثم جاء دور «عاي»: «قال الرب ليشوع تفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها» (يشوع ٨ - ١ - ٢). ويتفقد يشوع الأمر حرفياً: «وصريوهم حتى لم يبق منهم شاة ولا منملك» (يشوع ٨ - ٢٢). وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم» (يشوع ٨ - ٢٨). وأنه لشيء محمّل أن نعتقد هذه المذابح، ويكفي أن نقرأ بقية الكتاب: إبادة شعب «مقيدة» (يشوع ١٠ - ٢٠) ومذبحة «بلحيش» حيث «حزم يشوع كل نفس فيها» (١٠ - ٣٤). و«بحرون» «نقم ثقت فيها شارد» حسب كل ما فعل «بعلجون» (١٠ - ٣٧). و«دييرا» «نقم ثقت فيها شارد» كما فعل «بحرون»... بل حزم كل سميف، (١٠ - ٣٩) وتم صرب كل أرض الجبل والجنوب... ولم يبق فيها شارد وحرم كل نسمة» (١١ - ٤٠). ولم يبق شارد من الكنعانيين والأموريين والحثيين والعمرانيين واليبوسيين. وتستمر لائحة التفتيل الذي اقترفته الأساطير تحت إمرة يسوع في حاصور (١١ - ١٢) وفي الجبل كله: «كما أمر الرب موسى عبده، كذلك أمر موسى يشوع» (١١ - ١٥).

وبقي عنه إبادة أهل الحرب، العسطينيين حتى عه وحتى لسان و... كل سبط من الأسباط نصيبه من الأرض والمذبح والفضة، ما عدا سبط لاوي الذي كُرس للعبادة. ويستطاع «يشوع» حيث أنه يتجزأ وصيته، فذكر مديحه «وأهلكتهم من أمامكم» (٢٤ - ٩) وبقوى التمييز العرقي حول تحريم الزواج من الآخرين (٢٣ - ١٢) لكي «لا يعود الرب يهكم يطرد أولئك الشعوب من أمامكم» (٢٣ - ١٣).

«مسي أني بنت لربك إلهي إلى الأرض التي أنت دخلت إليها لتسكنها وطلد شعوبا كثيرة من أمامك خثيين وجرحانيين والأموريين والكنعانيين والعبرانيين والخوريتيين واليبوسيين، سمع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعتهم الرب إلهك أمامك وضمهم. فإنت عزمهم لا تعطيهم لهم عهداً ولا تسكن عليهم، ولا تصاهرهم سبب لا تعطي لاسه، وبه لا تأخذ لاسك». (تثنية ٧ - ٢).

واساداً إلى هذا التشريع العرقي في الزواج، وهو تشريع تكرر مثله في قوانين «نورميرج» الهنترية. تدفع «جويوس سترينجر» مؤلف هذه القوانين، بسابقة موسى التي أكدها بعد الرجوع من شعبي «عزرا» (٩ - ١٠)، وسحباً (١٠ - ٣١) فصرح في محاكمته محرمي الحرب، في «نورميرج»، في ٢٦ نيسان ١٩٤٦. «لقد كنت أنه يجب أن نجمع في المستقبل أي احتلاط بين الدم الألماني والدم اليهودي. كنت مقالات في هذا المعنى، وكررت دائماً أننا يجب أن نتخذ العرق اليهودي أو الشعب اليهودي مثلاً لنا وكررت دائماً، في مقالاتي، أن اليهود يجب أن يُعبروا مثلاً للعروق الأخرى، لأنهم سوا أنفسهم قانوناً عرقياً، هو شريعته موسى الذي يقول «إذا ذهبت إلى بلد أجنبي فلا ينبغي أن تتزوجوا من أجنبيات». وهذا، أيها السادة، ذو أهمية رئيسية لتحكموا على قوانين نورميرج. إن تلك القوانين اليهودية هي التي أتحدث مثلاً. وعندما لاحظ المشرع اليهودي

«عزرا»، بعد قرون، أنه بالرغم من ذلك، تزوج كثير من اليهود نساء غير يهوديات، فُسح هذا الزواج. وكان هذا هو أصل العرقية اليهودية التي استمرت قرونًا بفضل القوانين العرقية، بينما بادت جميع العروق الأخرى وجميع الحضارات الأخرى.

في سفر «يشوع» صفة جذيرة بالملاحظة، وهي أنه متناقض مع مكشقات علم الآثار. وإليك مثالين من الطابع الأسطوري لهذا التاريخ المزعوم. فعندما نشر المختص بالتوراة، الألماني «سلي»، في ١٩١٣ تقريره عن حفريات أريحا، ذكر أنه قد وجدت فعلاً أسواراً مهجرة، ورأى فيها على الصور الأسوار التي تهدمت على صوت أبواق يشوع (٢ - ١٢) وبالفعل أثبت التعميمات التاريخية، فيما بعد، كما يذكر الأب «ريو»، أن الأسرياليين، عندما بلغوا آخر القرن الثالث عشر قبل المسيح، لم يستطيعوا أن يستولوا على أريحا، لأن أريحا كانت حينئذ مهجورة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى استيلاء يشوع على «عاي» (يشوع ٨ - ١ - ٢٩) فقد شدد الأب «ديفوه» على أن هذه القصة هي ليس جميع قصص المسح أكثرها تفصيلاً؛ إذ ليس فيها أي عنصر عجائبي، وهي تبدو أكثرها مشاككة للواقع. ومن المؤسف أن عالم الآثار يكذبها. ففي اللحظة التي وصل إليها الإسرائيليون لم يكن هناك مدينة هي «عاي». كان هناك حرائق قديمة عثرها ألف ومقتا سنة.

إن جدول أعمال معلني إبادة الأجناس لا ينفك هنا لا مع «العصاة» ولا مع «الملوك». ففي سفر صموئيل الأول (١٥ - ٢ - ٣): وهكذا يقول رب الجنود... اذهب واضرب عماليق بإسرائيل... ولا تعف عنهم... بل اقتل رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً... ولأن شاو لم يُقد أواصر الرب فهو يُعاقب: «دمت على أيي قد جعلت شاو منك، لأنه رجوع من ورائي ولم تقم كلامي» (صموئيل الأول ١٥ - ١٠). وحينئذ

يبحث «الرب» عن منقذ أكثر طاعة وأشد قسوة. فيرسل «صموئيل» ليأتي بالملك الذي اختاره (صموئيل ١٦ - ١) وهو داود الذي يقول عنه كتاب التعليم الديني سنة ١٩٩٢ «كان داود، قبل غيره، الملك بحسب قلب الله»، واستطاع بعضهم أن يجد في «يسوع المسيح»، «متبا» إسرائيل، سماته الأساسية.

هذه المصابقة مسخطة ولا سيما أن سيرة داود بحسب التوراة، ليس هناك على كل حال أي أثر تاريخي لداود غير ما نقلته التوراة عنه، من صموئيل الأول ١٦ إلى صموئيل الثاني ٢٤، يجعل منه شخصية مثقفة.

فداود حامل سلاح الملك شاول (صموئيل الأول ١٦ - ٢١). قد نجاه شاول الذي حسده على انتصاراته على الفلسطينيين (١٨ - ٨) فيهرب إلى الجبال ويشكل عصابة مسلحة من «المدينين والمساكين» (٢٠ - ٢)، ثم يبحار، كما يفعل قادة المرتزقة، إلى معسكر أعداء شاول وإسرائيل من الفلسطينيين، ويجعل نفسه في خدمة ملكهم «أحيش» (٢٩) ويضم عاريت لهب الصواحي «وصرب داود الأرض ولم ينسقي رجلاً ولا امرأة، وأحد عملاً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً» (٢٧ - ٩). ويجتده «أحيش» معه لمحاربة إسرائيل (٢٨ - ١) ويوافق داود (٢٩ - ٨). لكن رؤساء الفلسطينيين طلبوا من ملكهم الانفصال عن داود.

بعد احتار شاول، انشعب داود ملكاً. وأعلن ابن شاول الوحيد «إيشوبش» نفسه ملكاً أيضاً. وبعد معركة «حفن» (صموئيل الثاني ٢ - ١٧). فيها رجال إسرائيل أمام عبيد داود (المرتزقة) (صموئيل الثاني ٢ - ١٧). كانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود (٣ - ١). وقتل اثنان من رؤساء العصابة ابن شاول وأتيا برأسه إلى داود (٤ - ٨). فقطع داود أيدي

الرسولين وأرجلها وعلق الزجلين (٤ - ١٢) وبعد مقتل ابن شاول أصبح داود ملك إسرائيل ويهوذا (٥ - ٤) واستقر في أورشليم على الحد بين مملكتين. وأصبحت أورشليم مدينة داود. (٥ - ٨ - ٩)

انصر داود، منذ الحرب، في معارك عديدة «وكان يترأد معظماً والرب إله الجنود معه» (٥ - ١٠)

هي عليه أن يؤمن وارثاً للعرش، فواحه به ديث إد أحد «شليم» روحه أورثا «حتي»، أحد أكثر قادته ورعاً وإخلاصاً. وحلت المرأة (١١ - ٥)، وتخلص داود من زوجها بأن أرسله يموت في الحرب، وكتب إلى يواب، أحد رجاله: «اجعلوا أورثا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيصرب ويموت». ١١ - ٥. وهكذا وُلد سليمان.

هذا هو الجد الأول الذي كان يوبس أول من نسيه إلى يسوع وهذه التلقيفية القاتلة قد ألقت ثقها على تاريخ المسيحية حتى أيامنا هذه.

يذكر الأب «سيفودر» أن داود، في التفسير الكلاسيكي هو إحدى الصور المسبقة الأكثر كلاسيكية ليسوع في العهد القديم.

هذا التفسير الكلاسيكي هو، قبل كل شيء، تفسير الإنجيل الأول الذي تشكّل من تعميم بولس «البشارة» بالنسبة إلى بولس، هي إبحار مواعيد الله التي وعد بها إسرائيل: «ونحن نبشركم أن الوعد الذي صار لآبائنا قد حققه لنا، نحن أولادهم، إذ أقام يسوع، على ما هو مكتوب في المزمور الثاني» (أعمال الرسل ١٣ - ٣٢ - ٣٣).

ويوضح بولس: «إن إله هذا الشعب، إسرائيل، قد احتار إلهاء... وأقام لهم داود ملكاً» وشهد هذه الشهادة بـداود: «وجدت داود، على حسب فلي، وهو سيعمل بمشييتي كلها» (أعمال الرسل ١٣ - ١٧ - ٣٢)

إن سقري صموئيل وسفر الملوك الأول أوتنا ما تلك المشيئة وكيف تمت.

سوف تُقَي هذه القراءة السلفية ثقلها على كل تاريخ الكنيسة منذ بولس، ويستند بولس في أعمال الرسل (١٣ - ٣٤)، من أجل يسوع، إلى نبوءة أشعيا (٥٥ - ٣) «إني أمسحكم مواعيني لداود الصديقة وسيوضح الوفاء بعده: «وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه» (لوقا ١ - ٣٢).

هذا التقليد القديم يقوم على حصار حاسم اختيار لاهوت البسطة وهو لا يبرح حياة داود وحده كما روتها أسطورة وأيضاً بعض الميراث التي تُنسب إليه وجدير بالذكر أن تعظيم موهبته وأشيائه يرجع إلى الميراث المنسوبة إلى الملك (المسيحي) داود، ولا سيما المزمور ١١٠ - تشيد القوة والتسلط (١١٠ - ٢) بأوضح معنى: «أضغ أعدائك موطئاً لقدميك... ملأ جثثاً أرضاً واسعة... سحق رؤوسها» إن هذه القصيدة المصحفة التي كتبها صموئيل تظهر أن الأمر ليس أمر استعارات

النصوص التي استشهدنا بها ليست سوى أمثلة نزرعة بين الكثير غيرها مما يحرر بها العهد القديم دون أن يكون ممكناً النظر إليها كاستعارات. بها ما تزال تصلح اليوم لتبرير السياسات^(١). فكيف يجوز لها أن ترد بين «النصوص المقدسة» للمسيحيين إلى جانب الأنبياء والأنجيل؟

كيف يمكن لهذا الإله الدموي والقبلي أن يكون مثيلاً للآب الذي ينهل إليه يسوع، وكيف يمكن أن يُعتبر مقدوه الوحشيون، كداود مثلاً، رؤاداً ليسوع؟ ومع ذلك فبرعاية بولس، مؤلف أول الإنجيل، صيغ هذا الاتصال الذي لا يُنكر.

(١) إن تلك القزوات والمدائح وانعصاب الأرماسي من السكان الأصليين نموذج أصلي لجميع الابتزازات الاستعمارية باسم الله

كان شمل اشاعل بولس هو إدراج يسوع في التاريخ اليهودي...
ثم يحمل إليه جديداً، وإنما حمل إليه خاتمة يُشر بها من قبل: المسيح هو حقاً المشيا الملكي «في ذروة داود».

هذه المماثلة بين يسوع ومشيئه إسرائيل يفود بالضرورة إلى لغة مردوجة (من بولس إلى أيامنا)

عندما يعلن بولس: «فليس بعد يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى» (رسالة إلى أهل غلاطية ٣ - ٢٨) ورسالة إلى أهل رومية (١٠ - ١٢) إن هذه العبارة الرفيعة ياقصها تعليمه العملي

إذا كانت لقصبه قصيدة تأكيد «فليس بعد يهودي ولا يوناني»، فإنك تأكيد الأكثر جذرية عن أفصالية اليهودي «إني كنت أود لو أكون أنا نفسي محروماً من المسيح لأجل إحتوتي ذوي قرباي حسب الجسد، فهم إسرائيليون لهم النسي والخذ والعمود والساموس والعبادة والمواعيد، ولهم أيضاً الآباء، ومهم المسيح بحسب الحسد الذي هو فوق كل شيء، إله مبارك إلى الدهور» (رسالة إلى أهل رومية ٩ - ٣ - ٥).

لقد عُذنا إذن، في استمرار العهد القديم، مع يهودية بولس المصلحة هذه، عبداً إلى «يهوه»، إلى إله القوة. هذا الإله يستقبل اليهودي أولاً واليوناني بعد ذلك» (رسالة إلى أهل رومية ١ - ١٦) شريطه أن يصل بالتصوّر اليهودي لله، وأن يقل بإصلاح بولس الذي يحمل من يسوع خاتمة التاريخ، ليكون إسرائيل الحقيقية، بقيتها الحقيقية (رسالة إلى أهل رومية ١١ - ٥).

هل المقصود تحرير العبيد؟ «فليسمر كل واحد على أخته التي ذمها فيها أذعيت وأنت عبد» فلا يتحدث ذلك حتى إن أمكنك أن تسأل الحرية، فاستعد بالحرية من وصفت» (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس

٢٠ - ٢٨) «أيها العبيد أصبحوا سادسكم البشر بخوف ووجل، وفي سلامة القلب، كطاعتكم للصحيح» (رسالة إلى أهل أفسس ٦ - ٥).

«ليخضع العبيد لسادتهم؛ وأن يكونوا في كل شيء خاضعين... لكي يكونوا في كل شيء خاضعين لله مخلصاً» (رسالة بولس إلى تيمس ٢ - ٩).

أما لسانه فطلب من الخصوم نفسه وعلى نحو أكثر تكراراً «لأنه ليس الرجل من المرأة، بل امرأة من الرجل، وفي الواقع لم يُخلق الرجل لأجل المرأة، بل المرأة لأجل الرجل» (رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثة ١١ - ٨ - ٩).

ومن هذا التفاوت اللاهوتي نتج نتيجة عملية: «أيها النساء خضعن لرجالكن» (رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس ٥ - ٢٢ وإلى الكولسيين ٣ - ١٨). «إني لأبيح للمرأة أن تعلم ولا أن تتسلط على الرجل، بل عليها أن تلتزم الصمت» (رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس ٢ - ١٢) «في خضوع كامل» (٢ - ١١). «فلتصمت النساء في الجماعات» (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة ١٤ - ٣٤ والأولى إلى تيموثاوس ٢ - ١٢). «فإن لم تنطق فلتصمت شعراً» (الأولى إلى أهل كورنثة ١١ - ٦). كتب بولس على نحو رائع: هو القائم في صورة الله. وصغ نفسه (رسالة إلى أهل فيليبي ٢ - ٦ - ٨) لكنه بشر بحجته الثاني وكأنه محيي داود جديد مبصر «أنه لابد أن يملك إني أن يصع جميع أعدائه تح قدميه» (رسالة إلى أهل كورنثة ١٥ - ٢٥) وهو يرجع هنا إلى مزمو داود (١١٠) الذي يعظم القوة الحربية التي لا هودة فيها. «الرب يحطم في يوم رجزه ملوكاً.. ملأ جثثاً أرضاً واسعة، سحق رؤوسها» (المزمير ١١٠ - ٥ - ٦).

كيف يمكن التوفيق بين هذه الشراسة وبين نشيد المحبة البديع في

الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة (١٣ - ١ - ٣).

إن المذاهب وشرعة المثل، شرعة الثأر ميؤزة سلفاً عند بولس كما هي ميؤزة في العهد القديم. فهذا الإله «يتقم» (الرسالة الثانية إلى أهل نسابوبكا ٢ - ١ - ٨)، كما يتقم في العهد القديم، ويصوب في هذه الرسالة «إله من العدل عد الله أن يجاري بالصيق لذين يصايفونكم» (٢ - ١ - ٦). من الصعب أن نتعرف في هذا الإله على إله «العصاة على الجبل»، إلا إذا رأينا في المحبة إتمام «شرعة المثل»، وفي يسوع وارثاً لداوده سيد الحرب.

ليس مدار الكلام هنا على التاريخ أو الماضي فقد حدد بولس «لاهورت السيطرة» فرقده بكنيته «كتاب التعليم الديني» سنة ١٩٩٢ استنداً إلى بولس، وأوضح الكتاب «الخاضعون للسلطة يظفرون إلى رؤسائهم باعتبارهم يمثلون الله».

واكتفاءً مما بأحدث مرحلة تقول: إن هذا المذهب الدائم طبقته حريفاً الأسقفيا. ففي ٢٤ كانون الأول ١٩٣٦، دعا الأسقف الألماني، في رسالة رعوية، الكاثوليك إلى السير وراء الموهرة، «إن رعيم الراح ومستشاره قد تبين في الوقت المناسب نهات البشعية.. ويرى الأسقف الألماني من واجبهم أن يدعموا رعيم الراح في كفاحه، بجميع الوسائل التي يحورتهم في المجال الديني».

صحيح أن البابا «بي» الثاني عشر في رسالته البابوية يدين مذهب المرق والدم، ويقر بأن هتلر ينتهك المواثيق المبرمة، لكنه لا يندد بالمعاهدة البابوية التي وقعها سلفه البابا «بي» الحادي عشر في ١٩٣٣، حتى إن مؤتمراً أسقفياً ألمانياً جديداً عُقد في تشرين الأول في فولده، استذكر التضحية التي يؤديها الجيش النازي «من أجل قضية حرية الشعوب جميعاً».

وهي أسب، في عهد فرسكو. رأى الكنديين رئيس لأساقفة في
حرب فرسكو ضد جمهورية «صليبية حقيقيه من أجل الديار
الكاثوليكية» (بدء ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٦)

وثمة رسالة جماعة من جميع لأساقفة لأسب لتولية فرسكو أمام
عيون العام كله ويشرح رئيس أساقفة اسبانيا رسالة ٢٢ آب ١٩٣٧
بقوله «الرسالة الجماعية التي تمثل رسميًا كنيسة اسبانيا، خاطبت
الكنيسة الجامعة».

وكذلك كان الأمر في فرنسا، ناسية إلى «ديار» عدد ١٥ تشرين
الذي ١٩٤٠، أعس رئيس أساقفة «القول»، بحسب التقليد الخالص
للرسمية «سياسية» «هدد الرعشة» و«هيه الله، لوطس»، وفي ٢٦ كانون
الأول «ديتال هو فرنسا، وفرنسا هي بيتنا». وفي ١٥ كانون الثاني
١٩٤١، في اسقفية «محله»، وفي ٥ شباط ١٩٤١، في المنطقة الحرة -
ماعدًا رئيس أساقفة تولوز الأسقف ساليح - دعا الشعب الفرنسي إلى
التعاون مع السلطة «نحن نعلن إخلاصنا الكامل نحو السلطة القائمة
لحكومة فرنسا ونطلب إلى المؤمنين أن يحافظوا على هذه الروح...» وأن
يتعاونوا معها دون وجل.

إن لاهوت السيطرة البولسي ما يزال يلهم اليوم إعادة الملكية
لساسة روه «صد» «فتح الفتيكان الديني». وكتاب «تعليم الديني لسنة
١٩٢٢ يصحح أساساً نظرياً لهذه الممارسة العملية المحافظة. وهو يشكل
صفحة ثالثة لتعليم الديني للقسيس «بي» الخامس (الذي يحله الأسقف
ليبير)، وهو «لتعليم الديني» «يثق عن مجمع «ترانت» (١٥٤٥) -
١٥٦٣) أثناء الإصلاح الديني المضاد. يقول كتاب التعليم الديني لسنة
١٩٩٢: «إن مجمع ترانت» يشكل مثلاً... عملاً من الطراز الأول
كمحتصر للعقيدة المسيحية»

وبالروح نفسها، روح احترام النظام القائم، إن إدانة روما للاهوت
التحرر من قبل الكاردينال «راتزجر»، في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٨٤، تسبق
بشهرين إعلان «سانتافي» (٧ شباط ١٩٨٥) حيث صرح ايدولوجيو
ريغان والمخابرات المركزية الأمريكية (الاقتراح ٣): إن سياسة الولايات
المتحدة الخارجية يجب أن تُبأشر مواجهة لاهوت التحرر.

إن الخلف المقدس المعقود بين ريغان والفاتيكان في حزيران ١٩٨٢
والذي كشفت عنه في الولايات المتحدة مجلة تايم، والذي أكدته رونالد
ريغان نفسه في معاملة حصص بها «الكنيسة الكاثوليكية الإيبالية» «هابوراما» في
١٢ آذار ١٩٩٢، يمتد من أمريكا اللاتينية إلى بولونيا. صرح ريغان: كان
الديار «دا عوي كبير، حاسم لدعم حركة التضامن في بولونيا. وقد وجدنا،
هو وأنا، القاسم المشترك بين الولايات المتحدة والفاتيكان بالنظر إلى وحدة
نفسا العليا».

والحق أن هذه السياسة الامبراطورية من قبل روما تعاني إخفاقات
مدوية في ساحات القتال الأكثر حساسية بالنسبة إلى «جان بول» الثاني.
في بولونيا وفي إيطاليا، ففي بولونيا، لا الدولارات ولا المباركات جئت
«لشعاليها» «هيار السلطة السياسية لكنيسة تعاقبت» مع ذلك، خلال
فرون، مع الأمة. وفي إيطاليا، لم تمنع «تعليمات» «صريحة» من الديار التي
تُدرم الأساقفة، في ١٩٨٧، بجعل الكاثوليك «صوتون» للديموقراطية
المسيحية، لم تمنع الانهيار الكلي، في الانتخابات التالية للحزب الديني
الذي حكم منذ نحو نصف قرن

هذه الإخفاقات لتدخل الكنيسة في السياسة لم تمنع الفاتيكان من
السير بعناد في الطريق نفسها: إنه الأول والوحيد الذي اعترف بدكتاتورية
العسكريين المدعومة في هايتي ضد الأب «الريستيد»، المدب لتعاطفه مع
لاهوت التحرر وقضية البؤس في هايتي.

وذلك مثلما أعرب البابا عن توفقه إلى الدكتاتوريات العسكرية حين طُوب أكبر مسيحي لفرانكو، الأستاذ في معهد «أوبوس دي»، اسكريف دي بالاعويرو، أو حين وجه إلى جلاله تشيلي، الجنرال «بيوشيه» ماركته لرسولية الخاصة التي نُشرت في الصحيفة التشيلية «ميركورو» في ٣٠ آذار ١٩٩٣.

ولسنا هنا ياردء بعض الشوائب، لكنها النتيجة المذهية الصارمة للاهوت السيطرة الذي صاغه لأول مرة القديس بولس في مقابل رسالة يسوع المحزنة

هذه العودة الفظة للاهوت السيطرة الذي أمثل مجمع الفاتيكان الثاني بأنه سوف ينتهي، تميزت بأعمال التعيش الجديد

إن لاهوتي التحرر الكبير، ليوناردو بوفد، أجبرته الإدارة البابوية على «صمت»، ولكي يتابع عمه بروح «فاتيكان الثاني» وروح ميدلاند: الخيار «لأنه من أجل الفقراء أرغم على الاستقالة».

في ٢٦ تشرين الأول استدعي الأسقف «رويز» أسقف سان كريستوبال من لاس كازاس في مقاطعة شيباز في المكسيك، من قبل القاصد الرسولي «بريجيود» الذي طلب منه أن يُوقع طلب استقالة وكانت حطيفته الكبرى أنه دافع عن الهنود والملاحين الفقراء باسم لاهوت التحرر الذي كان مقرره في مؤتمر «ميدلان» الأسقي، في حين أن لفاتيكان وقع ضدهم اتفاقاً مع حكومة المكسيك القمعية، كما هدده كبار ملاكي المنطقة بالموت وطالبوا بإعدامه، وكما فعلوا بسله الشهير «بارتولزكيخ دي لاس كازاس» حامي الهنود، قبل أربعة قرون.

ومي كانون الثاني ١٩٩٥ جاء دور أسقف «بغرو» «بغرو» ليعمى من مصبه، بالرغم من احتجاج العديد من الأساقفة واللاهوتيين، في العالم بأسره، ومن مئات آلاف الكاثوليك الفرنسيين المحتلفي الإيمان الذين

وجدوا الأمل في افتتاح الفاتيكان الثاني على العالم

له يُعبر للأسقف «بغرو» عصى تعليمات روما عندما رفض في سنة ١٩٨٣، أن يُشارك في قبول الفسفة لبوغيه، وأيضاً لأنه حارب باستمرار جميع أنواع الفصل والاستبعاد. وبعد توبيخ من الناطق باسم الأسقفية مع موافقه تمثل الأصولية العائليكية، في فرنسا، الكاردينال «لستشر» (متمم هو الكاردينال «تروجيلو» حين أسقفه أمريكا اللاتينية) فرض عليه متفد لحكم الاستقالة.

هكذا يتأكد، كرد فعل على آمال الفاتيكان الثاني، الخيار الأخير من الباب والإرادة البابوية في روما، الخيار إلى جانب الأعياء والأقوياء.

بيان تفصيلي بأعمال روجيه غارودي وبالدراسات التي تناولته

أولاً - أعمال روجيه غارودي

١ - تاريخ الماركسية.

- المصادر الفرنسية للإشتراكية العممية. دار الأمن وليوم ١٩٤٩. تُرجم إلى البولونية والألمانية واليابانية

- الله قد مات. دراسة حول هيجل، المطبوعات الجامعية الفرنسية تُرجم إلى الألمانية والإسبانية (الأرجنتين) والبرتغالية ١٩٦٢

- فكر هيجل. دار بورداش برجم إلى الإسبانية والبرتغالية والألمانية وإيطالية ١٩٦٦

- كارل ماركس. دار سيمير ١٩٦٥ تُرجم إلى إحدى عشرة لغة الشبكية، الرومانية، الانكليزية (الولايات المتحدة)، الهنغارية، البرتغالية (البرازيل)، الإسبانية (المكسيك)، الألمانية، اليونانية، الإيطالية، اليوغسلافية والعربية (لبنان). (أعيد طبعه في فرنسا في ١٩٧٢ وفي ١٩٧٧).

٢ - مشكلات الماركسية.

- النظرية المادية للمعرفة. المطبوعات الجامعية الفرنسية ١٩٥٢ تُرجم إلى التشيكية والروسية واليابانية والألمانية.

- بحرية المطبوعات الاجتماعية ١٩٥٥ برجم إلى الرومانية واليونانية والسلوفاكية والألمانية والسنسكريتية والإسبانية (كوبا) ولبنانية

- نفاق الإنسان. مطبوعات الجامعية الفرنسية ١٩٦١. تُرجم إلى العربية والإيطالية والإسبانية (الأرجنتين) والبولونية والبرتغالية (البرازيل) الصبعة الفرنسية الرابعة في ١٩٦٩

- ماركسية القرن العشرين. دار بلون ١٩٦٦. تُرجم إلى النرويجية

والانكليزية (الولايات المتحدة وكنكترا) والتركية والتشيكية والألمانية والإسبانية واليابانية والرومانية.

- من أجل نموذج فرنسي للاشتراكية. غاليمار ١٩٦٨.

- هل يمكن للمرء أن يكون شيوعياً اليوم. مطبوعات غراسيه ١٩٦٨. تُرجم إلى الإسبانية والألمانية والبرتغالية والإيطالية والصربية.

- معطف الاشتراكية الكبير. دار غاليمار ١٩٦٩، تُرجم إلى اثني عشرة لغة: الألمانية، الصربية، البرتغالية، الانكليزية، السلوفينية، التركية، السويدية، اليابانية، الإسبانية، اليونانية والإيطالية.

- الماركسية والوجودية. دار بلون ١٩٦٦. تُرجم إلى الألمانية والإسبانية (الأرجنتين) والبرتغالية (البرازيل) واليابانية والإنكليزية (الولايات المتحدة الأمريكية).

- أسئلة موجهة إلى سارتر. مطبوعات كلارك ١٩٦٠. تُرجم إلى الهنغارية والروسية.

- براغ ١٩٦٨.. الحرية المعلقة، فايار ١٩٦٨. تُرجم إلى الإيطالية والبرتغالية (البرازيل).

- الحقيقة التامة. غراسيه ١٩٧٠. تُرجم إلى الإيطالية والألمانية والسلوفاكية والبرتغالية (البرازيل) والإسبانية (فنزويلا) والانكليزية (نيويورك) والهولندية والفنلندية والسويدية واليونانية والصربية.

- تذكرة... (تاريخ مقتضب للاتحاد السوفياتي). مطبوعات الزمن الكرزي ١٩٩١.

٣ - الدين.

- الكنيسة والشيوعية والمسيحيون. المطبوعات الاجتماعية ١٩٦٩. تُرجم إلى البولونية والهنغارية والسلوفاكية والروسية.

- من الحرم إلى الحوار. «بلون» ١٩٦٥. تُرجم إلى عشر لغات: الألمانية والهولندية والانكليزية (الولايات المتحدة وكنكترا) والتشيكية والإسبانية والبرتغالية (البرازيل) والبولونية واليابانية (المقدمة الألمانية لآب كارل كاهن).

- محو حتمية التاريخ. المركز البروتستانتي للدراسات، جنيف ١٩٧٣.

- الإسلام الحي. دار الكتاب، الجزائر ١٩٨٦.

- أصوليات. مطبوعات بيريلفون. تُرجم إلى العربية والتركية والإسبانية ١٩٩٠.

- هل نحن بحاجة إلى الله. مقدمة بقلم الراهب بيريل. مطبوعات «دهكليه دي برولر» ١٩٩٣. تُرجم إلى الإسبانية والهولندية.

٤ - الأخلاق.

- الماركسية والأخلاق. المطبوعات الاجتماعية ١٩٦٨. تُرجم إلى البولونية والإيطالية.

- ما الأخلاق للماركسية. المطبوعات الاجتماعية ١٩٦٣. تُرجم إلى الإسبانية (كوبا).

- الإنسانية الماركسية. المطبوعات الاجتماعية تُرجم إلى الروسية والرومانية والهنغارية والإسبانية (الأرجنتين).

٥ - علم الجمال

- مسار آراغون: من السريالية إلى العالم الواقعي. غاليمار ١٩٦١. تُرجم إلى الهنغارية. من أجل واقعية للقرن العشرين. دراسة عن فيرنان ليجيه غراسيه ١٩٦٨.

- واقعية بلا ضفاف. دار بلون ١٩٦١. تُرجم إلى ثلاث عشرة لغة: البولونية والهنغارية واليونانية والإسبانية (الأرجنتين وكوبا) والهولندية والتشيكية واليوغسلافية واليابانية والرومانية والألمانية والتركية والبرتغالية والروسية (مقدمة لويس آراغون).

- لفرقص حياتنا مطبوعات «سوي» ١٩٧٣. تُرجم إلى الإيطالية والبرتغالية والهولندية والإسبانية والفارسية واليونانية (مقدمة موريس بيجار).

- ٦٠ عملاً تُبشر بالمستقبل. مطبوعات «سكيرا» جنيف ١٩٧٤.

- الجامع: مرآة الإسلام. مطبوعات جغوار، باريس ١٩٨٥. طبع باللغات

الثلاث الفرنسية والعربية والانجليزية. مع ١٥٠ صورة ملونة.

٦ - حوار الحضارات.

- الإسهام التاريخي للحضارة العربية الإسلامية. الجزائر ١٩٤٦، تُرجم إلى العربية.

- المشكلة الصربية، مطبوعات سبغير ١٩٦٧. تُرجم إلى التشيكية والإيطالية والصربية والبرتغالية (البرازيل) والألمانية والهنغارية واليابانية.

- من أجل حوار الحضارات مطبوعات دينويل، تُرجم إلى العربية والتركية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية والألمانية.

- كيف يصبح الإنسان إنسانياً. مطبوعات إفريقيا الشابة ١٩٧٨.

- وعود الإسلام. مطبوعات سوي ١٩٨١. تُرجم إلى العربية والبرتغالية (البرازيل) والأندونيسية والإسبانية والتركية والألمانية.

- قضية إسرائيل، مطبوعات بايروس ١٩٨٣. تُرجم إلى العربية والألمانية والإيطالية.

- فلسطين أرض الرسالات الإلهية. مطبوعات «الباتروس» باريس ١٩٨٦، تُرجم إلى العربية والإسبانية والإيطالية.

- الإسلام في الغرب: قرطبة إحدى عواصم الفكر، مطبوعات هارتمان ١٩٨٧. تُرجم إلى الإسبانية.

٧ - أبحاث حول ابتكار مستقبل ذي وجه إنساني.

- استعادة الأمل، مطبوعات غراسيه ١٩٧١. تُرجم إلى الهولندية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية واليونانية.

- الخيار، مطبوعات روبر لافون ١٩٧٢. تُرجم إلى الألمانية، الإسبانية (فنزويلا) واسبانيا، الهولندية، الإنكليزية، الإيطالية، البرتغالية، السويدية واليونانية.

- مشروع الأمل، مطبوعات روبر لافون ١٩٧٦. تُرجم إلى الإيطالية والبرتغالية والإسبانية والألمانية.

- ماقولك بما أنا؟ رواية. مطبوعات سوي ١٩٧٨. تُرجم إلى البرتغالية والعربية والإيطالية والهولندية والألمانية.

- عهد الرجال: مطبوعات روبر لافون. تُرجم إلى الإيطالية والإسبانية والفنلندية واليونانية والبرتغالية (البرتغال والبرازيل) والألمانية والهولندية واليابانية والصربية.

- نداء إلى الأحياء. مطبوعات سوي ١٩٧٩. تُرجم إلى الألمانية والدانماركية والبرتغالية والإسبانية والإيطالية والعربية والتركية والكاتالانية.

- ما يزال في الوقت منسج للعيش. مطبوعات ستوك ١٩٨٠. تُرجم إلى البرتغالية (ليشبون والبرازيل).

- من أجل مجيء المرأة. مطبوعات ألبان ميشيل ١٩٨١. تُرجم البرتغالية والعربية والألمانية والإسبانية.

- ترجمة القرن العشرين. وصية روجيه غارودي الفلسفية. مطبوعات توغي، باريس ١٩٨٥. تُرجم إلى الإسبانية (مليد). مقدمة الأب «شيتو».

- من أجل إسلام القرن العشرين. مطبوعات توغي، باريس ١٩٨٥. طبع باللغات الثلاث: الفرنسية والعربية والانجليزية.

- في معاكسة الليل (قصيدة). مقدمة «صلاح سنيّة». مطبوعات لير، لوزان ١٩٨٧.

- جولي في القرن وحيداً «مذكرات». مطبوعات روبر لافون باريس ١٩٨٩. تُرجم إلى الإسبانية.

- إلى أين نذهب؟. مطبوعات ميسيدور، باريس ١٩٩٠. تُرجم إلى الألمانية.

- حفار القبور. مطبوعات ارشيبيل باريس ١٩٩٢.

ثانياً: دراسات حول أعمال روجيه غارودي

• في فرنسا

- ر. ب كوتيه: مسيحيون وماركسيون. حوار مع روجيه غارودي. مقدمة

الفهرس

٧	مقدمة: حقيقة التبوة
١١	مدخل: صلاة لراحة الانتحطاط
٢١	١ - حرب بين الإسلام والغرب؟
٢١	يسوع المسيح نبي من أنبياء الإسلام
٣٠	التطرف الإسلامي مرض الإسلام
٥١	٢ - حرب بين الإلحاد والإيمان
٥١	هل الإيمان أقوى أم عميرة
٥٦	الغابات الأخيرة والغابات قبل الأخيرة: بروميشوس أم يسوع؟
٥٩	هل مات ماركس؟
٧٣	٣ - حرب بين وحدانية السوق والمعنى
٧٤	ما وحدانية السوق؟
٧٥	وسائل الإعلام واللامعنى
٨٠	النصف الآخر للعالم
٨٤	تعزل الغرب
٨٩	٤ - إلى أي إله نحن محتاجون؟
٨٩	الإيمان والعقيدة

١٩٧٠ - ١٩٧١

- كوزيمو كبولي: التعددية والحوار في فكر غارودي (أطروحة فلسفية)، جامعة ليتشي ١٩٧٢ - ١٩٧٣.
- دينو مانفيران: روجيه غارودي ومشكلة الحرية. كلية الاجتماع في ترانت ١٩٧٤.
- فرانيسكا براتريغالي: علم الجمال لدى غارودي (أطروحة)، جامعة بادو ١٩٧٤.
- ايتالوا ليني: روجيه غارودي: ماركسي من القرن العشرين. (أطروحة)، جامعة بيز ١٩٧٤.
- مانويل باغولا: الذاتية والتعال في فكر روجيه غارودي (أطروحة)، جامعة لانترانسيس، روما ١٩٧٤.

• في البرتغال

- م. ف. برانكو: حوار مع روجيه غارودي. لشبونة ١٩٧٩.

• في الاتحاد السوفياتي

- موندجيان: المترجم غارودي. مطبوعات أكاديمية العلوم، موسكو ١٩٧٣.

• في يوغسلافيا

- زدرافكو موتيسيك: أبحاث غارودي الفلسفية. مطبوعات سلوفو، بلغراد ١٩٧٢.

• في زالير

- لامباتيوا: الأسس الفلسفية لاشتراكية روجيه غارودي من أجل إعادة النظر في الاشتراكية الأفريقية (أطروحة). جامعة لوبوفياشي ١٩٨٢.

٩٨.....	الله الذي صار إنساناً؟
١٠٢.....	الأسطورة والتاريخ: من الإيقونة إلى الوثن
١٠٧.....	تصريف كلمة الله
١١٣.....	تاريخ الإنسانية للقدس
١١٧.....	٥ - الإله الذي لا يكف عن الخلق
١١٧.....	أليس من فنّ سوى الفنّ المقدس؟
١٣٧.....	خاتمة: الإنسان إله في طور إزهاره
١٤١.....	ملحقات:
١٤١.....	١ - هل توجد أدلة على وجود الله؟
١٤٤.....	٢ - لاهوت القرن العشرين وحوار الحضارات
١٥٢.....	٣ - مسيح القدس بولس هل هو يسوع؟
١٧٠.....	٤ - هل هناك اتصال بين العهد القديم والعهد الجديد؟
١٩١.....	أعمال روجيه غارودي
١٩٩.....	الفهرس